انيس صايغ

لبنان الطائفي

دار الصراع الفكري
بيروت
١٩٥٥

انيس صايغ

لبنان الطائفي

شعبان

دار الصراع الفكري
بيروت
١٩٥٥



الى «« قديسة »»

تمهيد

للطائفية ، هذا الخطر الاكبر الجاثم على صدر الواقع اللبناني ، وجوه ثلاثة تستوجب الاطلاع عليها ، فى سبيل الاحاطة بهذا الخطر احاطة علمية شاملة . والوجه الاول فلسفي ، يبحث فى منطق الطائفية ، وحقيقة تركيبها ، واسسها واخطارها واسبابها ونتائجها. والوجه الثاني واقعي ، يبحث فى وضع الطائفية الحاضر ، فى لبنان الرسمي والشعبي، وعلاقتها بالمؤسسات اللبنانية المختلفة واثرها فى تقرير مصير هذا البلد . اما الوجه الثالث فتاريخي : يتناول الطائفية كفكرة متطورة على مدى الاجيال ، وما لابس هذا التطور من مؤثرات خارجية ، والى ما ادى اليه من اثر فى التاريخ اللبناني .

وقد قام اخي الدكتور فايز صايغ بدراسة الطائفية ، فى مسلكها الفلسفي، فى كتابه «الطائفية» الذي صدر فى بيروت سنة ١٩٤٧ . وكانت

دراسته هذه خير ما كتب فى فلسفة الطائفية ، بحيث سد كتابه فراغا كبيرا فى بحث الطائفية بوجه عام . ويعد زميلي السيد حليم فياض رسالة جامعية فى المسلك الواقعي للطائفية . وقد صرف عليها مؤلفها جهودا تؤهلها لان تكون خير ما كتب فى موضوع الطائفية فى الادارة اللبنانية . وارجو ان يتمكن من نشرها قريبا .

الا ان الناحية التاريخية من الطائفية لم تظفر بعد بدراسة واسعة واحدة ، كالدراستين الاخريتين ــ على الرغم من اهمية هذه الناحية بالنسبة الى الطائفية كموضوع شامل . لذلك قمت فى هذا الكتاب بدراسة الناحية التاريخية ، واكتفيت بهذه الناحية ، ولم اتعرض للوجهين الفلسفي والاداري فى حاضر الطائفية وكيانها كفكرة عامة . وآمل ان يشكل كتابي ، مع الكتابين الاخرين ، سجلا وافيا لهذا الموضوع الخطير .

وقد يعيب علي بعض القراء معالجة هذا الموضوع ، اعتقادا منهم بان اثارته ، ولو كانت فى نطاق علمي ، تساعد على اذكاء نار الطائفية ــ هذه النار السريعة الاشتعال . كما سيعيب علي آخرون اقتصار بحثي على الناحية التاريخية المجردة ، دون التطرق الى الدور التوجيهي ، بدرس مستقبل الطائفية ووصف حلول مشكلتها المزمنة واقتراح طرق علاجها . ولكني اجيب على هذه الانتقادات بأن السرد التاريخي للطائفية ، واستيعاب فكرة تطورها مع الايام ، هما الخطوة الاولى ، التي لا بد منها لاي علاج يمكن ان يشفي لبنان من دائه المزمن ؛ فهما مقدمة وعي اخطار الطائفية ، من اجل المبادرة الى اعلان الحرب عليها . **ولا يمكن ان نجند انفسنا ضد الطائفية ما لم نعتبرها عدونا الاكبر . ولا يمكن ان نعادي الطائفية ما لم نع حقيقتها ، ونعرفها حق معرفة** . ونسيان خطر هذا المرض ، واي مرض آخر ، ليس علاجا صحيحا له . بل ان السكوت عنه او اغفال امره هو الاذكاء لنيرانه ، والتمهيد لبذور الطائفية كي تتعمق فى الافكار والانفس ، فى حجب تخفيها عن الاعين البسيطة . **فالحقيقة ، مهما كانت جارحة ، انفع من الباطل . والمعرفة ، مهما كانت بشعة ، اجمل من الجهل .**

وحسب هذا الكتاب ان يصور للقارىء عمق جذور الطائفية ، وشمول سلطانها على التاريخ اللبناني بأكمله . وحسب حقائقه ان تكشف اوراق الطائفية ، وتفضح حقيقتها التاريخية ، ليتضح للرأي العام ، الذي لا يزال يجهل الكثير من خفايا هذا الداء ، اثر الطائفية السيء فى تاريخ بلاده ، فى ماض طويل يمتد الى الحاضر ويهدد المستقبل . واني آمل ان يكون هذا الكتاب سعيا مثمرا ، من جملة المساعي التي اخذت على عاتقها مهمة **نقل لبنان من الصعيد الطائفي الضيق ، الذي عاش ويعيش فيه ، الى عالم اللاطائفية الرحب ـ وهو العالم الذي يمكن لبنان ان يكون ، بحق ، نطاقا واسعا للاشعاع الحضاري ، وضمانا امينا للفكر الحر** . وآمل ان يقوم كتابي بدوره فى الاشتراك مع الجهود الاخرى **لتحقيق البذرة الصالحة التي حافظ عليها اللبنانيون الحقيقيون ، دون ان يستسلموا للبنان الطائفي ، ولتمزيق لبنان الطائفي المزور هذا ، وتحقيق لبنـان الصحيح ، الموحد ، كما هو فى مثلنا العليا وامانينا .**

ذلك ان الصـورة القاتمة التي رسمتها للبنـان الطائفي فى الصفحات التالية من الكتاب لا تمحي صورة اخرى ، موجودة فى آمال المخلصين من ابناء البلاد ، للبنان اللاطائفي . **ولولا الايمان بلبنان اللاطائفي هذا ، والاعجاب بجماله وعطائه وكنوز الحق والخير الموجودة فيه ، لما نهتم اليوم بتتبع تاريخ لبنان الطائفي الذي فقد ذلك الجمال ، ونضب منه ذلك العطاء وخسر تلك الكنوز** . فلبنان الذي جعل الطائفية اساس حياته وتعهد نموها عشرات القرون ، سعد بابناء حملوا بذور المساواة والوحدة الوطنية والاجتماعية ، وظلوا مع الايام ، تعبيرا صحيحا للبنان الحقيقي ، الذي يرفض الطائفية ويخجل بها صفة لازمة له . **وحري بنا ان نواصل جهود هؤلاء الرواد الابرار ، فى الثورة على هذا الاثر التقـليدي المقوت الذي ورثناه عن تاريخنا المستمر ، والسعي لجعل لبنان ، بأكمله ، لبنان جمال وعطاء وحق وخير ، ولبنان وحدة ومساواة وطنية واجتماعية ـ لبنانا لاطائفيا منتصرا على لبنان الطائفي .**

اما الذين فضحت حقائق الكتــاب تآمرهم على لبنــان ، فى نواياهم واعمالهم ، فهم ، مهما كثر عددهم ، ممثلين مزورين ، غير حقيقيين ، للطوائف التي ينتسبون اليها . انهم تعبير حقير لاساءة فهم الرسالات السامية لتلك الطوائف . وطوائف لبنان ، فى حقيقتها تتبرأ منهم ، تبرؤ لبنان الصحيح اللاطائفي من اثرهم فى تاريخ لبنان الطائفي . **ونرجو الا يســاء فهم قسوة الكتــاب على هؤلاء الطائفيين ، والا يظن ان فيها اي مس لكرامة طوائف البلاد ، او اي امتهان لمكانتها . فاننا نكن لهذه الطوائف اسمى الاحترام واوفره . بل اننا ندعو هذه الطوائف الى الاشتراك مع المؤسسات الخـيرة الاخرى ، فى صراعها مع الطائفية ، من اجل ازاحة خطرها الاكبر واراحة صدر الواقع اللبناني من كابوسها الثقيل . واننا نعتقد ان اي سعي لمحاربة الطائفية يظل سعيا مبتورا ما لم تتضافر فيه المحبة المسيحية السمحاء مع المساواة الاسلامية العادلة .**

وليس لهذا الكتاب من سلاح يتزود به ، فى نزاله مع الطائفيـة ، الا روح البحث العلمية . فهذه الروح هي اساس البحث فى كافة زوايا انطلاقه ومجاريه . ونعني بالعلم التنزه عن الاهواء والعصبيات والاعتماد على اقرب المصادر الى الحقائق ، تجردا وزمانا ومكانا ، والتوسع فى مقارنة الحقائق والتـعمق فى تفحصها والشـمول فى استخلاص النتائج منها . هذا ، دون اغفال امر المصادر الطائفية نفسها ، التي تشكل صورة ناطقة للصراع الطائفي وصفحة مسطرة للاهواء المكبوتة . **وقد اهتممنا بايراد الوقائع والنـفاذ منـها الى جواهر الامور ، دون ان نعطي الكتــاب حق اصدار الاحـكام التي ليست من حقه ، ودون ان نسمح له بان يكون ديانا يتهم جماعة ما او يبرىء جماعة اخرى . فليس الكتاب ســجلا تاريخيا لطوائف لبنان ، بل هو دراسة لتاريخ الطائفية . وحســاب الطوائف من حسنــات وسيئات ، لا يدخل ضمن اختصاصه .** والتــاريخ ، والتاريخ وحده (وهو المراقب الحي) هو المؤهل للحكم فى هذه الامور ، وللنظر فى اعمال الطوائف ونوايا ابنائها . اما نحن فيكفينا ان نتتبع خطى الطائفية على صفحات الاجيال ، لعل فى هذا التتبع

عونا للتاريخ فى اصدار حكمه العادل الحق ، فى هذا الموضوع الذي ليس له ما يفوقه خطورة ، فى تاريخ لبنـــان القديم والحديث .
وحسبنا ان يكون سلاحنا من العلم ؛ وقوتنا من جرأته ، ودرعنـا من امانتــه .

* * *

واني اذ اعترف بفضل مكتبة الجامعة الاميركية فى بيروت ، فى تزويد الكتاب بمعظم مصادره ومراجعه المنشورة وغير المنشورة ، اغتنم الفرصة لتقديم شكري الجزيل للآنسة ديزي الامير ، التي قامت بمراجعة مسودات الكتاب ، واشرفت على تصحيحها من حيث اللغة والاسلوب .

الفصل الاول

المقدمة

سيلاحظ القارىء ، خلال مطالعة الصفحات التالية من هذا الكتاب ، اني تناولت موضوع الطائفية من زوايا متعددة ، تكاد تكون جديدة فى هذا الموضوع القديم . فقد عنيت بابراز كافة نواحي الطائفية ـ بطولها التاريخي ، وبتعدد مفاهيمها ، واشكالها ، وعمق اثرها فى حياة لبنان . وسيتبين للقارىء ، بعد الاطلاع على هذه النواحي الجديدة التي لم ينتبه اليها معظم الذين عالجوا موضوع الطائفية من قبل ، مدى تأثر الطائفية بهذه المفاهيم الجديدة بحيث يصبح امر ادراك الطائفية ادراكا صحيحا ، قادرا على معالجتها واستئصالها ، موقوفا على مثل هذا التفهم الشامل . وارجو ان يساعد تخصيص الفصل الاول لتعداد هذه الزوايا التي انطلقت منها لمعالجة الموضوع ، القارىء فى انتباهه الى خفايا هذا الموضوع ـ الذي هو اكثر مشاكل بلادنا اسرارا وخفايا .

فزاوية الانطلاق الاولى هي الامتداد التاريخي للطائفية فى لبنان ، امتدادا لاحقته الى اقصى عهود تاريخ هذا البلد . ويكاد القارىء لا يجد بحثا مستوفى واحدا يرجع بالطائفية الى التاريخ القديم . فالفكرة السائدة بين الناس هي ان الطائفية وليدة عوامل مختلفة سيطرت على تاريخ لبنان فى القرن التاسع عشر ؛ وبذلك اهملت دراسية طائفية ما قبل ذلك القرن . والحقيقة ان الطائفية لم تكن فى القرن الماضي الا عهدا واحدا ، عاديا ، من عهود الطائفية المتعاقبة مع العصور ، بأجل طويل وأثر عميق . **ولذلك يعني الاكتفاء ببحث الطائفية فى قرن واحد من الزمان بترا للموضوع ، واغفالا لما يزيد على الثلاثين قرنا من تاريخ امتداد الطائفية فى اوضاع لبنان وكيانه .**

واعتقد ان اعتبار الطائفية وليدة ذلك القرن لم يكن نتيجة عدم وجود تفهم صحيح لتاريخ لبنان بمقدار ما نتج عن عدم اخلاص معظم الذين عالجوا الموضوع من ناحيته التاريخية لكي يبرروا وجود الطائفية « علميا » . فمن سوء حظ لبنان ان الطائفية فيه كانت بضاعة يسهل الاتجار بها والتداول باخبارها بين الشعب وبين الذين يفرضون انفسهم على التاريخ او الوطنية او السياسة ؛ ولبنان ، تاريخا ووطنية وسياسيا ، براء منهم . وقد كانت كتابات هؤلاء ، فى الطائفية ، هي نفسها من مظاهر الطائفية واشكالها . وكان كلام المطران او الخوري او من يتأثر باتجاههما ، مثل كلام المفتي او الشيخ او من يكتب بوحيهما ، اذكاء للروح الطائفية ، حتى ولو كان هذا الاذكاء يتستر فى ثوب مصلحة الشعب والحق والعلم.

لقد عالج كل واحد من هؤلاء الموضوع من زاوية مصلحته الطائفية . فوصل اصحاب الاتجاه الطائفي الماروني الى النتيجة التي يبغونها ــ وهي ان الطائفية وليدة تحريض الانجليز للدروز . واتهم الطائفيون السنيون فرنسة ببذر الطائفية ثم حصادها فى لبنان . وارجع الدروز اصل الطائفية الى حملة ابراهيم باشا وما رافقها من آثام بحق وحدة الشعب . ووجد ايضا بين المؤرخين من يتهم روسيا ، والنمسا ، وتركيا ، واميركا ، وغيرها . اي ان كل اتجاه من هذه الاتجاهات الدراسية اكتفى باظهار مساعي الدولة الواحدة ــ وكل الدول كان لها اسهام فى الموضوع ــ دون العناية بتتبع وابراز مساعي الدول الاخرى ، وحصر اتهامه لطائفة معينة ، كأن الطوائف الاخرى براء من اثم الطائفية .

غير ان التعمق فى دراسة الطائفية يكشف لنا عن عمق جذورها فى لبنان ، الى ابعد عهوده التاريخية . وقبل ان يكون لانجلترا او اميركا او روسيا او فرنسا او مصر او تركيا علاقة بلبنان ، بل قبل ان يعرف ابناء تلك الدول بوجود لبنان ، كانت الطائفية مظهرا فعالا فى كيان لبنان وتاريخه .

لقد عرف لبنان القديم ، مثل البلاد الاخرى ، التدين العميق ، منذ اقصى العصور . وتشير آثار العصر الحجري المتوسط ، فى القرن المئة قبل الميلاد ، الى ان انسان لبنان القديم آمن بالالهة ، واعتقد بالحياة بعد الموت (١) . وتطورت تلك الالوهية والاعتقادات مع الايام ، لتصبح اديانا منظمة - فينيقية وحثية وارامية وعمورية وعبرية وغيرها . وكان لبنان يتبنى هذه الاديان ويعلن ولاءه لآلهتها، فتطور هذا الولاء الديني الى الشمس والقمر والارض ، فى عصور ما قبل التاريخ ، الى هود ورامانو وراشـاب وداغون وعشيرات ، العموريين ؛ الى عشتار وبعـل واناث وملكوت ، الفينيقيين ؛ الى مئات الالهة الاخرى .

وكان لجميع هذه العبادات صفة ظاهرة - وهي صفة العبادة القبلية ، او الاقليمية . فقد كان الاله ، الصنم او الجسم الطبيعي ، الها واحدا ، بين عدد كبير من الالهة . وكان للاله الواحد نفـوذ واسع فى بلد ، او قبيلة ما ، ونفوذ محدود ، فى ما يحيط بمنطقته من بلدان وقبائل . وبذلك كان للالهة ، الى جانب سلطانها الديني ، صبغة قبلية او اقليمية ، تجسـدها فى منطقة ما وتربطها بهـا ، وتجعلها حماة تلك المنطقة ، لوحدها ، على حساب المناطق الاخرى ، ذوات الالهـة الاخرى . ويعني ذلك ان من اولى واجبـات الاله المرتبط بارض وجماعة ما محاربة الالهة الاخرى لا حفظا لسيادته وكيانه فحسب بل حفظا لصالح الجماعة المرتبطة به . ومن اولى واجبات الجماعة ، ايضا ، المحاربة ، فى سبيـل ذلك الاله ، ضد الجماعات الاخرى المحيطة بها او المتعاملة معها .

بهذا الارتباط الوثيق ، من ناحيتيه الروحية والمادية ، بين شعب الاقليم والهه ، وبهذا العداء بين سكان المناطق بسبب تنافس الالهة فيما بينها - وهي عداوة اقليمية الجوهر طائفية المظهر - نشات الطائفية فى لبنان ، فى مرحلة تاريخها الاولى . وكان هههنا

(١) Hitti, History of Syria ص ١٨-١٩

الاول والاخير ، في هذه المرحلة ، القضاء على مصالح الاقليم الواحد حفظا لمصالح الاقليم الاخر . اما شعارها ، وثوبها الخارجي الذي يكفي لاقناع الشعب الساذج ، فهو التفاني في خدمة الاله وتكريمه لحمايته من عداء منافسيه .

ثم تطور المفهوم الانساني للدين والالهة تطورا واسعا ، فتحول الاله الصنم الملموس ، المعبود في طقوس حسية ، الى اله خفي غير منظور ، يعبد بالايمان المجرد ، وتكتسب محبته بالثقة والعقل . وتوسعت حدود سلطان الاله ، فلم تعد محصورة في اقليم او جماعة او مدينة ضيقة ، بل اصبحت في نهاية تطورها ، تشمل العالم اجمع ؛ واصبح الاله الها لكل الناس بمختلف اجناسهم ومناطقهم ودولهم .

الا ان الانسان لم يستطع مجاراة هذا التطور ، من ناحية كيفية تقبله للالهة وللدين في مفاهيمها الجديدة . فقد واصل الانسان النظر الى المفاهيم الجديدة من الزوايا القديمة ذاتها ، او من زوايا لا تفضل الزوايا القديمة كثيرا . ذلك **ان الانسان الذي استطاع ان يستبدل آلهته بالاعتقاد بالله ، فوسع سلطانه ورفع قيمته وتقبل انبياءه ورسله وقديسيه ، لم يستطع تحرير نفسه من الخرافة القديمة التي تدعي ان خدمة الله لا تتم الا على صعيد المنازعة بين الطرق المختلفة التي رسمها الناس لانفسهم سعيا وراء الوصول الى الله .**

ولهذا نرى انسان القرن العشرين ، من اتباع طائفة ما ، يحارب رفيقه الذي يؤمن بالله ذاته ، ولكن ضمن طقوس طائفة اخرى ، المحاربة نفسها التي كنا نراها تشتعل بين سكان ما قبل الميلاد بعشرات القرون ، على الرغم من تطور مفهوم الله معنى وحقيقة .

هذا هو منشأ الطائفية . وهو ، كما يلاحظ القارىء ، حقيقة عامة غير مقتصرة على لبنان . الا ان هذا المظهر اكثر وضوحا في

لبنان منه فى البلاد الاخرى لاشتراكه مع عوامل اخرى ، كونت بهذا الاشتراك الاتجاه الطائفي العـــام

* * *

من العوامل الاخرى ، العامة ، التي تزيد فى تغلغل الطائفية واتساع نطاقها ، الاختلاف النسبي ، بين مختلف المذاهب ، حول الطقوس والمعاملات ، ومدى علاقتها بالايمان المجرد القائم عـلى الفكر . فلكل مذهب من مذاهب العالم اتجاهه الخاص فى ممارسة الايمان والتعبد . بعض هذه المذاهب يقدس العقل ، ولا يتقبـل الايمان الا مرتبطا به وناتجا عن اختباراته . وبعضها ، على العكس من ذلك ، يكتفي بالطقوس ، ويجعـل التـقوى الظاهرة وممارسة الفروض مقياسا للتدين . وبعض المذاهب ، من ناحية ثانية ، لا يحصر الخلاص الديني فى طائفة ما ، بل يجعله وقفا على الانســان كانسـان ــ حسب تصرفاته وايمانه ، بغض النظر عن اسم الطائفة التي يحمله على هويته . اما معارضو هذا التفكير فيصرون على ان مجرد اتباع مذهب ما والانتماء الى طائفة بعينها هو طريق الخلاص، وان مجرد اتباع مذهب آخر والانتماء الى طائفة ذلك المذهب يعني فقدان هذا الخلاص . وتختلف المذاهب فيما بينها ، من ناحيــة ثالثة ، حول مفهوم التسامح ــ حول مدى استعمال الاقناع فى التبشير ، ومدى استعمال الاكراه والضغط . فبين الطوائف ما يمنع الاكراه ويحرمه ، بينما توجد طوائف اخرى تعتمد هذا الاكراه وسيلة سهلة لزيادة عدد « المؤمنين » . وهناك طوائف ، من ناحية رابعة ، تؤمن بافضليتها وترفعها حتى انها ترفض الاعضاء الجدد ، او انها تميز اعضــاءها عن باقي المواطنين ؛ بينما تعـترف بعض الطوائف الاخرى بالتساوي بين الجميع ، وبفتح الباب لكل من يرغب فى الانتماء اليها او الخروج عنــها .

ان تعدد الاتجاهات ، حول هذه المسائل بين الطوائف المختلفة هو الذي يفرض قيام المظهر العقائدي للطائفية (وهو المظهر الذي

سيؤلف مادة الفصل الثالث من الكتاب) ، **وليس اختلاف العقائد بحد ذاتها . فالمسؤول عن الصراع بين المذاهب المسيحية هو هذا الاختلاف فى الرأي ، حول الافضلية والتسامح والطقوس وغيرها ، وليس الاختلاف حول علاقة الاب بالابن والروح القدس ، او علاقة العذراء بالمسيح ، او بطرس بالكنيسة.والمسؤول عن تناحر المذاهب الاسلامية هو هذا الاختلاف حول القضايا المذكورة نفسها ، وليس تعدد التفاسير لبعض آيات القرآن والاحاديث النبوية . كذلك لا يرجع الخلاف الطائفي بين المسيحيين والمسلمين واليهود الى تعدد وجهات النظر حول الله ومركزه فى النفوس ، بمقدار ما يرجع الى الفرق بين نظرة جماعة واخرى حول مدى تقبل قيام علاقات ودية بين هذه الطوائف بدل علاقات الخصام والنزاع المستمر . ان الاختلافات العقدية بين مذهب وآخر تفرق بين المذاهب ولكنها لا تقيم بينها سدودا اجتماعية وعاطفية وفكرية . انها تثير النقاش والصراع العلمي ، ولكنها لا تؤدي الى الحروب ولا تثير الاضطهادات.**

* * *

وتشير دراسة تاريخ الطائفية فى لبنان الى علاقة اوضاع الطائفية فى لبنان مع الاوضاع الدينية ، والسياسية المتعلقة بها ، خارج لبنان . فقد كان الاتصال بين لبنان وما يحيط به من بلدان بعيدة واسع الاثر ، وعاملا مستمرا على اذكاء روح الطائفية حين تخبو وعلى تهييجها حين تدعو الحاجة الى ذلك . فاضطهادات المسلمين للمسيحيين فى مصر او البلقان ؛ وهجمات الدول المسيحية على المسلمين فى شمال افريقية او اقاصي آسيا الشرقية ؛ وحروب فرنسا الكاثوليكية مع روسيا التي كانت ارثوذكسية ؛ او صراع الفاطميين الشيعة مع العباسيين ــ كان كل ذلك يؤدي الى ازدياد الخلاف الطائفي داخل لبنان ــ لبنان المنقسم الى مسلمين ومسيحيين ، الى كاثوليك وارثوذكس وبروتستانت وموارنة ودروز وشيعة وسنة وغيرهم .

ولم يساعد الدول الشرقية والاوروبية على اذكاء الطائفية فى لبنان الا هذه المشاحنات الطائفية بين لبنان والعالم . وسنرى فى الفصل السادس من الكتاب ـ الذي سيدور حول هذا التدخل الاجنبي ـ كيف وجدت الدول الاخرى ذات المصالح المتضاربة والاطماع الشرهة فى بلادنا ، البعيدة كل البعد عن امور الدين الصحيحة ، ان الطائفية ثوب مناسب لان تخفي وراءه حقيقتها البشعة . فقد ادركت تلك الدول تعلق لبنان الطائفي بتلك الاوضاع الخارجية ، بالرغم من ان لبنان السياسي كثيرا ما رفض ، وما يزال يرفض ، ان يتعلق بالاوضاع السياسية التي تحيط به ، والتي تفرض مصلحته القومية عليه ان يتصل بها . اي **ان لبنان الذي رفض مرارا ، ولا يزال فيه من يرفض حتى اليوم ، ان يتصل مع سورية الطبيعية ، وهما اكثر من جارين واخوين ، والذي تمنّع كثيرا قبل ان يدخل المجموعة العربية بالرغم من صلته مع هذه المجموعة ، لبنان هذا كان دائما وثيق الصلة ببريطانيا وروسيا وفرنسا وتركيا ومصر والحجاز وغيرها ، على صعيد العصبية السنية او الشيعية او الدرزية او الارثوذكسية او المارونية او غيرها !**

* * *

والعامل الرئيسي الاخير لوجود الطائفية ونموها فى لبنان ـ الى جانب عامل تخلف الانسان عن متابعة تطور مفهوم الله فى النفوس وعامل تعدد الاتجاهات حول التفاهم بين الطوائف ، وعامل تعلق لبنان مع اوضاع الطائفية فى خارجه ـ هو عامل الزمان : عامل اشتراك تلك الاسباب الثلاثة معا ، على مر الايام ، بحيث اصبحت الطائفية اليوم استمرارا لطائفية الامس .

تعم الشرق عادة تقديس كل ما يحمله التاريخ الينا من تقاليد ومخلفات موروثة عن الجدود . وهذا التقديس يتعدى الاعتبار باخبار الماضي واختباراته ، ويظهر فى شكل تقليد اعمى للماضي ، وتقبل غير واع لآثاره المستمرة فينا ، والتي نعتقد ، خطأ ، انها يجب ان تبقى مستمرة الى الاجيال القادمة من بعدنا . فالبلد الذي

يعطى استقلالا سياسيا ، فى وقت ما ، يصبح قانعا بذلك الاستقلال وراضيا به ، بالرغم من ان مصلحته القومية قد تقضي عليه بالسعي الى الوحدة فى كيان اوسع . ولا ذريعة لهؤلاء « الاستقلاليين » الا ان عشرات السنوات ، من الاستقلال ، اصبحت تاريخا قائما بذاته. **ويغفلون عن حقيقة التاريخ ـ التي هي عبرة وليست عبـادة ، واستخلاص للحقائق وليس تقليدا اعمى لها ، وقبول لما يجب ان يكون وليس لما كان فى الماضي بفعل الواقع الراهن .**

وقد اصبحت الطائفية فى لبنان ، من سوء حظه ، احدى هذه « الفروض » التي حملها الينا التاريخ ، فرمانا بها سهما مؤلما دونه باقي سهام المصائب والمحن التي انزلها التاريخ بهذا البلد . اي ان الطائفية اصبحت ، بحد ذاتها ، سببا لوجودها اليوم ، بعد وجودها الاف السنين فى الماضي ، بل انها اصبحت ، بالنسبة الى معاصرينا من الطائفيين ، السبب المباشر لوجوب وجود لبنان الطائفي . وهذا السبب ، وان لم يكن السبب المباشر الوحيد لبقاء الطائفية فى لبنان ، الا انه اخطر الاسباب واكثرها تزويرا للواقع . وهو المسؤول عن اخطر مراحل الطائفية ـ وهي المرحلة السادسة التي سنتكلم عنها فى الفصل الاخير .

وجد الطائفيون ان لبنان بلد طائفي منذ عشرات القرون . وليس فينا من ينكر ان لبنان كان كذلك فى تلك القرون الطويلة . ولكن هؤلاء الطائفيين يخطئون اذ يبررون تعلقهم بالطائفية بسبب طائفية لبنان فى الماضي . وحجتهم فى هذا التبرير ان لبنان لم يكن فى يوم من الايام ذا دين او مذهب واحـد ، بل كان ، وما يزال ، متحفا حيا للطوائف المتعددة والمختلفة . فكان لبنان ، فى عصوره الغابرة ، مقسما الى عدد من المذاهب الفينيقية ، وما كان يرافق تلك المذاهب من اعتقادات مستوردة من الشعوب السورية الاخرى ـ الارامية والحثية والاشـورية والكلدانية والعبرية والعمورية ، او الشعوب القريبة من سورية . ثم اتت المسيحية وصرفت عدة قرون وهي تتنازع مع المذاهب الفينيقية والعبرية . وعرف لبنان ،

بعد ذلك ، الاسلام ، وتصارع فيه الدينان . وانقسم كل منهما الى عدد من المذاهب المختلفة ، التي لا تزال تتصارع حتى اليوم .

ومن الحجج التي يتذرع الطائفيون بها ايضا توزع سكان لبنان بين مذاهبه ، فى نسب متقاربة ، تكاد احيانا تكون متعادلة . وبهذا التوزع مُنع لبنان من اخذ صبغة خاصة به ، كما هو الحال فى معظم دول العالم . فمصر بلد سني ، والحجاز وهابي ، واليمن يزيدية ، وايران شيعية ، وفرنسا كاثوليكية وانجلترا بروتستانتية واليونان ارثوذكسية الخ.. وذلك لان فى كل بلد منها طائفة كبرى يزيد عددها عن مجموع باقي الطوائف معا . اما لبنان فلم يكن فيه، عبر تاريخه ، طائفة واحدة ، واسعة الانتشار بحيث تطغي على بقية المذاهب فيصبح مذهبها المذهب الرسمي للبلاد .

ويتذرع الطائفيون بأن لبنان كان دائما مأوى للطوائف المضطهدة اللاجئة اليه منذ اقدم العصور . لجأ اليهود اليه لما اضطهدوا فى دولتهم فى فلسطين قبل ميلاد المسيح ؛ والشيعة لما اضطهدهم السنيون فى سورية ؛ والموارنة لما اضطهدتهم الكنيسة الانطاكية ؛ والدروز لما هربوا من الفاطميين الشيعة ؛ والاشوريون والارمن لما عاملتهم تركيا والعراق بقسوة ، الخ.. وهذا يعني ، بالنسبة الى الطائفيين ، ان لبنان يجب ان يظل بلدا طائفيا ــ بلدا مفتوح الباب امام الاقليات الطائفية .

ويدعي اولئك الطائفيون ان الدين لا يزال عندنا ، مثلما كان ايام الفينيقيين والبيزنطيين والفاتحين العرب والعثمانيين ، جوهر الجماعات والتكتلات ، وان يكن المفهوم الغربي الحديث للقومية قد حرر نفسه من اثر الدين . ويدعون ان الحواجز الاجتماعية والفكرية والسياسية التي ترتفع بين طائفة واخرى هي اخطر من الحواجز التي تفصل شعبا عن اخر .

ولولا الايمان بحتمية التاريخ وتبرير وقائعه لما اتخذ هؤلاء الطائفيون هذه «الحقائق» اسسا لازمة لحياة لبنان فى واقعه

ومستقبله ، وجعلوها مستمرة مع الايام . ولو كان هؤلاء يفهمون التاريخ كما يجب ان يفهموه لقادهم ادراك هذه الامور الى السعي لتبديل الحال والثورة على هذا الواقع المؤلم . واذا لم يكن التاريخ حافزا على ابدال السيء بالحسن والحسن بالاحسن اصبح علما جامدا ، ومضرا ، التخلي عنه افضل من ان نقبل باستعباده لنا .

وهذه الدراسة ، التي لم يرد منها ان تكون بحثا لنشوء الطائفية فى لبنان ولا لدراسة اسبابها ، **تعتبر الطائفية موضوعا متصلا مع التاريخ اللبناني بمختلف عصوره ـ موضوعا ممتد الجذور الى الصفحة الاولى من سجل تاريخ لبنان ، ومتصل الفروع بالصفحة الاخيرة ، الحاضرة ، من هذا التاريخ . وكل معالجة اخرى للموضوع هذا ، تكتفي بالتنقيب عن اثر واحد ، فى ميدان واحد ، وفي عصر واحد ، من تاريخ الطائفية ، هي نفسها بحاجة الى معالجة والى تنقية وتعمق .**

* * *

والزاوية الثانية التي عالجت الطائفية من خلالها هي تعدد مفاهيم الطائفية زمانيا . فقد كانت الطائفية فى العصر الواحد تختلف عما كانت عليه فى عصر آخر . وتعدد المفاهيم هذا راجع ، من ناحية رئيسية ، الى اختلاف الاسباب الداعية الى وجود الطائفية ، كما رأينا فى الصفحات الماضية .

اخذت الطائفية فى لبنان ، عبر تاريخها الطويل ، ستة مفاهيم رئيسية . وكان كل مفهوم منها متصلا مع عصر تاريخي خاص به . الا ان هذا لا يعني ان اجل المفهوم الواحد كان ينقضي تماما عند زوال ذلك العصر . فمفعول المفهوم الواحد يمتد ، بشكل من الاشكال ، الى العصور التاريخية التي تلي عصره الخاص به .

كانت طائفية ما قبل المسيحية ، وهي طائفية الدويلات الفينيقية القديمة ، طائفية اقليمية ، ترجع المسؤولية المباشرة عن وجودها وتغذيتها الى رجال الدولة وزعمائها السياسيين ، الذين

كانت مصالحهم تتضارب مع مصالح الدويلات الاخرى ، من فينيقية داخلية ، وسورية محيطة بها ، وشرقية مجاورة . وكان طائفيو تلك المرحلة يغذون الطائفية ويتسترون بها من اجل اخفاء مصالحهم السياسية والتجارية ، ثم تحقيقها .

اما طائفية القرون الميلادية الستة الاولى فقد كانت طائفية مذهبية . ذلك ان تلك الفترة امتازت بصراع مستمر بين الاديان الثلاثة ، المسيحية واليهودية والوثنية ، ثم بين الفرق المسيحية نفسها . وكان رجال تلك الطوائف وكهنتها هم المسؤولون ، وليس رجال الدولة والادارة ، عن تغذية الطائفية وتحريض اتباعهم للصراع من اجلها . ومع ان هذا المفهوم المذهبي لم ينته بالفتح الاسلامي للبنان ، اذ ظل الصراع المذهبي (بين المذاهب المسيحية ، او بين المذاهب الاسلامية ، او بين الاثنين معا) منتشرا بين الشعب ، الا ان المفهوم المذكور اصبح يأخذ ، بعد الفتح ، صفات اخرى غير مذهبية ، كما سنرى فى الفصول التالية .

والمرحلة الثالثة هي مرحلة الفتح الاسلامي العربي للبلاد . وقد جمعت هذه المرحلة بين عدد من المفاهيم ـ جمعت بين المظاهر الاقليمية التي كانت فى المرحلة الاولى ، والمظاهر المذهبية التي كانت فى المرحلة الثانية ، الى جانب المظاهر الاقطاعية والسياسية الدولية التي كانت جوهر طائفية المرحلتين الرابعة والخامسة . ومن الخطأ ان نعتبر طائفية هذه المرحلة اقليمية او مذهبية او اقطاعية او سياسية ـ بل هي طائفية جامعة لها . ظهر الاثر الاقليمي فيها عند صراع ابناء البلاد ، المسيحيين ، مع المحتلين ، المسلمين . وظهر الاثر المذهبي فى الصراع بين المسيحيين والمسلمين لا كمغلوب وغالب فحسب ، بل كصاحب مذهب يخشى على مذهبه من نفوذ المذهب الجديد . وظهر الاثر الاقطاعي عندما سكنت كل طائفة منطقة خاصة لها فى البلاد ، فى نظام اقطاعي ، وراحت تحارب المناطق الاقطاعية الاخرى . اما الاثر الاجنبي الدولي فقد تجلى فى مساعدة المسيحيين فى البلاد للاجانب المسيحيين ضد الحكام المسلمين ، فى حروب هؤلاء الحكام مع البيزنطيين والصليبيين .

اما المرحلة الرابعة في تاريخ الطائفية فكانت مرحلة اقطاعية . وقد استمرت هذه المرحلة ، تاريخيا ، من الحكم المملوكي الى القرن التاسع عشر ـ اي حوالي خمسة قرون . وكانت الطائفية فيها تحجب عن الاعين خفايا العداء الطبقي الناشب بين اقطاعية واخرى المستمد قوته من مستلزمات الاقطاعية ، النفسانية والعصبية القبلية .

* * *

وشهد لبنان ، في القرن الماضي ، المرحلة الخامسة من تاريخه الطائفي . وكان المفهوم الطائفي في تلك المرحلة استعماريا . فقد ادت المطامع والتدخلات الاجنبية في شؤون لبنان الداخلية الى الاعتماد على الطائفية كوسيلة لتحقيق ما سعى الاجانب اليه ، حين وجدوا للنغمة الطائفية صدى مستحب في النفوس الساذجة والمريضة .

ونجد ، من هذا العرض السريع ، ان المراحل الخمس الاولى في تطور المفهوم الطائفي كانت مراحل عداءات وعصبيات اخرى ، اقليمية ومذهبية واقطاعية واستعمارية ، مختبئة وراء غطاء الطائفية . اما المرحلة السادسة والاخيرة ، وهي مرحلة عصرنا هذا ، فهي نتيجة تلك المفاهيم الماضية ـ نتيجة ايمان الشعب التقليدي بان الطائفية اصبحت جزءا من تاريخ البلاد ، بل انها اصبحت تاريخ البلاد كله ، بحيث لا مفر لنا من قبولها واقعا لنا . ولم تعد الطائفية سترا يحجب الاحقاد والعداءات والاطماع الاخرى عن الاعين ، بل اصبحت هي نفسها حقيقة دفينة تسعى وراء ستار يحجبها عن الانظار . ووجدت الستار المذكور في مفاهيم القرن العشرين : القومية والعلمية والديموقراطية. ولبست الطائفية بذلك ثوبا عقديا ، واخذت مفهومه العلمي ، وتحررت الطائفية من استغلال رجال الاقاليم ورجال الدين وزعماء الاقطاع وعملاء الاجانب لها وللشعب، ليصبح رجالها الطائفيون ، مستغلين للعلم والديموقراطية والقومية ، ومسيطرين على العقول الساذجة كما كان يفعل غيرهم من قبلهم .

وقد قسمت فصول الكتاب التالية على اساس هذه المراحل الست فى تطور المفهوم الطائفي . واكرر هنا ان المفهوم الواحد لم يكن محصورا فى العصر المرتبط به ، وان يكن اتساع نطاق المفهوم الواحد فى العصور الاخرى لا يضاعي اتساعه فى العصر الخاص به .

* * *

وزاوية الانطلاق الثالثة فى دراسة الطائفية هي اعتبار الطائفية فى لبنان مشكلة اجتماعية خاصة به ، ودراستها فى وضعها اللبناني ، المستقل ، الخاص ، دون دمجها بطائفية البلدان التي تحيط بلبنان وتشترك معه فى أكثر من علاقة . وذلك لا يستتبع ان لبنان لا يمكن ان يكون له طائفيته الخاصة لو لم يكن له كيانه القومي الخاص . فلبنان ، الذي استطاع ان يظفر بتاريخ مستقل عبر العصور ، لم يكن فى يوم من الايام مستقلا عن البيئة التي تحيط به والتي يشكل معها وحدة قومية متصلة اسباب الحياة .

وقد رأينا فى الصفحات الماضية كيف ارتبط تاريخ لبنـــان باوضاع الطائفية خارج حدوده ، بحيث لم تكن الطائفية فيه مطلقة الاستقلال . فبعض الدول سيطرت على الطائفية فيه مرحلة كاملة، وهي المرحلة الخامسة . وكان لدول اخرى علاقاتها مع الطائفية فى لبنان فى المرحلة الاولى والثالثة والسادسة . الا ان كل هـذه المؤثرات الخارجية كانت تكسب صفة « لبنانية » خاصة ، تفقدها صلتها بالدولة التي ترتبط بها ، وتصبح من عوامل الطائفية اللبنانية. وقد التقت هذه المؤثرات مع اسس الطائفية فى لبنان لتشكل معها وحدة مستقلة ظاهرة الانفراد ، ضمن تاريخ لبنان . ونحن فى هذا الكتاب ، لا يهمنا الا ما اصبح جزءا من التاريخ اللبناني من هذه المؤثرات . فلن يهمنا امر اضطهاد الخلفاء المسلمين لمسيحيي دمشق او القدس او القــاهرة ، ولا هجمات البيزنطيين على الشــواطىء المصرية ، ولا حصار نابوليون ، المسيحي ، لعكا المسلمة ، الا بمقدار ما كان لهذه الامور من علاقة بالطائفية اللبنانية واثر فعــال فيها .

ويخطىء من يظن ان الطائفية فى لبنان ليست الا مجرد امتداد للطائفية فى سورية الطبيعية او المجموعة العربية . فالطائفية فى لبنان تتبلور فى قالب « لبناني » خاص حتى ولو كانت مصادرها من خارج لبنان . وقد اصبح هذا القالب طابعا مميزا للبنان وقاعدة لتاريخه مدى الاجيال . وهذا ما لا نجده فى اي بلد آخر فى العالم. وقد لا نجد هذه الصبغة الطائفية حتى فى اعرق الدول دينيـا ، كالحجاز مثلا . وقد يكون هذا راجعا الى وضع الطوائف الخاص فى لبنان ، بعكس الحجاز التي مضى عليها اكثر من الف سنة وهي بلد طائفة واحدة فقط .

ومن العسير ان نفهم الطائفية ما لم ندرسها فى طابعها اللبناني المستقـل .

* * *

ويشكل اشتمال بحث الطائفية فى هذا الكتاب على مختلف مظاهرها الزاوية الرابعة لاستيعاب الموضـوع وتفهمه تفهما كاملا وصحيحا . وقد تعني لفظة الطائفية للناس الفتن والثورات الطائفية فحسب . الا ان باحث هذا الموضوع يجد ان هذه الفتن والثورات ليست الا مظـهرا واحدا من مظاهر متعددة للطائفية . **فالطائفية مسؤولة ، الى حد بعيد ، عن التنقلات الاقليمية لسكان لبنان ، بين منطقة واخرى داخل حدوده ، وعن هجرات جماعات كبيرة الى لبنان او منه الى الخارج . وهي المسؤولة ، الى حد كبـير ايضا ، عن وضع لبنان الدولي** ــ عن استقلاله التام احيانا ، وعن استعماره احيانا اخرى وعن مدى تحالفه مع ما يحيط به من دول او اتحاده بها او انفصاله عنها . والطائفية مسؤولة ايضا عن **حدود لبنان ،** وتبدل معالمها ، اذ هي تتوسع احيانا لتشمل ما هو خارج لبنـان التاريخي ، وتتقلص احيانا لتكتفي بجزء صغير منه . وهي المسؤولة عن **وحدته احيانا وعن انقسامه احيانا ،** الى مقاطعات او دويلات او قائمقاميات . وهي المسؤولة عن **علاقة الطوائف المختلفة فيه مع الحكومة المركزية ،** ومدى خضوعها لها وثورتها عليها . وهي

المسئولة ، الى جانب كل هذا ، **عن العلاقات ، الرسمية والشعبية ، التي يتبادلها السكان بعضهم مع بعض ، من اختلافات واتفاقات ، وعداوات وصداقات .**

الا انني لا ادعي ان الطائفية هي التي قررت مصير لبنان ـ سكانه وحدوده واستقلاله وعلاقاته مع الخارج وغير ذلك ـ لوحدها . فالاشتراك فى تقرير المصير لا يعني الانفراد فيه . **وهناك عوامل سياسية واقتصادية وقومية ونفسية اسهمت مع الطائفية فى تقرير مصير لبنان فى تاريخه الطويل . الا ان الطائفية انفردت ، من خلال هذه العوامل المؤثرة ، بسلطانها المستمر الذي رافق لبنان طيلة تاريخه ، كما سنرى فى الفصول التالية .**

ويعني شمول هذا البحث ، من ناحية اخرى ، اشراك امر جميع الطوائف . فالطائفية لا تعني ، بالنسبة الى عدد كبير من الناس ، الا صراع المسلمين مع المسيحيين فى هذا القرن ، وصراع الدروز مع الموارنة فى القرن الماضي . وهذا خطأ كبير . اذ ان الطائفية صراع مستمر بين عدد كبير من الطوائف ـ الموارنة والارثوذكس والكاثوليك واللاتين والبروتستانت واليهود والسنة والشيعة والدروز وغيرهم . وقلما حدثت فتنة ما بين طائفتين دون ان يتدخل فيها اشخاص من الطوائف الاخرى بدافع طائفي محض. وهذا التدخل ، مهما كان ضئيل الدور ، عنصر مهم فى تاريخ الطائفية ولا يجوز اغفاله . وقد يكون سببا محجوبا لمظاهر اخرى واسعة النطاق .

الفصل الثاني

الطائفية الاقليمية

كان لبنان فى العصور السابقة للتاريخ المسيحي بلدا فينيقيا . وقد ظل كذلك ، بالرغم من التعديلات التي كانت تطرأ على حدوده ، ومن الهجمات التي كانت تأتيه بين آن وآخر . وسكن الفنيقيون منطقة الساحل ، فى عدد من المدن المتناثرة . ولم يكن لهم حكومة موحدة ، وانما كانت كل مدينة تؤلف دويلة مستقلة ، تنشر سلطانها على القرى القريبة منها .

ومع ان الاعتقادات الدينية لتلك الدويلات كانت امتدادا للاعتقادات الدينية السورية التي سبقتها ، بحيث وجد بين ديانات الدويلات صفات مشتركة ، كان لكل واحدة منها الهتها وطقوسها وتقاليدها الخاصة . فكانت جبيل تعبد مثلث ادونيس ، ايل ، وبعلة ؛ وبيروت تعبد مثلث عطارد ، عشتروت ، وبعل ؛ وصيدا اشمون ، بعل ، وعشتروت ؛ وصور ملكرت ، بعل ، وعشتروت .

واتسع ميدان التنافس بين هذه الالهة كثيرا . فقد كانت كل دويلة تسعى لان تجعل لمثلث الهتها المقام الاسمى على الساحل الفينيقي باكمله . وكان رؤساء الدولة يتعمدون اثارة هذا التنافس ليحققوا به سيادة دولتهم ، السياسية والادارية والتجارية ، على حساب الدويلات المجاورة الاخرى . وقد امتازت الدويلات الفينيقية بسلطان رجال الدولة على شؤون الدين . وكثيرون من حكام المدن الاداريين كانوا كهنة فى الوقت نفسه . وكان الملوك يستشيرون الكهنة فى الشؤون العامة ويكرمونهم (١) . فقد كان الكهنة قادرين على امداد الملوك بقوة معنوية كبيرة ، فى سبيل

---

(١) Kenrick ص ٢٦٦-٢٧٢

توسيع نفوذ الدويلة فى الداخل والخارج . كما ان الملوك انفسهم انتسبوا الى الالهة ، شأن العادات السامية ، كممثلين لهم بين الناس

ومن مظاهر التنافس الاقليمي الطائفي البارزة ادعاء كل مدينة او حكومة فينيقية ، باسبقيتها ، من حيث العمران والازدهار الديني ، على رفيقاتها ، واسبقية الهتها وطقوسها على باقي الالهة والطقوس . وقد نجح سنكتين ، اقدم المؤرخين الفينيقيين (١) ، فى اقناع معاصريه ، بكتاباته الطائفية ، ان جبيل ، وقد كان هو كاهنها ووزيرها ، هي التي بنت مدن الساحل الفينيقي ، وخاصة بيروت التي بناها اله الزمان فى جبيل ، ايل ؛ وان الفضل يرجع اليها فى تنمية الاعتقادات والمذاهب الفينيقية .

وكانت المدن الفينيقية تتفاخر ايضا على الدول الاخرى التي تتعامل معها ، حول اسبقية المعتقدات . وادعت كل مدينة منها بأنها هي مصدر حضارة وديانة المصريين والعبرانيين واليونانيين . فنسبت جبيل الاله توت ، اله العلم والادب عند المصريين ، الى الهها توتس ، الذي ارسله كرونوس ، كبير الهة المدينة ، الى مصر ، ليؤسس حكومة فيها . كما اعتبرت جبيل (اوسيرس) ، اله الكتابة عند المصريين ، فينيقي الاصل والثقافة ، وادعت انه حمل الكتابة الى مصر بعد ان لجأ اليها غريبا .

ولم تترك اساطير الحكومات الفينيقية المتعددة الها يونانيا الا وارجعته الى اصل واسم فينيقيين . فاعتبرت جبيل كرونوس اليوناني الهها هي ، كرونوس الفينيقي ، واعتبرت ابولو ونبتون ابنين لكرونوس ؛ وكبيري واسكلابيوس اخوانا له ؛ وديون هي بعلة المدينة . وقالت صور ان مليكارتوس ، الهها ، هو اصل الاله هركلس . وقالت صيدا ان ڤينوس اليونانية هي عشتاروت الهة صيدا . اما بيروت فأصرت على ان جوبتر هو الهها بيلس . كما ادعت بيروت ان الالوهين ، العبراني ، هو الاله الدين ، حامي المدينة

(١) تقول المصادر القديمة ان سنكتين عاش فى القرن الرابع عشر . اما المعاصرون فيرجحون انه عاش بعد ذلك بعدة قرون .

وخالق السماء والارض . ولكن جبيل رفضت ذلك واعتبرت الالوهين ابنا لكرونوس حاميها ، من زوجته الو . وتنازعت صيدا وصور على اصل اسرائيل اذ نسبته كل منهما اليها . كما تنازعتا على ارجاع عادة التطهير اليهما .

ونسبت المدن الفينيقية الهة الاشوريين الى نفسها . فبعل هو بعل صور وصيدا وبيروت ، وبلوس ، **اول ملك اشوري ، هو** بعل هذه المدن ايضا . وادونيس هو ادونيس جبيل . وملتيا هي ارتاغوس (١) .

وكانت كل مدينة تنسب نفسها الى حام يذود عنها ويحمي حدودها ومصالحها من المدن الفينيقية الاخرى . وكان الشعب يضع الاساطير والروايات حول هؤلاء الحماة ، لتمجيد ذكراهم بين الناس . ومن اشهر الحماة كرونوس فى جبيل وبوسيدون فى بيروت وملكرت فى صور (٢) .

وقد ادى هذا التنافس السياسي الطائفي الى الحيلولة دون توحيد المدن الفينيقية ، ودون تأسيس دولة واحدة تجمع الدويلات المختلفة وتقف فى وجه اعداء البلاد الكثيرين . ولم تتحالف هذه المدن الا فى حالات نادرة . وكان هذا التحالف يقوم غالبا بين المدن التي كان بين الهتها ومعتقداتها تشابه وتقارب (٣) . ولم تكن هذه المدن المتحالفة معا تمتنع عن محاربة المدن الفينيقية الاخرى ، غير المتحالفة معها ، لتمسكها بمعتقداتها الدينية البعيدة عنها . فارواد أمدت الجيش الحثي باسطولها ضد دولتي جبيل وصور (٤) . واستعان شلمناصر الثالث بستين سفينة امدته بها مدن فينيقيا ضد صور فى القرن التاسع قبل الميلاد (٥) . وساعدت هذه المدن تغلات بلاسَّر الثالث ، ضد صور ايضا ، فى القرن الثامن قبل الميلاد (٦) . وفي ذلك القرن نفسه تحالفت صيدا وجبيل ضد

---

(١) يجد القارىء تفاصيل هذه الاعتقادات فى كتاب Kenrick ص ٢٨١–٣١٠ ، نقلا عن سنكتين وفيلو

(٢) Kenrick ص ٦٠ (٣) المصدر نفسه ص ٢٧٣

(٤) Cormock ص ١٥٠ (٥) Kenrick ص ٢٧٩

(٦) Josephus كتاب ٩ فصل ٤

صور ، مع سرجون ، الملك الاشوري . ثم انضمت صور الى هذا الحلف وحاربت كل هذه المدن مجتمعة صيدا . وتمكن الجيش الاشوري ، بمساعدة الفينيقيين ، من فتح المدن وهدم هياكلها واجلاء السكان عنها . ولم يتمكن الاسكندر المقدوني من فتح صور بعد حصاره الطويل لها الا بمساعدة الثمانين سفينة التي ارسلتها جبيل وارواد وصيدا . واشتركت هذه المدن فى بناء اسطول جديد أمّن لانتيغونس ، اليوناني ، فتح صور مرة اخرى ، بعد ان ثارت عليه (١) .

وبينما كانت العلاقات بين المدن ، المختلفة العقائد الدينية ، عدائية ، كانت تلك العلاقات بين المدينة الواحدة ومستعمراتها ، التي تشترك معها فى معتقداتها ، ممتازة ، حتى بعد تحرر تلك المستعمرات من سيادة الفينيقيين الرسمية . فقد كان الفينيقيون شديدي الغيرة على الهتهم والتعلق بها ؛ وكان يحملون عبادتها اينما ذهبوا . وقلما فتحوا مدينة او اسسوا مستعمرة دون ان يملكوا الهتهم فيها ، ليضمنوا بذلك ولاء هذه المستعمرات . وكان الولاء الطائفي اضمن لهم من الولاء السياسي والعسكري (٢) . وقد اعتمد الرومان على هذه الطريقة فى الاستعمار فيما بعد . ولم ننس بعد جهود فرنسه ، فى القرنين الماضي والحالي ، فى كسب ثقة اهالي لبنان المسيحيين عن طريق الولاء الطائفي .

وقد رفض اهل صور ، بسبب هذا الولاء الطائفي ، السير مع قمبيز الفارسي لفتح قرطاجه، مستعمرتهم وزميلتهم فى المعتقد، بالرغم من تحالف صور مع الفرس فى عدة مناسبات . ذلك ان علاقة قرطاجه مع صور كانت دينية اكثر منها سياسية . وكانت الضرائب التي ترسل من قرطاجه الى صور تقدم الى هيكل الاله ملكرت وليس الى الحكومة المركزية . وكانت الضرائب المذكورة تبلغ احيانا كميات كبيرة ، وترفق بالهدايا الثمينة والعبيد ، علامة الولاء

---

(١) Kenrick ص ٤١٣–٤٣٤

(٢) وقد عثر المنقبون على الكثير من الاثار الدينية للفينيقيين فى مستعمراتهم حول البحر المتوسط وعلى جزره .

الطائفي . ولما هاجم الاسكندر مدينة صور وعد القرطاجيون اهل المدينة بالمساعدة ، لولا الظروف التي حالت دون ذلك . وهانيبال نفسه التجأ الى صور ، طالبا معونتها ، لما احتل الرومان مدينته[١].

* * *

ويظهر ان الدول الطامعة فى الساحل الفينيقي ادركت اهمية هذه العصبية الطائفية عند الفينيقيين ، فاستغلتها ، وراحت تتقرب الى حكوماتهم على صعيد الدين ، لتكسب ثقتهم ومعونتهم ضد اعدائها . وكانت مصر السباقة بين حكومات العالم القديم الى هذا الاستغلال [٢] . وتاريخ مصر ، منذ عهود الفراعنة حتى فاروق ، حافل بهذا النوع من سياسة التقرب الرخيص الى بعض المدن فى سورية الطبيعية لتثيرها ضد المدن السورية الاخرى ، او ضد اعداء خارجيين . وكان الدس والفتن والتحريض اساس هذا التقرب والاستغلال الطائفي. وقد واظبت مصر على ارسال الهدايا والتبرعات الى الهة مدينة جبيل ومعابدها ، واعتبرت نفسها حامية المدينة ، منذ عهد الملك خوفو ، فى القرن الثامن والعشرين ق.م.[٣] ونشر خوفو بين اهالي جبيل اسطورة خضوع المصريين للمدينة ، لان الهتها هي الالهة هاتور المصرية !

ادى هذا الارتباط بين جبيل ومصر ـ وهو ارتباط ديني المظهر ، سياسي الجوهر ـ الى اعتماد مصر على هذه المدينة الفينيقية لا فى توريد الخشب وبناء السفن فحسب ، بل فى صد الهجمات عن ممتلكاتها ومساعدتها بالرجال . ومن جهة اخرى كانت مصر تساعد جبيل احيانا بالرجال ، ودائما بالاموال . ومن اشهر هذه المساعدات الفرقة التي قدمتها جبيل الى مصر ايام رعمسيس الثاني ، ضد الحثيين ، بعد ان قدم رعمسيس الى ملك جبيل ، حيرام ، معبدا لالهة المدينة . وفي القرن الحادي عشر قبل

---

(١) Kenrich ص ٢٧٤ ، ٣٧٤ و٣٩٤

(٢) عالج المؤلف هذا الموضوع ، مطولا ، فى الفصل السادس من كتاب « العلاقات السورية المصرية فى التاريخ » المعد للطبع .

(٣) ومن اشهر تلك الهدايا تمثال الاله حاتور ، والكرة المجنحة بين الحثيين ، وتمثال ايزيس .

الميلاد اعلنت جبيل تحالفها مع مصر ضد تغلات بلاسَر الاول . واشتركت المدن الفينيقية المتحالفة مع مصر فى حرب سورية عامة ضد شلمناصر الثالث ، وخاصة فى معركة قرقر المشهورة سنة ٨٥٣ ق.م. ونجحت مصر مرة اخرى ، سنة ٦٦٢ ق.م. ، فى تحريض المدن الموالية لها ضد اشور بانيبال . وهذا ما فعلته ايام نبوخذ نصر الكلداني فى القرن السادس .

وظهر التحالف المصري-الفينيقي جليا فى عهود تل العمارنة ، عندما هاجم العموريون والحيثيون سواحل لبنان واحتلوا مدنه . وقد اعتبرت جبيل نفسها المسؤولة عن حماية معابد جبيل والهتها ضد الجيوش السورية المتقدمة نحو المدينة . ولذلك توالت رسائل رب عدي ، ملك جبيل ، الى مصر ، طالبا مساعدتها . وكان الملك المذكور يستميل مصر اليه عن طريق تذكيرها بعلاقاتها مع الهة المدينة . واشترك الشعب نفسه مع الكهنة والملك فى مخاطبة ملك مصر وتذكيره بهذا الارتباط الديني (١) . ولكن لما فشلت مصر فى الدفاع عن جبيل ، وانقطعت العلاقات الدينية بينهما ، وكف الفرعون عن ارسال هداياه الى الكهنة ، زال النفوذ المصري ، ولم يعد للفرعون اي سلطان فى جبيل (٢) .

وكانت مصر ، خلال فترة صداقتها مع جبيل ، قد نجحت فى تحريض هذه المدينة ضد باقي المدن الفينيقية التي لم يكن بينها وبين مصر علاقات دينية . لذلك حاربت جبيل جزيرة ارواد لانها تحالفت مع الحيثيين والعموريين اعداء مصر (٣) . وكانت صيدا احيانا تتزعم الجبهة ضد مصر . فقد كانت صيدا من المدن القليلة التي لم يكن بين الهتها والمعبودات المصرية علاقات ولا تشابه (٤) . واعلنت المدينة نفسها ملجأ لكل الناقمين على مصر . وعقدت تحالفا عسكريا مع ازيرو ، ملك العموريين ، وحاربت بجانبه اصدقاء مصر فى سورية (٥) . ثم تحالفت ، ضد مصر ايضا ، مع الاشوريين ،

(١) Petrie ص ٩٩-١٠٠ ، ١١٤

(٢) راجع قصة وينامون الشهيرة فى الادب المصري القديم، فى Breasted ٤ : ٥٦٩

(٣) Cormock ص ١٤٨

(٤) بالرغم من العثور على بعض التماثيل المصرية فى صيدا لم يستطع علماء الاثار اكتشاف اي ارتباط بين معتقدات البلدين

(٥) Kenrich ص ١٤٤-١٤٩

فى القرن الثامن . وكانت صور هدف هذا التحالف ، لارتبـاطها الوثيق ، سياسيا ، مع مصر . ولكن انشـغال مصر عن رعـاية شؤون المدينة الدينية وانقطاعها عن الاتصال بالهتها جعل اهل صور يثورون على ملكهم المتحالف مع مصر ، ويعلنون استقلال مدينتهم الديني والسياسي (١) .

وامتد الخـلاف التقليدي ، الطائفي الاقليمي ، بين صـور وصيدا ، مدة طويلة . فاغتنمت قبائل البلاسج فرصته وهاجمت صيدا واحتلتها ودمرتها وقضت على سيادتها ، فى القرن الثالث عشر ق.م. فلجأ اهلها الى مدينة صور ، واعلنوا خضوعهم للاله ملكرت كبير الهة صور ، وتخلوا عن تعصبهم ضد باقي الهة المدينة. فاثر هذا الولاء على صور ، واسرعت لمساعدة اللاجئين ، وامدتهم بجيش كبير طرد البلاسج والفلسطينيين واعاد لصيدا حيويتها . الا ان سيادة الساحل انتقلت الى صور وظلت فيها عدة قرون . فنشر كهنتها تقـاليدهم الدينية والهتهم فى المنـاطق الجنوبية من لبنان . اما بيروت وجبيل وارواد فقد حافظت على مذاهبها ، ورفضت الخضوع لسلطان صور ، الديني والسياسي .

واوثقت صور علاقاتها مع مملكة العبرانيين فى فلسطين ، التي اعلن شاول تاسيسها فى القرن الحادي عشر ق.م. وكانت هذه العلاقات السياسية وليدة علاقات دينية بين الدولتين . فقد انتشرت عبادة الالهة الفينيقية الصورية ، وخاصة عشتاروت ، فىالمدن العبرانية ، بواسطة التجار الفينيقيين الذين كانوا يتجولون بين المدن ، والنساء الفينيقيـات اللواتي تزوجن عبرانيين . ويذكر العـهد القديم ان ايزابل ، ابنة ايثبعل ملك صور ، حملت معها الهتها الى فلسطين ، لما تزوجت الملك اخاب ، وحرضته ضد يهـوه اله العبرانيـين ، واشركته فى عبادة عشتاروت (٢) . ونشب صراع عظيم بين اتباع الالهين . ولم ينتصر جيحو ، نصـير يهـوه ، الا بعـد صراع دام سنـوات (٣) .

---

(١) المصدر نفسه ص ١٥٢ (٢) ملوك اول ١٦ : ٣١
(٣) ملوك ثاني ٩ : ٣٥

وكان العبرانيون قد تأثروا ببناء المعابد على النمط الفينيقي ، منذ ايام الملك سليمان ، الذي خضع لتقاليد زوجاته وجواريه الفينيقيات(١) . ونقل العبرانيون عن الفينيقيين ايضا عادة ونظام تسجيل تاريخ البلاد الديني ـ الذي اصبح فيما بعد الجزء الاهم من التراث العبراني . ونقلوا عنهم هندسة الابنية وطقوس الخدمة فى الهياكل وتقديم الضحايا واطلاق الاسماء الدينية تيمنا بالالهة ؛ وابتداع الاناشيد الطقسية والموسيقى والرقص الديني ، وبعض طقوس الدفن وما وراء الموت (٢) .

فتحت هذه الاتصالات الدينية مجال اجراء محالفات سياسية وتجارية بين صور والعبرانيين مدة طويلة ، فى عهدي داود وسليمان اولا ، ثم فى عهد المملكتين اسرائيل واليهودية(٣) . وكانت صور ، فى هذه المدة ، الصديقة الوفية للعبرانيين ، التي تمدهم بالمساعدات العسكرية والسياسية والتجارية عند الحاجة اليها ـ حتى ولو كانت هذه المساعدات على حساب المدن الفينيقية الاخرى .

* * *

ويمثل هجوم الاسكندر المقدوني على الساحل الفينيقي ، فى اوائل الثلث الاخير من القرن الرابع قبل الميلاد ، وصول العصبية الطائفية عند الفينيقيين حدها الاعلى . فقد احتل الاسكندر مدن هذا الساحل ، الواحدة بعد الاخرى ، دون ان يلقى مقاومة اهلها ، لاهتمامه بمراعاة مشاعرهم الدينية ، وتقديم القرابين الى الهتهم . وقدمت اليه بعض المدن مفاتيحها وفاء له واعترافا بعطفه الديني . الا ان صور خالفت المدن الاخرى . ذلك انه ما ان وصل الاسكندر صيدا ، واستقبل وفد صور الذي قدم اليه الخضوع والهدايا ، حتى اعلن عن رغبته فى دخول هيكل الاله ملكرت فى صور وتقديم

---

(١) ملوك اول ١١ : ١ـ٥

(٢) Hitti, History of Syria ص ١٨٩ ـ ٢٠٦

(٣) ملوك اول ٧ : ٢ ؛ ٥ : ١٣ ؛ صموئيل ٥ : ١١ ٢

القرابين له ، كالعادة . الا ان الصوريين الذين لم يمانعوا فى استعمار الاسكندر لمدينتهم واحتلالها مانعوا فى محاولته الاخلال باحدى تقاليدهم الدينية ، وهي حظر الدخول الى الهيكل ومنع اي انسان من ذلك ، الا ملك صور فقط . واضطر الاهالي ، ازاء هذا التعصب ضد الاسكندر ، الى تحمل اقسى حصار لاقته مدينتهم الخالدة ــ ذلك الحصار الذي انتهى بخسائر ومصائب لم تنسها القرون .

ومع ان الساحل الفينيقي فقد استقلاله السياسي بغزو الاسكندر واحتلاله البلاد السورية باكملها ، الا ان روح الاستقلال الديني ، والعصبية الطائفية ، لم تخب عند الفينيقيين. لذلك خشي السلوقيون ، الذين آلت اليهم سيادة لبنان منذ اوائل القرن الثالث الى اواسط القرن الاول قبل الميلاد ، خشوا ان يستغل زعماء البلاد الفينيقية هذه العصبية ضدهم ، وان يثيروا الشعب عليهم ، وهم فى حروب مستمرة مع اعدائهم البطالسة حكام مصر . فسعوا الى كسب ثقة الفينيقيين عن طريق التودد الديني . وادخلوا آلهتهم الى سكان الساحل ، ووحدوها مع الهة هذا الساحل ، مدعين ان الالهة كلها تنتسب الى اصل واحد . كما عملوا الى توحيد الطقوس بحيث لم يعد ثمة فارق بين العبادة الفينيقية واليونانية. وقد رضي الفينيقيون بهذه السياسة ، واعتبروها انتصارا لالهتهم ومعتقداتهم وصلوا ، مع السلوقيين ، فى معابد واحدة . وسموا البعل جوبتر ، وعشتاروت افروديت او الزهرة (١) .

ونتج عن هذا الاتصال الديني خضوع حضاري وسياسي كامل من جانب الفينيقيين . فتخلى فينيقيو الساحل عن لغتهم الارامية واتخذوا اليونانية . وانحصرت سيادة الارامية على قرى جبل لبنان . وقنع الفينيقيون ، فى الساحل والجبل ، بالحكم السلوقي ، وتخلوا عن روحهم الثوروية التي كانت تقودهم ، فى الماضي ، الى عصيان كافة الاحتلالات الاجنبية . وكان اسطولهم

(١) Hitti, History of Syria ص ١٧٢

عونا للسلوقيين ضدا اعدائهم . وقامت بين الفنيقيين واليونانيين صلات حضارية وثيقة ، من مظاهرها المدارس الموحدة ، والفلسفات المشتركة ، والنظم الادارية الواحدة(١) .

وخلف السلوقيين الرومان فى حكم سورية الطبيعية ، فى القرن الاول قبل ميلاد المسيح . وكانت السواحل اللبنانية قد اصبحت فريسة هجمات القراصنة والبدو اليطوريين(٢) . ومع أن بومبي ، القائد الروماني ، وخلفاءه من بعده ، وضعوا الامن فى نصابه ، وطردوا الغزاة ، واعتقلوا الحكام القساة ، الا انهم ادركوا ، مثل السلوقيين من قبلهم ، بأن خضوع البلاد لا يتم الا عن طريق التقرب الديني(٣) . لذلك قاموا بتوحيد الهتهم مع الالهة الفينيقية ، وبنوا الهياكل المشتركة ، ووحدوا الطقوس . وتحول بعل الى المشترى ، وعشتاروت الى جنون (٤) .

وانتهت المرحلة الاولى ـ عهد الطائفية الاقليمية ـ بزوال السيادة الفينيقية عن الساحل والجبل ، وتأسيس حكومة موحدة ، باشراف الرومان . ولم يعد لاهل المناطق اللبنانية مجال تأسيس الدويلات والتنافس فيما بينهم . وقطع ، بذلك ، مجال تدخل حكام المناطق فى الشؤون الدينية واثارة العواطف الطائفية واستغلالها ، على حساب المصلحة العامة بين جميع المناطق .

---

(١) المصدر نفسه ٢٥٥–٢٦٥ ؛ Kenrich ص ٤٣٦

(٢) يجدر بنا ان نلاحظ ان السيطوريين لم يحكموا لبنان حكما ثابتا الا بعد ان تأثروا بالهته واتخذوا معبودات لهم .

(٣) Mommsen ٣ : ٨٧ ؛ ٤ : ١٤٢–١٧٠

(٤) شيخو ص ٢٤

الفصل الثالث

الطائفية المذهبية

وجدنا فى نهاية الفصل الثاني ان المعتقدات الفينيقية امتزجت مع المعتقدات اليونانية والرومانية ، فى القرون الثلاثة السابقة للميلاد، لتكون وثنية مختلطة ، تتبع الالهة القديمة نفسها ، مع تبديل فى الاسماء فقط .

وانتقل الى لبنان دين آخر ، انتشر فيه من ارض فلسطين ، الى جانب الوثنية ، وهو العبرانية ، الدين الاول فى تاريخ البشرية الذي علَّم بواحدانية الله وروحانيته وتعاليه عن الصور والاصنام . وتسربت الدعوة العبرانية الى لبنان على موجات متعددة ، بدأت منذ ايام صداقة صور مع داود وسليمان واخاب ، وازدادت عند نزول المآسي السياسية فى دولتي اليهود . **وقد حافظ العبرانيون على عنصريتهم وتكتلهم الطائفي وعداوتهم لباقي السكان ، وهم المشهورون بالانكماش على بعضهم وانعزالهم عن باقي مناهب المجتمع الذي يحلون فيه .**

ولم يكن من المستغرب ان تثير هذه العنصرية الطائفية سكان لبنان ، وتحرك فيهم الرغبة للقسوة على مريديها ومحاولة دمجها فى مناهبهم او التخلص منها . وقد حرض الكهنة الشعب على هذه القسوة ، للانتصار على يهوه الذي نافس الالهة الفينيقية فى كسب ولاء الشعب .

ولاقى اليهود ، سنة ٦٦ ق.م. ، الاضطهاد الاول من اللبنانيين الوثنيين . ففي تلك السنة نكَّل الرومان بيهود القدس وهدموا مدينتهم وشتتوهم . فاغتنم السوريون واليونانيون والمصريون الفرصة ، وراحوا يضطهدون اليهود النازلين بينهم . وقتل من اليهود عشرات الالاف ، خاصة فى قيصرية وبيسان وعسقلان وعكا وحوران والاسكندرية . اما فى لبنان فقد ذبح وثنيو صور عددا

كبيرا من يهود المدينة ، وسجنوا الباقين . وطارد سكان بيروت النازلين من اليهود فى مدينتهم ، بعد ان سلبوهم ممتلكاتهم (١) . ولم ينج من هذه المذابح والاضطهادات الا يهود صيدا ، لانهم كانوا اكثرية السكان هناك (٢) .

وبنى اليهود ، انتقاما لما حدث لهم ولم يستطيعوا دفعه فى حينه ، اسطولا صغيرا، وراحوا يغيرون به على المدن الساحلية التي اذاقت اخوانهم العذاب ، فى مصر وسورية الطبيعية . ولم يتخلص السكان من هذه الغارات الا بمعونة فسبسيان ، القائد الروماني الذي جهز حملة خاصة لملاحقة الثائرين (٣) .

وقد اثمر هذا العداء بين الوثنيين من اللبنانيين واليهود بأن صد اليهود عن المجيء الى لبنان ، فى القرن الاول بعد الميلاد ، عندما هاجم تيطس الروماني مدينة القدس وشتت اهلها . وبينما هاجر اليهود الى مصر وما بين النهرين وشبه الجزيرة العربية ، امتنعوا عن القدوم الى لبنان وخافوا سكناه(٤) . وكان تيطس ، فى هذه الاثناء ، يتنقل بين المدن اللبنانية ، ليلهي سكانها بمناظر ذبح الاسرى اليهود والتفنن فى تعذيبهم . وقد اراد من ذلك كسب ثقة اللبنانيين ومحبتهم (٥) .

الا ان هذا العداء اليهودي–الوثني ، فى لبنان ، توقف نوعا ما فى القرن الميلادي الاول ، اثر انتشار الديانة المسيحية فى البلاد ، بحيث وجد الطرفان ، الوثنيون واليهود ، عدوا جديدا شديد الخطر ، يهدد مصالحهم وسيادتهم ، ولذلك اتفقوا معا ضد هذا العدو .

وتبخل علينا مصادر التاريخ باخبار دخول المسيحية الى لبنان. فليس فى العهد الجديد ما يذكر عن مجيء المسيح الى لبنان الا ما ذكره متّى عن مرور المسيح بحدود لبنان — وان كان فيه اخبار انتشار المسيحية المبكرة ، عند اشفاء المسيح ابنة

---

(١) Josephus ص ١٧٨–١٨٤

(٢) يذكر يوسيفوس فى الكتاب الرابع عشر (فصل ١٧) امتلاء صيدا باليهود ايام الحكم الروماني ، واستيلاءهم على امور المدينة المالية .

(٣) Josephus ص ٢٤٨ (٤) الدبس ٣ : ٢٧٥

(٥) المصدر نفسه ص ٤٤٧

المرأة الكنعانية ، وقدوم اهالي جنوب لبنان الى شمال فلسطين لمشاهدة عجائب المسيح والاصغاء الى تعاليمه[1] . ثم قدم لبنان بعض الرسل ، بعد صلب المسيح وانتشار تلاميذه فى انحاء العالم القديم للتبشير . ويذكر سفر اعمال الرسل مجيء بولس الى صور ، واقامته اسبوعا فيها ، ثم انتقاله الى صيدا ، لتفقد احوال المسيحيين الجدد فيها[2] . ومع ان هذا السفر لا يخبرنا بمجيء رسل آخرين الى لبنان[3] ، الا ان الروايات الكنسية ، الكاثوليكية والارثوذكسية ، تنسب الى يهوذا وفلبس وبطرس ومرقس وميتاس ، المجيء الى لبنان ، وتأسيس الكنائس ، ورسم القسس ، وغير ذلك [4] .

ومهما يكن من امر هؤلاء المبشرين ، فمما لا شك فيه ان لبنان كان هدفا لعناية المسيحية ، كما كان ملجأ للمضطهدين من اليهود الذين اعلنوا تنصرهم . وقد اتجه معظم هؤلاء الى لبنان وقبرص وانطاكية ومصر[5] . وساعد فى انتشار المسيحية فى لبنان وجوده على الطريق بين انطاكية ، التي اصبحت قاعدة النصرانيين وفلسطين، مهدها [6] . ولم يجيء القرن الثاني للميلاد الا وكانت السواحل اللبنانية تشهد اقامة عدد من الكنائس المسيحية فيها ، ايذانا بانتشار هذا المذهب الجديد .

وقد حدا هذا النشاط المسيحي بالوثنيين واليهود الى محاربة المبشرين والمؤمنين . وساعدهم فى ذلك الامبراطوران الرومانيان الملحدان هدريان وسبتموس ساويرس ، وكلاهما كان فى القرن الثاني . فقد ساهم هذان الامبراطوران فى بناء الهياكل الوثنية فى بعلبك وبيروت وكوسبا وغيرها ، لتسهيل امر انتشار الوثنية ضد

---

(1) مرقس ٣ : ٨ ؛ ٧ : ٢٤-٣٠ ؛ لوقا ٦ : ١٧

(2) اعمال الرسل ٢١:٣-٤ ؛ ٢٧ : ٣

(3) فى سفر الاعمال ان بطرس تجول فى شمال سورية وبابل واسيا الصغرى ومصر ، ويوحنا فى اليهودية وافسس وبطمس ، ويعقوب فى اليهودية ووسط سورية ، واندراوس فى اليونان وحوض البحر الاسود ، وفلبس فى فريجة ، وتوما فى بريتا ومديا وفارس والهند ، ومتى فى فارس ، وبرتلاوس فى الجزيرة العربية ، ويهوذا فى ادسا ، وتيموتاوس فى افسس وروما ، وتيطس فى كريت ، ومرقس فى مصر . وليس للبنان ذكر بين هذه الاماكن .

(4) توما ص ٨١-٨٢ ، ١٥٥-١٥٦

(5) الدبس ٣ : ٤٥٤ ؛ اعمال الرسل ١١ : ١٩ ؛ ١٥ : ٣

(6) Hitti, History of Syria ص ٣٣٥

المسيحية . كما عمما الدعارة والفساد الخلقي ، ليبتعد الشعب عن التقشف النصراني (١) .

وتحامل الوثنيون على المسيحيين بدرجة كبيرة . وفي منتصف القرن الثالث قتلوا اوريجانس ، زعيم المسيحيين فى صور، بعد تعذيب قاس . ولاقى عدد كبير من المسيحيين الموت فى هذا القرن ، لتمسكهم بديانتهم . ومن اشهرهم تيرانيوس ودوروتاوس اسقفا صور ، وزيونوبيوس اسقف صيدا ، وكيرلس المبشر فى بعلبك ، وتودوسيا المبشرة فى صور . وكان كهنة المعابد فى مقدمة المحرضين على هذا الاضطهاد . وبسببهم انتقل الاضطهاد الى طرابلس ، فقتل فيها المئات من المسيحيين ، ومن اشهرهم انطيوس وابياتوس وطليلبوس وتاودوليوس ولوسيان . وقتلت فى جبيل كاكونيا ، الفتاة التي لم تبلغ الثانية عشرة من عمرها(٢) .

وكان يهود فلسطين قد ارسلوا الى يهود لبنان ، بعد قتل استفانوس ويعقوب بن زبدي ، يحرضونهم ضد المسيحيين ويطالبونهم بعدم الرافة بهم . ولقي الاضطهاد اليهودي للمسيحيين رضى خاصا من الاباطرة الرومان نيرون وتراجان وسبتموس سفيروس ودوقلديانوس (٣) .

غير ان تنصر قسطنطين ، الامبراطور البيزنطي المشهور فى القرن الرابع للميلاد ، اوقف من حدة هذا الاضطهاد الوثني ـ اليهودي للمسيحية ، واعطى المضطهدين مجال تثبيت مركزهم ، واقامة الكنائس والطوائف لمجابهة المذاهب الاخرى . وقد عمل قسطنطين على بناء الكنائس فى بعلبك ، ورسم الكهنة لخدمتها ، وعلى مراقبة اخلاق الوثنيين ، ومطاردة عابدي الالهة القديمة . وامر ذلك الامبراطور باجلاء الوثنيين عن افقا ـ التي عرف عن سكانها التعبد للالهة عشتاروت عن طريق الاباحية ـ واسكانهم فى بعلبك ، لتسهل مراقبتهم . وتحولت المعابد القديمة الى كنائس مسيحية ؛ ومنع السكان من اتباع الطقوس الوثنية (٤) .

---

(١) مزهر ١ : ١٥٤
(٢) المصدر نفسه
(٣) موسهيم ص ٢٠
(٤) الدبس ٤ : ٢٥٠

واعلن الامبراطور البيزنطي ثاودسيوس ، سنة ٣٧٨ ، متابعة الحرب على الوثنيين فى لبنان . وامر ببناء المزيد من الكنائس والاديرة وفي مقدمتها دير قنوبين . وجعل لهذا الدير السيادة على باقي المؤسسات المسيحية فى البلاد (١) وأمر ثاودسوس ايضا باحراق ما بقي من الهياكل الوثنية (٢) .

وبنى رهبان لبنان ، بعد انتشار التنسك فى سورية ومصر عددا من الاديرة والمناسك ، ومن اشهرها مغارة عدلون بين صور وصيدا ومغارة الفرزل المعروفة بمقام الحبيس ، ومغاور الراهب فى الهرمل ومناسك وادي قزحيا(٣) .

وقد وجد المسيحيون فى هذا الانتشار لدعوتهم، وفي مساندة الامبراطور لهم ، دافعا لان يذيقوا الوثنيين العذاب الذي نالوا منه على ايديهم الشيء الكثير . فجمعوا صفوفهم وصمموا على اضطهاد الوثنيين وتهديم معابدهم . وكان كيرلس ، وهو اكثر المسيحيين فى بعلبك تعصبا ، يتزعم هذه الحركة . لذلك ثار الوثنيون فى بعلبك على هذه الحركة فقتلوا المسيحين الموجودين فى المدينة ، واستباحوا ممتلكاتهم ومقدساتهم(٤) .

حمي غضب الكنائس المسيحية لهذا الاضطهاد . وزاد فيه ارتداد بعض المسيحيين بسبب الاحوال . فارسل يوحنا المعروف بفم الذهب ، الى دومينوس رسالة يقول فيها «ان شرور فنيقيا قد تجدد شرها حتى زاد كيد الوثنيين فيها»(٥) . ولما اتفقت تلك الكنائس على ارسال المبشرين لدعم المسيحية تصدى الوثنيون لهؤلاء المرسلين ونكلوا بهم وقتلوهم . ثم أعاد الوثنيون بناء معابدهم ، واسترجعوا طقوسهم وصلواتهم وعاداتهم . واضطر المبشرون المسيحيون الى بذل المستحيلات فى سبيل تخفيف الضغط عن اخوانهم . ولم تنجح جهودهم فى وقف التعديات التي كانت تمتد الى جميع انحاء لبنان . وظلت

---

(١) مزهر ١ : ١٥٢
(٢) الدبس ٤ : ١٢١
(٣) مزهر ١ : ١٥٥
(٤) الدبس ٤ : ٢٦٣
(٥) دريان ص ٢٣

الاوضاع هكذا حتى القرن السابع للميلاد(١). غير انه لا يجوز لنا ان نأخذ ببعض الاراء التي تدعي بان المسيحية لم تنتشر فى لبنان الا على ايدي الراهب مارون ، وبمساعي تلامذته وفي مقدمتهم البطريرك يوحنا مارون . ذلك ان الاضطهادات التي لاقاها المسيحيون وصراعهم مع المذهبين الاخرين لم يمنع انتشار المسيحية فى لبنان .

وقد آلم اليهود ان تعم النصرانية لبنان بهذا الشكل ، وان تقوى عليهم وعلى الوثنية وتأخذ مكانها فى النفوس. فاغتنموا فرصة ضعف الدولة البيزنطية فى اوائل القرن السابع ، عندما لمسوا فى الامبراطور هرقل اهمالا لشؤون الدولة ورعايتها ، واعلنوا ثورتهم سنة ٦١١، ضد المسيحيين اللبنانيين والبيزنطيين. وكان يهود صيدا يتزعمون هذه الثورة . وارسل هؤلاء الى يهود دمشق وقبرص والقدس يدعونهم الى مؤازرتهم فى الانتقام من المسيحيين . الا ان جيش هرقل تمكن من احتلال صيدا وانقاذ المسيحيين والقضاء على العصيان اليهودي(٢) .

وظل يهود لبنان يحاربون المسيحيين كلما سنحت لهم الفرص ، وكان اليهود ، عند مجيء الفتح الاسلامي ، يقيمون فى لبنان بعدد ضخم . فكانوا يشكلون فى طرابلس اغلبية السكان . وانتشر سلطانهم فى بيروت بشكل واسع(٣) . وقد حاولوا محاربة المسيحية ، بعد قدوم المسلمين ، بطريقة جديدة . فاقنعوا الخليفة الاموي يزيد بن عبد الملك بأن يمنع المسيحيين من استعمال الصور. الا ان المسيحيين فى لبنان رفضوا الانصياع لهذه التعليمات ، واعلنوا عصيانهم للدولة الاموية ، وآووا كل من التجأ الى لبنان من مسيحيي المناطق المجاورة هربا من الاضطهاد(٤) .

* * *

---

(١) المصدر نفسه ص ٣٤–٣٥ (٢) الدبس ٤ : ٥٤٦

(٣) تقول الروايات المسيحية ان عددا كبيرا من يهود بيروت آمنوا بالمسيحية بعد ان شاهدوا صورة للمسيح تنزف دما ، كأنها وجه انسان حي ، اذ حاولوا الاعتداء عليها (الدبس ٥ : ٢٥٩–٢٦٢)

(٤) المصدر نفسه ص ٢٧٨–٢٨٢

ومع ان انقسام المسيحيين الى عدد من الفرق المتصارعة لاهوتيا (١) ، ودمويا احيانا ، لم يكن امرا منحصرا ضمن لبنان ، ولا كان ناتجا عن التعصب الطائفي فى لبنان ، الا ان هذا الانقسام لم يمر فى لبنان دون ابقاء اثر يستحق الذكر .

كانت كنائس لبنان ، فى بادىء الامر ، موالية لانطاكية . ولهذا رفضت الكثير من البدع التي اعتبرتها الكنيسة مناقضة لتعاليم التوراة . ولما قام اريوس ، فى القرن الرابع ، ونشر دعوته التي اعلنها مؤتمر نيقية سنة ٣٢٥ مناقضة لرسالة المسيح (٢) ، كان ويتاليس ، اسقف صور ، من المؤيدين له . واشترك هذا الاسقف مع باقي الآريوسيين فى التوقيع على قانون الايمان الذي صاغه اناسيوس اسقف قيسارية الآريوسي فى مجمع سلوقية (٣) . واضطرت كنيسة انطاكية الى فصل ويتاليس . وتعصب اهالي لبنان ضد هذا الاسقف ، ولم يقف الى جانبه الا القليلون .

وعاد النزاع ، سنة ٣٨١ ، بين الآريوسيين واعدائهم فى صور . وكان زينون يتزعم الآريوسيين بينما تزعم ديودورس ، الفئة المعارضة لهم ، الموالية لانطاكية . واصبح كل من الرجلين اسقفا ، وصرف وقته فى محاربة الآخر (٤) . ثم توسع نطاق الصراع المذهبي الى المناطق اللبنانية الاخرى . فانحاز المسيحيون فى طرابلس الى الآريوسية ، وطردوا اسقفهم هلنكس ، وعينوا ثوادوسيوس مكانه؛ وكان ذلك فى القرن الرابع . وكانت بيروت ، من قبل ، قد اصبحت مدينة اريوسية ، برعاية اسقفيها غريفورس ونكدونيوس (٥) . واضطرت الجماعات المعادية للآريوسية الى الاستنجاد بكنيسة انطاكية . وارسلت انطاكية دعاتها الى لبنان ، لمحاربة الاريوسيين . وكان اوسابيوس يتزعم هذه المعركة التبشيرية . وتخفى اوسابيوس بثوب جندي ، وراح يتنقل بين مدن لبنان ، ليحرض السكان على

---

(١) قام هذا الخلاف ، الذي اخذ من تاريخ النصرانية ما لم تأخذه اية قضية اخرى ، فى اساسه ، حول مدى الالوهية والبشرية فى المسيح ، مما له علاقة بالآية التالية « والكلمة صار جسدا وحل بيننا » يوحنا ١ : ١٤

(٢) اشترك لبنان فى هذا المؤتمر بنسبة كبيرة ، اذ حضره عشرة مطارنة من الكنائس اللبنانية .

(٣) الدبس ٤ : ١٩٨

(٤) المصدر نفسه ص ١٩٩

(٥) المصدر نفسه ص ٢٠٠

الآريوسيين . وعين كهنة واساقفة موالين له ليعـاونوه . الا ان الاريوسيين اكتشفوا امره ، فطردوه ، واجبروا البيزنطيين على نفيه الى العراق . وعين الآريوسيون اونوبوس ولوستيوس اسقفين ، مكانه ، على لبنان . فرفض اتباع كنيسة انطاكية الرضوخ لهذين الاسقفين ، وبقوا متمسكين باوسابيوس . واشتدت ثورة الانطاكيين على الآريوسيين واساقفتهم ، ومنهم من رفض الاستحمام في البركة التي استحم بها الاسقف الاول ؛ ومنهم من رفض مسك كرة مرت تحت رجلي حمار ثانيهما ! (١)

ونشط الآريوسيون في لبنان . ونشروا الاشاعات حـول اعدائهم . واتهموا الاسـاقفة المعارضين لهم بالزنى والسـرقة ، واثاروا الرأي العام ضدهم . وقلما نجا اسقف واحد من تهمة انجاب ابنـاء غير شرعيين ، او الزواج بأكثر من امرأة واحدة.وعقد الاريوسيون عددا من المجتمعات ضد الكنيسة المعارضة لهم ، وكان مجمع صور سنة ٣٣٥ من اشهرها .

واتحد اساقفة لبنان ضد استفانوس اسقف ارتوسيـا على نهر البارد ، في القرن السـادس . وكان استفانوس هذا مواليـا لساويرس بطريرك انطاكية الذي عارض المؤتمر الخلقيدوني(٢) . وتزعم ابيفان اسقف صور هذه الحركة وعقد مجمعا في صور سنة ٥١٨ م. لبحث الامر . وقرر المؤتمر طرد جميع الاساقفة الموالين لساويرس ، وبينهم الياس اسقف البترون . وقام الشعب يطارد اتباع ساويرس ويقسو عليهم ، خاصة بعد ان عقد هؤلاء الاتبـاع مؤتمرا لهم في صيدا واعلنوا اتحادهم ضد الخلقيدونيين (٣) .

وقام كاهن اسمه **نسطور** ، في القرن الخامس ، من الذين اشتهروا بمحاربة البدع ، واسس دعوة جديدة . وكان اسـاس دعوته ان الانسان الذي تجسد في جسم العذراء هو غير كلمة الله :

---

(١) المصدر نفسه ص ٢٠٦

(٢) اشتهر ساويرس بعدائه لمجمع خلقيدونيا وبتنكيله بالمعارضين له .

(٣) الدبس ٤ : ٤٧٩-٥٢٥ . اما الكنيسة المارونية فتنفي عقد مجمع في صور سنة ٥١٥ لتأييد اعداء الخلقيدونيين وتؤكد ان لبنان ظل وفيا لهذا المجمع دائما (الدبس ٤ : ٣٣٠)

فالتجسد هو حلول كلمة الله فى ذلك الانسان . ويعني هذا الاعتقاد ان الله لم يولد ولم يمت ، وان المسيح ليس الها بل هيكلا لله ، وان فيه اقنومين واحد الهي وآخر بشري .

جمع نسطور حوله عددا من الكهنة ، خاصة فى الرها ، وفي ما بين النهرين وبلاد فارس فيما بعد . وتأثر به ايريناوس اسقف صور ، سنة ٤٣١ ، وناصره فى مجمع افسس . فغضب عليه الامبراطور البيزنطي وامر بنفيه . الا ان اساقفة لبنان ، الذين كانوا ضد نسطور ، اعادوا الاسقف المنفي الى رأيهم ، وارجعوه الى وظيفته(١) . اما الاساقفة اللبنانيون الآخرون الذين تبعوا نسطور فقد حاربهم المعارضون لهم واثاروا عليهم قورش اسقف صور واكويلنس اسقف جبيل .

ثم انحاز اوسطانيوس اسقف بيروت الى ديوسقورس بطريرك انطاكية ، فى مجمع افسس سنة ٤٤٩ م. وناصر الاثنان **اوطيخا** ــ ذلك الراهب الذي دعا بوجود طبيعتين للمسيح ، الهية وبشرية ، امتزجتا معا بحيث اصبح للمسيح طبيعة واحدة واقنوم واحد ، فلم يعد المسيح انسانا كاملا ، اذ هو عند التجسد ذو طبيعتين ، وبعد التجسد ذو طبيعة واحدة . ورضي الملك توادوسيوس الصغير ، وكان اوطيخيا ، على اوسطانيوس ، وجعل بيروت متروبوليتية مستقلة ، واعطى اسقفها صلاحيات واسعة على كنائس جبيل والبترون وعرقا وطرابلس.الا ان المجمع الخلقيدوني، بتحريض اسقف صور ، الذي آلمه ان تنتزع بيروت سيادة الكنائس المسيحية منه ، قاوم اوسطانيوس ، واضطره بعد تحريض الرعية عليه، الىالرجوع عن معاضدة الاوطيخيين، وموالات الخلقيدونيين(٢)

وازداد الاضطهاد الكنسي للآريوسيين والنساطرة والاوطيخيين واليعاقبة ، حتى اضطر الكثير من المضطهدين الى الهجرة الى العراق وفارس وشبه جزيرة العرب .

* * *

(١) الدبس ٤ : ٣٣٢-٣٣٦
(٢) المصدر نفسه ص ٣٤٠ ، ٤٠٧

وكان لبنان ، قبيل الفتح الاسلامي ، منقسما الى جبهتين رئيسيتين . والف **الملكيون** (المعروفون اليوم بالروم الملكيين ، او الكاثوليك) الجبهة الاولى(١). وهم الذين خضعوا لقرارات الامبراطور البيزنطي فى مؤتمر خلقيدونيا ٤٥١ م. ، ثم واصلوا علاقاتهم الموالية للبيزنطيين مدة طويلة . وكان الفرس والمسلمون يتهمونهم احيانا بالتجسس للبيزنطيين والاتصال بهم سياسيا وعسكريا . وكثيرا ما نكلوا بهم وارغموهم على ترك هذه الطائفة . وظل هذا التنكيل مستمرا الى ايام العباسيين والفاطميين والمماليك. واشتدت عليهم قسوة المهدي والمقتدر والراضي والمعز والعزيز والحاكم والظاهر والمستنصر والكامل والمعظم والاشرف، فى لبنان وخارجه(٢).

اما الجبهة الثانية فقد تزعمها **اليعاقبة** . واليعاقبة هم اتباع يعقوب البردعي الذي آمن بدعوة اوطيخا ونشرها بين السريان وألّف جماعة خاصة تسمت به . وكانوا مونوفوستيين ، اي من المؤمنين بطبع واحد فى المسيح(٣) . وكسبوا ، فى سورية ، قوة كبيرة ، عندما انحاز الفساسنة الى صفهم . فقد كان الحارث بن جبلة ، ملك الغساسنة فى منتصف القرن السادس للميلاد ، من انصار القائلين بالطبيعة الواحدة (٤) . كذلك كان خليفته ، المنذر (٥) . فلما اضطهد البيزنطيون اليعاقبة ، انحاز الغساسنة الى صف المضطهَدين ، وتحالف الفريقان ضد صديقتهم القديمة ـ الحكومة البيزنطية . وبعد ان كان البيزنطيون قد سمحوا للغساسنة بالسيطرة على سواحل لبنان لصد الهجمات العربية (البدوية)

---

(١) يوجد اختلاف كبير حول لفظة الملكيين بين الطوائف المسيحية . فيقول الكاثوليك ان هذا الاسم كان يشمل السريان الكاثوليك والموارنة منذ سنة ٤٥١ حتى ٧٢٦ حين انشق الموارنة عنهم . اما الموارنة فينكرون ذلك ، ويعتبرون لفظة الملكيين مجرد تعبير حربي اطلق على الكاثوليك للتفريق بينهم وبين المردة، وان الموارنة لم يكونوا ملكيين قط . فيجيب الكاثوليك على ذلك بأنهم حملوا هذا الاسم منذ القرن الخامس ، وان المصادر العربية الاسلامية والسريانية واليعقوبية والنسطورية تؤكد ذلك (الزيات ، الروم الملكيون ١ـ١٥)

(٢) الزيات ، الروم الملكيون ٢٣ـ٤٤

(٣) انتشرت هذه الدعوة ايضا بين الارمن ، على يد الاسقف برصوم ، وبين المصريين والاحباش ، على يد ديوسقورس

(٤) نولدكه ص ٢١ـ ٢٢ (٥) المصدر نفسه ص ٢٧

والفارسية ، حاربوهم ونفوا ملكهم المنذر الى صقلية(١) . ولما بلغت بطريرك انطاكية اليعقوبي انباء انهزام البيزنطيين امام المسلمين قال: « ان رب الانتقام استقدم من المناطق الجنوبية ابناء اسماعيل لينقذنا بواسطتهم من ايدي الرومانيين . واذا تكبدنا بعض الخسائر لان الكنائس التي انتزعت منا واعطيت لانصار مجمع خلقيدونيا بقيت لهم لاننا قد اصابنا خير ليس بالقليل ، بتحررنا من قسوة الرومان وشرورهم ومن غضبهم وحفيظتهم علينا ... » (٢)

وكان الكثير من المسيحيين فى لبنان يناصرون اليعاقبة ، بالرغم من اضطهاد الكنيسة لهم . ومنهم من أسهم مع الحارث ضد البيزنطيين واتباعهم ملوك الحيرة (٣) . ومنهم من انصرف الى التبشير فى لبنان ، فأسس الكنائس والاديرة . ولا تزال كنيسة الرسول بطرس ، المنحوتة من الصخر فى العاقورة ، تشهد على اهتمامهم بالبناء الكنسي (٤) .

اما الطائفة التي كانت تقف للسريان اليعاقبة بالمرصاد، وتنازعهم على سيادة المسيحيين فى لبنان ، فهي الطائفة المارونية . ولا يزال تاريخ نشأة الموارنة ونمو كنيستهم فى لبنان مدار جدل المؤرخين واللاهوتيين . فالسريان يقولون ان الموارنة هم اتباع مارون، الناسك السوري الذي اسس فى سورية ، ثم فى لبنان ، طائفة مسيحية عهد اليها بمعاضدة البيزنطيين ، ضد اليعاقبة والسريان . وذكر سعيد بن بطريق ، وهو من مؤرخي القرن العاشر للميلاد ، ان مارون كان من القائلين بوجود طبيعتين للمسيح ، ومشيئة واحدة. ونقل وليم الصوري ، مؤرخ الحروب الصليبية ، هذا القول ، الى التاريخ الحديث (٥) . اما الموارنة انفسهم فمنهم من يتبنى نظرية الكردينال باردينوس ، وهي ان الموارنة هم اتباع مارون الناسك ، ولكن الاسم جاء اما بالنسبة الى مارون ، او نسبة الى قرية مارون

---

(١) المصدر نفسه ص ٩–١١ ، ٢٩–٣٥ ، ٥١
(٢) الغزالي ص ٧٧ (٣) Wright ص ٨٥
(٤) للتعمق فى تاريخ السريان راجع كتاب طرازي ، عصر السريان الذهبي .
(٥) William جـ ٢ ص ٤٥٩

قرب انطاكية (١) ؛ وان مارون هذا كان طيلة حياته وفيا للكنيسة ، ولم يشذ عنها ولا اتبع بدعة ما . ومن الموارنة من يتبنى رأي جبرائيل القلاعي ، المطران الذي عاش فى القرن الخامس عشر ، القائل بأن الموارنة هم ليسوا اتباع مارون الناسك بل مارون البطريرك ، الذي جاهر برأيه الموالي لروما ، وحارب الهراطقة واليعاقبة ، ونشر تعاليم روما فى لبنان (٢) .

عاش مارون الناسك فى نهاية القرن الرابع واوائل الخامس . وكان راهبا متنسكا فى دير ، قرب نهر العاصي فى شمالي سورية . وينسب اليه الموارنة عمل العجائب ، وشفاء المرضى ، جسمانيا وعقليا وخلقيا. وقد تبعه بعض الرهبان ، واولهم يعقوب وتلاسيوس ويوحنا وموسى وانطوكيوس وانطونيوس ، وكلهم من خارج لبنان. ولما توفي اعتبر قبره ديرا ، ومركزا رئيسيا لتلك الجماعة . واذاعت جماعته خبره بين الناس ، فاعتبر قديسا ، وعيّد فى ذكراه وبني على اسمه وذكراه عشرات الاديرة ، التي تولت نشر مذهبه فى البلاد (٣) . وتكونت من هذه الاديرة ورهبانها واتباعها ، الطائفة المارونية ، ذات القوانين الخاصة والانظمة المستقلة عن باقي الطوائف . واسس رجالها المدارس والكنائس ، وانتشروا فى سورية ولبنان لتوسيع الطائفة الجديدة ومحاربة اعدائها .

وكانت نكبة نساك دير مارون على العاصي ، التي قام بها اليعاقبة ، اذ هاجموا الدير وقتلوا ٣٥٠ راهبا فيه ، سببا فى لجوء الناجين منهم الى لبنان . وقد عمل هؤلاء على توسيع نطاق التبشير فى لبنان ، بحيث اصبح هذا البلد المركز الرئيسي للطائفة المارونية . وانضم اليهم ، بعد سنوات ، الموارنة الهاربون من اضطهاد بطريرك انطاكية اليعقوبي ، ساويرس ، والملك انسطاس ، صديقه ، الذي حرم عليهم التبشير بتعاليم مجمع خلقيدونيا (٤) .

---

(١) يقول الدويهي (تاريخ الطائفة ، ص ١٤) انه قام فى لبنان عدة قرى تعرف باسم مارون ، قرب كسروان وجبيل وصيدا وكانت « مارون » قرب انطاكية بلدة مشهورة . ومعناها « السيد الصغير » .

(٢) الدويهي ، تاريخ الطائفة ٨-١٢

(٣) الدبس ٤ : ٤١٧-٤٢٧

(٤) دويهي ، تاريخ الطائفة ٤٠-٤١

وبينما يتبع العلامة الماروني الكبير ، الدبس ، هذا الرأي ، يخالفه زميله الدويهي في ذلك ، وينكر ان يكون الراهب مارون شفيع الطائفة ورمزها . فهو يتبع نظرية القلاعي ، بانتساب الموارنة الى البطريرك يوحنا مارون . وقد كان اسم هذا البطريرك يوحنا السرومي ، ثم سمي مارون لانه كان اسقفا في دير مارون الناسك ولانه كان من اتباعه . وتبدأ علاقته بالموارنة عندما عيّن مطرانا على البترون وعموم جبل لبنان لتلك الطائفة الصغيرة التي لم يكن لها كيان رسمي بعد . وقد تزعم يوحنا حركة لمقاومة اليعاقبة ، اذ لمس ميلا عند اللبنانيين نحو المبادىء اليعقوبية. وكان يدعو لاضطهاد اليعقوبيين ومنعهم عن التبشير . وعيّنه امير بيزنطة مطرانا في لبنان ، سنة ٦٧٠ ، ليحقق هذه الدعوة (١) . ثم رسم بطريركا على انطاكية ، سنة ٦٨٦ . ولكن مركزه ظل في لبنان، في مدينة جبيل ، الى ان نقله الى كفرحاب ، حيث عاش الى ان توفي . ويقول اصحاب هذا الرأي ان اهل لبنان التفوا حول يوحنا مارون ، في حملته ضد اليعاقبة ، وشكلوا له نواة الطائفة المارونية ، التي تقوم على الاعتراف بطبيعتين ومشيئتين للمسيح .

وتروي المصادر السريانية المعادية للموارنة ، ان يوحنا ، جاء مطرانا الى لبنان ، « ليقوم على حفظ اهلها ويضبط سكان السواحل في طاعة الحبر الروماني ويصونهم من تعاليم الملة اليعقوبية والروم المقيمين في تلك البلاد . ولما ان ارتقى مارون الراهب الى درجة الرئاسة ، ثبّت ذوي رأي الكنيسة الرومانية وشدد أزرهم ليس في امور الديانة فقط بل وفي العوارض الدنيوية . لانه زادهم قوة ونشاطا وأقام ابن اخته ، رجلا يسمى ابراهيم ، اميرا على تلك البلاد فقوي امرها وجعلها كفؤة لصدمات كل من تعدى عليها . » اي ان يوحنا لم يكتف بالنفوذ الديني ليحارب المونوفوستيين به بل تدخل في شؤون الدولة ، ضدهم . وهذا العداء له جعل

---

(١) ولما كان يوحنا مشهورا بالقدرة والنشاط تمكن من توسيع نفوذه الى القدس وارمينيا (المصدر نفسه ٨)

السريان يحقرونه فى كتاباتهم ، ويسمون ابن اخته بريهم ، للاستخفاف ! (١)

وقد اطلت الحديث فى اصل هذه الطوائف المسيحية لان قيامها ونشوءها وتطورها كان من صميم الجو الطائفي فى لبنان . فقد كان هم رجال الطائفة الواحدة تغذية التعصب ضد الطائفة الاخرى للقضاء عليها . والعلامة الدبس فى مقدمة الذين لاحظوا اثر هذا التعصب فى تاريخ الطوائف حينما قال : « والذي اراه راجحا ان اسمي الملكية (اي الكاثوليك) والمردة (اي الموارنة) كانا فى عصر واحد ، واحدهما يخالف الاخر ، ولم يكونا يدلان فى اول استعمالهما على دين او طقس كما ارتأى بعض العلماء الموارنة بل على غرض او حزب مدني ، وان دلا على ذلك بعدا ، اعني لما افترق كل فريق منهما عن الاخر بطقسه ورعاته ومذهبه »(٢) . واذا كان هذا هو الحال بين الموارنة والكاثوليك الذين هم اقرب الطوائف بعضها الى بعض ، ماذا يبقى لنا ان نقول عن الطوائف الاخرى المتباعدة فيما بينها ؟ فقد راينا كيف كانت هذه الطوائف تتصارع وتتناحر ، لما كان لبنان بلدا مسيحيا . ولم يكن مجيء الاسلام عاملا على وقف هذا التناحر ، اذ واصلت الطوائف تعصبها المذهبي، كالسابق . وكثيرا ما كانت الطائفة الواحدة تحرض المسلمين على اتباع الطائفة الاخرى ! (٣)

وكانت كل طائفة تسكن منطقة خاصة بها . فسكن الموارنة الشمال عموما ، وخاصة البترون . اما اليعاقبة فسكنوا منطقة جونية . واقام الارثوذكس فى الكورة . واسكن صالح بن يحيى ، فى منتصف القرن الثامن ، عددا من الجماعات الارمنية التي هاجرت الى لبنان من اسيا الصغرى ، ما يحيط بمدينة بزمار .

* * *

---

(١) المصدر نفسه ٨ ، ٥٤ (٢) الدبس ٥ : ١٢٣
(٣) المصدر نفسه ص ٣٣

ومع تطور النزاع النسطوري-اليعقوبي-السرياني-الخلقيدوني الى نزاع ماروني-كاثوليكي-ارثوذكسي-بروتستانتي ، تطورت الطائفية المذهبية ونشطت اكثر من الماضي ، لاختلافها مع العوامل السياسية والاقطاعية الجديدة . ومن مظاهر هذه الطائفية ما رافق الحملة الصليبية . **اذ لما تعاون الموارنة مع الصليبيين ، أعلن الارثوذكس والسريان واليعاقبة معارضتهم لهم** . حتى انهم اضطروا احد قواد الصليبيين الى ان يرسل الى البابا اوريانوس شاكيا وطالبا معونته ضدهم « لقد هزمنا الاتراك والوثنيين ، ولكننا لا نستطيع استعمال العنف مع الملحدين من الروم والارمن والسريان واليعاقبة . تعال حطم بنفوذك الذي لا مثيل له الالحاد كله » (١) . ومن ناحية اخرى رفض الموارنة ، فى القرن الثامن عشر ، مساعدة الاسطول الروسي الذي قدم لمحاربة العثمانيين فى لبنان ، لمذهبه الروسي الارثوذكسي . وبقي هذا العداء حتى القرن الحاضر . ويقول اسكندر الرياشي ان الارثوذكس لم ينادوا بالعروبة الا لان الموارنة رفضوها ! (٢)

وكان المنفذ الاكبر لهذه الفتن تجرؤ بعض ابناء الطائفة الواحدة على الانتقال الى طائفة اخرى . والتاريخ حافل بحوادث الاضطهادات الناتجة عن اسباب التبدل الطائفي . فالارثوذكس ، فى القرون الوسطى ، اضطهدوا بعض ابناء طائفتهم ، من الكورة ، لما اعتنقوا المارونية . واضطر قنصل فرنسا لان يتدخل لحماية الموارنة الجدد (٣) . وفي سنة ١٤٨٧ انتشرت الدعوة اليعقوبية انتشارا واسعا فى شمال لبنان . وكان المقدم عبد المنعم ايوب ، حاكم جبل لبنان الماروني الاصل ، من الذين تأثروا بهذا التبشير . فسمح لليعاقبة بالعمل وبناء الكنائس ورسم الاساقفة وأمدهم بمساعدات كثيرة . واعلن حمايته لهم ، وهدد كل من يضطهدهم بالنفي ومصادرة ممتلكاته . فحمي غضب الموارنة عليه . ولما علموا بتحالفه مع مقدم بشناتا جمعوا مقاتليهم وساروا لمحاربة اليعاقبة ،

---

(١) الغزالي ص ٢٢٦　　(٢) رياشي ص ٢٠
(٣) غالب ص ٢٢٠

واضطروهم الى الهرب اما الى قبرص او الى المناطق الاخرى من لبنان (١) .

ومن حوادث النزاع الطائفي المذهبي بين المسيحيين في لبنان الخلاف الذي نشب بين الارثوذكس والموارنة بسبب العيد والصوم سنة ١٥٣٩ (٢) . واشترك الكاثوليك ، بعد ذلك بثماني سنوات ، في التآمر مع الارثوذكس على الموارنة . وقاموا بقتل عبد المنعم حنا مقدم بشري (٣) . وحدث نزاع في حلب ، سنة ١٧٢٥ م بين الروم الملكيين وبين الارثوذكس . واضطر الملكيون الى الهرب الى لبنان . فتلقاهم الموارنة بالترحاب واسكنوهم اديرتهم . فغضب الارثوذكس الساكنون في الكورة وطرابلس ، واعتبروا هذا التحالف الماروني ـ الكاثوليكي تحديا لهم . فشكوا الموارنة الى الوالي ، وحرضوه عليهم . وارغموا البطريرك والكهنة الموارنة على الهرب من تلك المنطقة الى كسروان ، حيث تولى آل الخازن حمايتهم (٤) . وفي سنة ١٨٦٠ استطاع بطريرك الموارنة ان يسيطر على قائمقام المسيحيين ويحرضه ضد الارثوذكس . فلم يعد ذلك القائمقام يسمع لهم طلباتهم . وازداد العداء المذهبي بين الموارنة والارثوذكس في القرن الماضي حتى قال اللورد دوفرين البريطاني « ان التباغض الكائن بين الروم والموارنة ليس بأقل من عداوة الموارنة والدروز » (٥) .

وفتح مجيء المبشرين البروتستانت ، في القرن الماضي ، الى البلاد السورية ، مجال التعصب من جديد. فقد **عارضت الكنيستان المارونية والارثوذكسية دعوة البروتستانت لا بالحجة والاقناع فحسب (وهذا امر معقول جدا) بل باضطهاد المبشرين وابناء البلاد الذين انحازوا اليهم . وهدد البطريرك الماروني ابناء رعيته بالحرمان الكنسي عقابا لمن يقترب من اي بروتستانتي او من يتعامل معه .** كما انه منع رعيته من مجرد زيارة البروتستانت والاحسان

---

(١) دويهي ، الازمنة ص ٢١٧ـ٢١٩
(٢) المصدر نفسه ص ٢٥٣ (٣) المصدر نفسه ص ٢٥٨
(٤) المصدر نفسه ص ٢١١ـ٢١٨ (٥) الخازن ٣ : ٥١

اليهم . وقد اراد البطريرك من ذلك حفظ كيان الموارنة وعدم التهاون فى « ضياع » بعضهم بتنقلهم الى هذه الطائفة الجديدة ـ خاصة وان البطريرك كان يعمل ، فى ذلك الوقت ، لان يبسط سيادة الموارنة فوق كل جبل لبنان (١) . وجارى الارثوذكس الموارنة فى هذا الاضطهاد ، فمنعوا رعاياهم من الاتصال بالمبشرين البروتستانت ، وقد خشوا ان يفقدهم انتشار البروتستانتية « الشعور القوي الذي يربطهم بالكنائس الشرقية الاخرى ويضعف وحدتهم » (٢) .

ولا حاجة بنا لان نطيل فى وصف الاضطهاد الذي لاقاه رواد البروتستانتية فى لبنان فى القرن الماضي من قبل الطوائف المسيحية الاخرى . ويكفينا بأن نشير على القارىء بمطالعة كتاب الدكتور جسب الخاص بهذا الموضوع .

* * *

ولم تظهر الطائفية المذهبية عند المسلمين فى لبنان الا متأخرة. وذلك ان الاسلام تأخر كثيرا قبل ان ينتشر فى لبنان.وكان الاسلام، لما اصبح واسع الانتشار فى لبنان فى القرن الثالث عشر ، قد تخلص من الكثير من المنازعات التي تغلغلت فى صفوف رجاله فى اوائل عهده .

ومع ان **الشيعة** يقولون انهم تشيعوا منذ ايام معاوية على يدي ابي ذر الغفاري فى اواسط القرن السابع للميلاد ، الا ان مصادر التاريخ لا تذكر شيئا عن قيام احتكاكات سنية شيعية قبل القرن الحادي عشر . فقد سكنت جماعات كبيرة من الشيعة لبنان فى ذلك القرن ؛ اذ استولى آل عمار على طرابلس وآل عاملة على الجنوب ، كما سكنت جماعات منهم بعلبك وبيروت وجبيل (٣) .

---

(١) خالدي وفروخ ص ١٣٧ (٢) المصدر نفسه ص ١٣٧

(٣) الزين ، مع التاريخ ، ص ٥٦

اشتد الصراع المذهبي بين السنيين والشيعيين فى ذلك القرن. واضطرت كل جماعة لان تخلق حولها جوا من الاساطير والادب الطائفي لتشيد بماضي الجماعة وتذكر الناس بمفاخرها . واتخذ الشيعيون لانفسهم لقب بني متوال ليردوا به على التحديات السنية. ولا يشمل هذا اللقب ، حتى اليوم ، الا شيعة لبنان ومن هاجر منهم الى فلسطين وسورية (١) .

وتاريخ المسلمين فى لبنان مليء بالخلافات بين هاتين الطائفتين. فعندما هاجم نابوليون سورية الطبيعية اغتنم الشيعيون الفرصة واضطهدوا السنيين والدروز فى جنوب لبنان واحتلوا عددا من قراهم (٢) . ثم تحالفوا مع الموارنة ضد الدروز والسنيين ، فى عهد الامير بشير الثاني ، وساعدوه على اعدائه من هاتين الطائفتين ، بحيث احسن اليهم وعفا عن اعدائه منهم (٣) . وتحالفوا ، كذلك ، مع العثمانيين، ضد السنيين والدروز، لما تظاهر العثمانيون بتخليهم عن هاتين الطائفتين ، اثر مذابح سنة ١٨٦٠ (٤) . ومن جهة اخرى كان اضطهاد السنيين لهم يشتد عليهم احيانا ، بحيث اضطر بعض الزعماء الشيعيين الى اكتساب الجنسية الايرانية ليجدوا من يحميهم ويدافع عنهم (٥) .

وسكن لبنان ، منذ نهاية القرن التاسع عدد من **النصيريين** الذين اضطهدتهم الدولة العباسية . وقدم لبنان لسكناه ايضا ، فى القرن العاشر ، جماعات من **القرامطة** المضطهدين فى العراق . واقاموا فى الشوف وكسروان (٦) . ولم يعش القرامطة والنصيريين مع السنيين والدروز والشيعة بسلام . فانتشرت الفتن المذهبية بينهم وتوالت المعارك والدسائس (٧).

ووفد على لبنان مذهب اسلامي جديد ، فى اوائل القرن الحادي عشر ، بواسطة رجل فارسي الاصل اسمه الدرزي. وكان

---

(١) المصدر نفسه ص ٤١ (٢) الترك ص ٤٢
(٣) شدياق ص ٤٥٩ ، ٤٧٠ (٤) ابو شقرا ١٣٤
(٥) الزين ، مع التاريخ ، ص٧٥-٧٧ (٦) ابو اسماعيل ص ١٨٠-١٨١
(٧) كرد علي ٢ : ٤

الدرزي قد اوجد للخليفة الفاطمي فى مصر ، الحاكم ، مذهبا جديدا ، بمساعدة فارسي آخر اسمه حمزة . وقبل الحاكم بتزعم هـذا المذهب ، وارسل الدرزي داعية له فى لبنان ، ذلك البلد الجبلي المشهور بأقلياته وبسهولة اقتناع سكانه بالتعاليم الدينية الجديدة ، كما يقول صاحب النجوم الزاهرة (١) .

لبى دعوة الدرزي عدد لا بأس به من ابناء منطقة وادي التيم فى لبنان . وكان معظمهم من الاقليات المضطهدة التي كانت تنتظر دعوة تلتف حولها وتنتظم فى صفوفها لتشكل جماعة كبيرة قادرة على مجابهة المذاهب الاسلامية الاخرى . ومع ان علماء التـاريخ يختلفون فى اصل هذه الاقليات التي اعلنت « درزيتها » — فمنهم من يدعي انها سـامرية او حثية او اشـورية او قرمطية . . . — يقرب راي الدكتور حتي من الصواب كثيرا حينما يكشف عن علاقة هذه الجماعة بفرس لبنان ، ويتحرى الاثر الفارسي فى العـائلات الدرزية الكبيرة ، مثل آل ارسلان وتنوخ وتلحوق وعبد الملك وعماد وجنبلاط (٢) .

وتختلف الدعوة **الدرزية** عن معظم المذاهب الدينية الاخرى بأنها ليست مفتوحة الابواب لدخول من يشاء من الناس . فقـد اغلق باب الانتساب منذ وفاة بهاء الدين ، مفكر الدروز الاكبر ، سنة ١٠٣١ م. وكانت الدرزية حينذاك قد انتشرت من اسفل جبل حرمون الى القسم الجنوبي من لبنان الغربي . وتزعم آل تنـوخ وارسلان المذهب الجديد ، ثم خلفهم آل معن سنة ١١٥٠ حتى نهاية القرن السابع عشر حينما آلت السيادة الى الشهابيين .

ولم يرض السنيون عن انتشار هذا المذهب الجديد ، الذي اعتبروه مغايرا لاصول الدين الاسلامي . لذلك اضطهدوا اتبـاعه ولاحقوهم فى مناسبات كثيرة . وكان صالح بن مرداس يتولى حملة الاضطهاد الاولى . ثم قام السنيون بحملة اخرى ضد الدروز ، فى حـكم المماليك الذين عادوا الدروز . وانتقم الدروز من السنيـين

---

(١) ابن تغري بردي ج ٢ قسم ٢ ص ٧٠

(٢) Hitti, History of Syria ص ٢٢

اللبنـــانيين والمماليك بأن انحازوا الى المغــول الذين هاجموا دولة المماليك (١) .

ومن الطريف ان يبدأ الدروز تاريخهم السياسي فى لبنـــــان بنشوب صراع طائفي مذهبي فيما بينهم . فبعد ان وضع الدرزي دعائم دعوته ، اعلن حمزه بن علي الحرب عليه ، لانه خالف اصـــول الدعوة ، ولم يعط الحاكم المقام الذي يستحقه . وتمكن حمزة من تأليب دروز لبنان على الدرزي وقتله . فاشتد الخلاف بين الفريقين مدة طويلة ، وكانا يتراشقان بالتهم والاشاعات القاسية ، عندما تفتر عزيمتهما من الحروب والمعارك الحقيقية (٢) .

---

(١) صالح بن يحيى ٤٨ ــ ٥١
(٢) الاســود ص ١١٦

الفصل الرابع

الطائفية الجامعة

لن يسهل على باحث موضوع الطائفية فى لبنان تمييز طائفية العصر الاسلامي المركزي ـ ايام الخلفاء الراشدين والعباسيين الاوائل ـ عن المفاهيم الطائفية الاخرى فى تاريخ لبنان . فقد كانت طائفية هذا العصر جامعة لمعظم تلك المفاهيم ، التي سبقتها والتي لحقتها . اذ تجددت طائفية ما قبل المسيح ، الاقليمية الطابع ، فى عصور الاسلام الاولى ، بشكل النزاع القومي ، الديني ـ الاقليمي ـ القومي، الذي نشب بين ابناء البلاد السورية، المسيحيين ، والفاتحين الجدد ، المسلمين . وتجددت طائفية القرون المسيحية الاولى ، المذهبية الطابع ، فى العصور الاسلامية ، لتنطلق من ميدان التناحر المذهبي المسيحي ، والتناحر المذهبي الاسلامي ، الى تناحر مذهبي مسيحي اسلامي ، برعاية رؤساء المذاهب وكهنتها وشيوخها . كما شهدت هذه الفترة المراحل الاولى من الصراع الطائفي الاقطاعي الطابع ، والصراع الطائفي الاستعماري الطابع ـ وهما صراعا المرحلتين الرابعة والخامسة من تاريخ الطائفية اللبنانية . ويعني هذا الجمع بين مختلف المفاهيم ان طائفية هذا العصر كانت طائفية مستقلة بحد ذاتها ، جامعة الطابع للمفاهيم الاقليمية والمذهبية والاقطاعية والسياسية الاستعمارية .

عقد ابو بكر الصديق الوية الفتح الاسلامي لقواد الجيوش العربية ، سنة ٦٣٣ . وخلال سنة واحدة من الحرب تمكن اربعة من هؤلاء من احتلال فلسطين وطرد البيزنطيين . وانتقلت سورية الطبيعية ، بكاملها ، الى ايدي المسلمين ، فى السنتين التاليتين . وكان شرحبيل بن حسنة ، احد قادة العرب ، قد تمكن من فتح عكا وصور

على الساحل السوري (١) . ثم لحقه يزيد ومعاوية ، ابنا ابي سفيان ، وفتحا صيدا وبيروت وجبيل وعرقه ، فتحا يسيرا كما يقول البلاذري (٢) . واجلى معاوية اهل هذه المدن ، المسيحيين ، وطردهم من الساحل ، خشية ان يساعدوا البيزنطيين ، اخوانهم فى المذهب (٣) . وقد صدق ظنه ، اذ ان البيزنطيين الذين هربوا من داخل سورية وجدوا الساحل اللبناني بابا سهل العبور الى سورية من جديد . فارسلوا اسطولهم واستعادوا احتلال مدن الساحل ، فى الايام الاخيرة لخلافة عمر بن الخطاب . فقاد معاوية حملة كبيرة ضدهم ، بنفسه . وتم له فتح الساحل مرة اخرى . وعمل على ترميم الموانىء ، واقامة الجنود المسلمين مكان المسيحيين المنفيين .

وكان معاوية قد تعين واليا على سورية ، بعد وفاة اخيه يزيد. فألف فرقة عربية ، وارسلها الى طرابلس لمحاولة فتحها . الا ان الطرابلسيين ، ومعظمهم من المسيحيين ، طلبوا معونة البيزنطيين ، فلبى البيزنطيون دعوتهم ، وامدوهم بالسفن والذخيرة . ولكن المدينة لم تستطع الصمود طويلا . وهرب المسيحيون منها ، قبل فتح الابواب امام المسلمين ، الى اسيا الصغرى ، على ظهر السفن البيزنطية . ولما دخل معاوية المدينة امر باسكان الجنود المسلمين والاهالي اليهود فيها ، حتى لا يقوى امر المسيحيين مرة اخرى(٤).

الا ان هذه المراقبة لم تمنع سكان طرابلس المسيحيين من اعلان الثورة على معاوية سنة ٦٥٣ . ففي تلك السنة اعد مسلمو المدينة انفسهم للقيام بهجوم شامل على مدينة القسطنطينية ، تحقيقا لاوامر معاوية . فاغتنم المسيحيون الفرصة وقاموا بثورة طائفية سياسية ، وقتلوا عامل المدينة وحاميتها ، وحرقوا السفن المجهزة للحملة ، وافرجوا عن الاسرى البيزنطيين فى المعتقلات العربية . ولكن معاوية ارسل جيشه وتعقب الثائرين الذين هربوا

---

(١) البلاذري ١١٦
(٢) المصدر نفسه ١٢٦
(٣) المصدر نفسه ١٢٦
(٤) المصدر نفسه ١٢٧

بحرا الى اسيا الصغرى . وانضم الناجون الى الجيش البيزنطي ، والى حرس الامبراطور الخاص (١) .

وقد اظهر معاوية اهتماما خاصا بالساحل اللبناني لاستراتيجية مركزه . فاهتم بحراسته ، وبترميم موانئه ، وبتأسيس اسطول اسلامي يتولى صد الهجمات البيزنطية عنه (٢) . وكان هذا البرنامج داعيا لتحريم المسيحيين من الاقامة فى الساحل، الا اذا دعت الحاجة اليهم . وسكن المسلمون مكانهم ، بحيث « انتقلوا الى السواحل من كل ناحية » كما قال البلاذري(٣) . ونقل معاوية ، سنة ٦٦٣ ، جماعات من الفرس الذين كانوا يسكنون بعلبك وحمص وانطاكية ، الى السواحل السورية ، وخاصة عكا وصور — وكان بينهم مسلمون ومجوس . وعهد اليهم بترميم الموانىء ، ومساعدة الجنود المسلمين فى جعل المنطقة اسلامية الطابع . وبعد ان تزعمت عكا الساحل مدة تقرب من نصف قرن، آلت الزعامة الى صور ، فى عهد هشام بن عبد الملك (٤) . وكان معاوية قد نقل الى صور ، سنة ٦٧٠ ، عددا من زط العراق وعمال السبخ فيه (٥) . اما المسيحيون فى تلك المنطقة فهاجروا الى اسيا الصغرى هربا من الضغط الاسلامي ، مثلما هاجر بنو اياد وغسان من قبل(٦). وكان السوريون المسيحيون الذين آزروا هرقل قد انسحبوا معه لما احتل العرب سورية الطبيعية (٧) .

وبالرغم من النفور الذي كان ناشبا بين البيزنطيين وبعض طوائف سورية المسيحية ، لم يكن المسيحيون راضين عن الفتح الاسلامي ، لاسباب دينية وسياسية وقومية . وعلينا الا نستغرب تخوف مسيحيي ذلك العصر من الغزو الاسلامي، اذ انهم ادركوا انهم

---

(١) روى المؤرخ توافان هذه الحادثة (الدبس ٥ : ١٧) . اما البلاذري (ص ١٢٧) فيقول انها كانت فى عهد عبد الملك بن مروان .

(٢) يجد القارىء تفاصيل سياسة معاوية البحرية فى كتاب المؤلف « الاسطول الحربي الاموي فى البحر المتوسط ».

(٣) البلاذري ص ١٢٨

(٤) المصدر نفسه ١١٧—١١٨

(٥) المصدر نفسه ١٦٢

(٦) نولدكه ٣٤

(٧) الطبري ص ٢٣٤٧

سيصبحون اقلية طائفية فى اغلبية اسلامية ، بحيث قد تصبح حقوقهم ، ان لم نقل حياتهم ، معرضة للخطر ، بين آن وآخر . ولا بد لمثل هذا الخوف من ان يؤدي الى توتر نفسي يضيف الى نار التعصب الطائفي وقودا جديدة . وقد كان القلق ، فى معظم مراحل الطائفية ، من الاسباب الرئيسية لتفشي الطائفية ، فى لبنان.

اعتمد البيزنطيون ، بسبب هذا القلق عند المسيحيين ، على مساعدتهم فى حروبهم مع المسلمين . ومن اشهر القبائل العربية فى سورية التي اسهمت فى مقاومة العرب المسلمين بهراد وكلب وسليح وتنوخ ولخم وجذام وغسان (١) . فقد اعتبر البيزنطيون الحرب صراعا دينيا ، وحرضوا المسيحيين على هذا الاساس . وكان رجال الدين المسيحيين يقودون المتحاربين ويشجعونهم (٢) . واشترك المسيحيون اشتراكا فعالا فى معركتي دومة الجندل واليرموك (٣) . وخذلت بعض القبائل المسيحية المسلمين ، بالرغم من انضمامها اليها بادىء الامر (٤) . وروى المؤرخ السمعاني ، استنادا الى احد المصادر السريانية القديمة ، ان امراء لبنان المسيحيين ، يوسف وكسرى والياس ، اعلنوا الحرب على المسلمين بضراوة (٥) .

* * *

ويجدر بنا ، قبل ان نبدأ فى دراسة التاريخ الطائفي للعصرين الاموي والعباسي ، ان نبحث فى علاقة المسلمين بالمسيحيين فى الدول الاسلامية ، بوجه عام . وقد اهمل باحثو موضوع الطائفية هذه العلاقات لتأثرهم بمفهوم « التسوية » الذي يسيطر على العقول . فقد اضطرهم هذا المفهوم ، الطائفي بحد ذاته ، الى الاعتقاد ، والادعاء ، بان العلاقات الاسلامية المسيحية كانت علاقات ممتازة ، خارج لبنان وداخله . وان الخلاف الذي وجد فيما بعد لم يكن اختلافا اصيلا ، بل جاء مع الاجانب .

---

(١) المصدر نفسه ٢٠٨١ ، ٢١٢٥–٢١٢٦

(٢) المصدر نفسه ٢٠٨٩–٢٠٩١

(٣) المصدر نفسه ٢٣٤٧ ؛ البلاذري ١٣٥

(٤) الطبري ص ٢٣٤٧ (٥) الدبس ٥ : ١١٢

الا ان الواقع والتاريخ يفرض علينا ان نعترف بأن **الفتح الاسلامي ، مهما تجلت فيه الرحمة بالضعفاء والعفة عن الانتقام ، لم يخل من اعمال قاسية اوجدت فى مسيحيي البلاد ، بتضافر العوامل الاخرى ، الخوف من هذا الفتح والعداء لرجاله . والشرع الاسلامي ، على ما فيه من حث على الرأفة باهل الذمة ووجوب حمايتهم ، لم يعط هؤلاء السكان الحقوق التي تعترف لهم بها النظم الديموقراطية العلمانية الحديثة . ومهما وُجد بين الخلفاء المسلمين، الراشدين والامويين والعباسيين والفاطميين والعثمانيين ، من منصفين وعادلين ، لم يخل تاريخ الاسلام من خلفاء قساة متعصبين متحيزين .**

لقد ادرك الراي العام المسيحي هذا ، وادركته معه فئات اخرى ، مسيحية ، لم ترض عن وجود جو مسالم بين ابناء الدينين، فاغتنمت الفرصة ونفذت من ثغرات هذا الاضطهاد الى عقول الراي العام الساذج وحرضته على اثارة عصبية مسيحية تقف فى وجه العصبية الاسلامية . وكان بين هذه الفئات المحرضة البيزنطيون والصليبيون ورجال الدين والاقطاعيون ، الذين استغلوا الطائفية لمصالحهم الخاصة .

فقد عُرف الخليفة **عمر بن الخطاب** بالقسوة على المسيحيين. فهو اول من وضع اهل الذمة فى مرتبة حقوقية ادنى من المسلمين. وروى ابن عبد الحكم ان عمر كتب « ان يختم فى رقاب اهل الذمة بالرصاص ويظهروا مناطقهم ويجزوا نواصيهم ويركبوا على الاكف عرضا ولا يضربوا الجزية الا على من جرت عليه المواس ولا يضربوا على النساء ولا على الولدان ، ولا يدعوهم يتشبهون بالمسلمين فى لبوسهم » (١) . وطرد عمر جمع المسيحيين واليهود من شبه الجزيرة العربية ، بناء على الحديث النبوي « لا يجتمع دينان فى بلاد العرب » . واعتبر عمر المسيحيين فى شبه الجزيرة مثل مسيحيي البلاد المفتوحة ، ولم يسمح بتخفيف الضرائب عنهم(٢).

(١) فتوح مصر ١٥١

(٢) ترتون ص ٩٣

ورفض اعطاءهم الوظائف ، بالرغم من حاجته الى خبرتهم . وحرم عليهم وضع الصلبان على الكنائس (١) .

ولم يكن عهدا عمر الى اهل القدس وحمص ، اللذان يرويهما الطبري والبلاذري ، قاسيين (٢) . الا ان ابن عساكر يورد نصوص تعهدات اخرى ، فى غاية الشدة . وسنكتفي بايراد بعض مقاطع هذين العهدين . واولهما كان على شكل كتاب تعهد المسيحيون فيه بتلبية اوامر عمر التي اصدرها لهم : « انكم لما قدمتم علينا سألناكم الامان لانفسنا واهلينا واموالنا واهل ملتنا ، على ان نؤدي الجزية عن يد ونحن صاغرون ، وعلى الا نمنع احدا من المسلمين ان ينزل كنائسنا فى الليل والنهار ، وان نضيفهم منها ثلاثا ، ونطعمهم الطعام ، ونوسع لهم ابوابها ، ولا نضرب فيها بالنواقيس الا ضربا خفيفا ، ولا نرفع فيها اصواتنا بالقراءة . ولا نؤدي فيها ولا فى شيء من منازلنا جاسوسا لعدوكم ، ولا نحدث كنيسة ولا ديرا ولا صومعة ولا قلاية ، ولا نجدد ما ضرب منها ، ولا نقصد الاجتماع فيما كان منها فى خطط المسلمين بين ظهرانيهم، ولا نظهر شركا ولا ندعو اليه ، ولا نظهر صليبا على كنائسنا ولا فى شيء من طرق المسلمين واسواقهم ، ولا نتعلم القرآن ، ولا نعلمه اولادنا ، ولا نمنع احدا من ذوي قربانا من الدخول فى الاسلام اذا اراد ذلك ، وان نجز مقاوم رؤوسنا ، ونشد الزنانير فى اوساطنا ، ونلزم ديننا ، ولا نتشبه بالمسلمين فى لباسهم ولا فى هيئتهم ولا فى سلوكهم ولا فى نقش خواتيمهم فننقشها نقشا عربيا ، ولا نكتني بكناهم ، وعلينا ان نعظمهم ونوقرهم ونقوم لهم من مجالسنا ونرشدهم فى سبلهم وطرقاتهم ولا نطلع فى منازلهم ، ولا نتخذ سلاحا ولا سيفا ، ولا نحمله فى حضر ولا سفر فى ارض المسلمين ، ولا نبيع خمرا ولا نظهرها ولا نظهر نارا على موتانا فى طريق المسلمين ، ولا نرفع اصواتنا فى جنائزهم ، ولا نجاور المسلمين بهم ، ولا نضرب احدا من المسلمين ، ولا نتخذ من الرقيق ما جرت عليه سهامهم . . . » (٣)

---

(١) ابن قتيبة ١ : ٤٣ (٢) الطبري ١ : ٢٤٠٥ ؛ البلاذري ١٣١
(٣) ابن عساكر ١ : ١٧٨

ولا يختلف التعهد الثاني الذي ارسله اهل دمشق الى ابي عبيد ، الوالي على المدينة ، تطبيقا لاوامر عمر ، عن التعهد الاول . ومن جملة العهود التي وعد السيحيون بتحقيقها فى هذا الكتاب ، الى جانب التي تعهدوا بها فى الكتاب الاول ، الامتناع عن كثير من الامور ، منها عن الاحتفال بعيد الشعانين ، وعن وضع الخنازير فى مناطق اسلامية ، وعن التبشير بالمسيحية ، وعن لبس قلنسوات وعمائم ونعال شبيهة بلباس المسلمين ، وعن الركوب على سروج الخيول ، وعن مشاركة المسلمين فى عمل الا اذا كان للمسلمين المراقبة (١) .

وعرف المسيحيون عددا من الخلفاء الذين طبقوا القسوة التي بشر بها عمر . **فعلي بن ابي طالب** قال « لا يقتل مؤمن بكافر » مع ان الاسلام اباح قتل المسلم الذي يغتال مسيحيا بريئا (٢) . وامر **عمر بن عبد العزيز** بحرق بعض رجال الدين . وسمح باستباحة الاديرة والراهبات . وامر برفض قبول شهادة الذمي ضد المسلم (٣) ومنع المسيحيات من الذهاب الى الحمامات (٤) . ومنع المسلمين من استخدام المسيحيين فى الوظائف . وحرض المسيحيين على المهاجرة من الامبراطورية الاسلامية الى الخارج (٥) . وأصر **هارون الرشيد** على هدم الكنائس التي بنيت بعد الفتح الاسلامي ، وعلى لبس المسيحيين لباسا خاصا . وبلغ الاضطهاد فى زمن **المتوكل** اقصاه . فأمر الذميين « بلبس الطيالسة العسلية والزنانير وركوب السروج بركب الخشب وبتصيير كرتين على مؤخر السروج وبتصيير زرين على قلانس من لبس منهم قلنسوة مخالفة لون القلنسوة التي يلبسها المسلمون وبتصيير رقعتين على ما ظهر من لباس مماليكهم فخالف لونها لون الثوب الظاهر الذي عليه .. ومن خرج من نسائهم فبرزت ، فلا تبرز الا فى ازار عسلي .. وأمر بهدم بيعهم وبأخذ العشر من منازلهم وان كان الموضع واسعا صيّر مسجدا

---

(١) المصدر نفسه ١٤٩ (٢) ترتون ص ١٩٢
(٣) المصدر نفسه ١٤٩–١٦٦ ؛ ٢٠٠ (٤) الكندي ص ٦٩
(٥) المصدر نفسه ٦٠ ؛ ابن عبد الحكم ، سيرة عمر ١٦٥

وان كان لا يصلح لان يكون مسجدا صير فضاء ، وامر ان يجعل على ابواب دورهم صور شياطين من خشب مسمورة تفريقا بين منازلهم وبين منازل المسلمين . ونهى ان يستعان بهم فى الدواوين واعمال السلطان التي يجري احكامهم فيها على المسلمين ونهى ان يتعلم اولادهم فى كتاتيب المسلمين ولا يعلمهم مسلم ونهى ان يظهروا فى شعانينهم وان يشمعلوا فى الطريق وامر بتسوية قبورهم مع الارض لئلا تشبه قبور المسلمين » (١) ووجد بين المسيحيين من لم يتحمل هذا الاضطهاد فثار عليه بشدة . وآخرون اعلنوا اسلامهم حتى ينجوا من العذاب .

ويروي يحيى بن سعيد الانطاكي ان **الحاكم** ، احد الخلفاء الفاطميين فى مصر ، امر باعتقال موظفي المسيحيين وبهدم كنائسهم وبناء المساجد مكانها ، وبالباسهم الزنانير والعمائم السود ، وبمنعهم من اجراء الاحتفالات الدينية ، وبنهب قبورهم وهدمها ، وقتل بعض كهنتهم . وارغمت هذه الاعمال بعضا منهم اما الى اعلان الاسلام او الهرب الى خارج المملكة الفاطمية (٢) .

والى جانب هذه الاضطهادات الكبرى واجه المسيحيون حالات اخرى كثيرة من قسوة المسلمين . فعمرو بن العاص وعبد الملك بن مروان والمأمون والمقتدر منعوا المسيحيين عن الوظائف . ومروان والرشيد والامين والمأمون والمماليك امروا بنهب الكنائس والاديرة وحرقها او هدمها . ومن الخلفاء والعمال من هدم المقابر والتماثيل والصلبان ومنع الشعائر الدينية . ومنهم من حرم استعمال النواقيس والترانيم والصلبان واظهار الكتب الدينية . واحتقر ابن طولون الكنائس واعتبرها بيوت رجس . وكان ابنه خمارويه يهزأ بصورة العذراء ويستهتر بها (٣) .

وكانت الضرائب ترتفع وتنخفض حسب شراهة الخليفة او العامل ، او قناعته . وكثيرا ما كانت تشمل الرهبان والاديرة

---

(١) الطبري ٣ : ١٣٩٠ (٢) الانطاكي ٤٦٥-٥٢٠
(٣) ترتون ٢٥-٢٧ ، ٣٩-٥٦ ؛ الزيات ، الصليب ٣٩-٤١ ؛ الزيات ، الديارات ١٧

والنساء والاطفال . وكانت القوة تستعمل فى الجبي . وكان المبلغ يزداد لاقل وشاية . ومن المسؤولين من اباح السلب والنهب انتقاما. وامر بعض الخلفاء ، لتسهيل امر جمع الضرائب ، بختم المسيحيين بخاتم خاص . فختم فى عهد عمر بن الخطاب حوالي ١٥٠ الف مسيحي عراقي . وختم عمرو بن العاص مسيحيي مصر . ووضع سليمان بن عبد الملك الحلقات الحديدية فى ايدي الرهبان . وامر اخوة هشام برسم صورة الاسد على جسم كل مسيحي بالغ (١) .

ولم يخل تاريخ هذا الاضطهاد من حالات ارغام على الاسلام بالقوة . فقد فعل ذلك عبد الملك بن مروان وابنه الوليد من بعده. وامر الخليفة المهدي ، العباسي ، آل تنوخ باعتناق الاسلام . اما المسلم الذي يتنصر فكان يلاقي اضطهادا كبيرا (٢) .

وكان التشريع الاسلامي نفسه قاسيا على المسيحيين . فقد منع الشرع زواج المسلمة من غير المسلم . ولزوج الذمي التي تسلم حق الطلاق والنفقة لاولادها . ومنع الشرع المسلمة من كشف جسمها للذمية . ومنع المسلم من الوثوق فى الذمي ان اشتركا فى تجارة . ومنع الذمي من احياء ارض موات . ومنع المسلم من الاقتراض من الذمي حتى لا يصبح تحت رحمته . ومنع من شراء الخمر من ذمي . ومنع الذمي من وراثة مسلما . والقضاء للشرع الاسلامي ان نشب خلاف بين مسلم وذمي (٣) .

* * *

كانت ثورة المردة اكبر ثورات لبنان المسيحية ضد المسلمين. والمردة جماعة يختلف المؤرخون فى تعيين اصلهم . اما علماء الموارنة امثال السمعاني والدويهي والدبس ، فيوحدونهم مع الموارنة ، سكان جبل لبنان . ويقولون انهم ثاروا على المسلمين لما شعروا باضطهاد

---

(١) ترتون ١٣٢–١٤٨
(٢) المصدر نفسه ٩٤–٩٥ ؛ البلاذري ١٤٥ ؛ Hitti, History of Syria ٥٤٤
(٣) (ترتون) ٢٠٢–٢٠٨ ؛ Hitti, History of Syria ٥٤٤

المسلمين لهم ومعاملتهم السيئة وضرائبهم العالية . واما مؤرخو العرب القدماء ومن نقل عنهم من المحدثين مثل حتي ولامنس والكرملي ، فيؤكدون ان المردة ليسوا الموارنة ، بل هم قبائل الجراجمة الذين كانوا يسكنون جبال اللكام (الامانوس) وطورس ، في شمال سورية ، حول مدينة جرجومة ، عاصمتهم . ويعتقدون ان البيزنطيين ارسلوهم الى لبنان لاثارة الفتن ضد الامويين . ولهذا أطلق عليهم اسم مردة ، ومعناها «المقاومون» (١) .

كان المردة ، بادىء الامر ، شعبا مسالما . فاعلنوا ولاءهم للمسلمين لما فتحوا سورية ، وعرضوا عليهم خدماتهم ، وتعهدوا بحراسة طرق المواصلات (٢) . ولكنهم نقضوا وعودهم سنة ٦٦٦ وتعاونوا مع البيزنطيين . وحرضهم الامبراطور قسطنطين الرابع ، المعروف باللحياني ، على دخول لبنان لمناهضة حكامه المسلمين . فتوجهوا جنوبا ، برا وبحرا ، بحماية البيزنطيين ، وسيطروا على المناطق الجبلية في لبنان ، الى جانب جبلي الاقرع والقدس ، وما بينهما . وانحازت اليهم جماعات سورية كثيرة ، من عبيد واسرى ومسيحيين ثائرين (٣) . واتخذ المردة من جبل لبنان مركزا لاعمالهم وراحوا يغيرون منه على القوافل وطرق المواصلات ويهددون الحاميات الاموية . وكانت طريقتهم في الاغارة والهجوم مضرب المثل ، لشدتها وقسوتها وجراتها . واصبح الناس ان ارادوا وصف جراة جماعة قالوا انهم مردة (٤) ! واضطر معاوية وقد كان منهمكا في تثبيت دعائم عرشه ، الى طلب الصلح من البيزنطيين ، متعهدا بدفع غرامة مالية كبيرة . فرضي الامبراطور قسطنطين وارسل وفدا بيزنطيا لمباحثة معاوية ، برئاسة البطريرك يوحنا . وقبل معاوية بدفع ثلاثة الاف قطعة ذهب في السنة ، واطلاق سراح

---

(١) البلاذري ١٥٩ . ويقول الدينوري (١٢٣) ان «مرد» تعني رجلا . ويقول دريان (٥٠) ان توافان هو اول من اطلق على المردة هذا الاسم ، وان احدى قبائل البانيا لا تزال تعرف بهذا الاسم . اما الدبس (٥ : ١١٨) فقد نفى علاقة مردة البانيا بمردة لبنان .

(٢) البلاذري ١٥٩

(٣) توفان ، في الدبس ٥ : ١٠٥

(٤) المصدر نفسه ٢١٧

ثمانية الاف اسير ، وخمسين جوادا ، لمدة ثلاثين سنة (١) لـكن هذه الاتفاقية لم تمنع معاوية من اتخاذ الحذر من المردة ، فحصن المراكز الامامية واحضر الزط من العراق ليسكنوها ، اتقاء لهجمات المـردة .

وتروي المصادر الرئيسية التي تمدنا باخبار المردة ان زعيمهم كان اسمه ابراهيم ، وهو الذي قادهم ضد المسلمين ، وهو نفسه ابراهيم ، ابن اخت يوحنا مارون ، حسب راي توفان البيزنطي (٢) . ثم خلفه اخوه يوحنا بعد وفاته . وسمع يوحنا بنبأ موت مروان ابن الحكم وولاية ابنه عبد الملك ، وثورة ابن الزبير عليه . لذلك جمع رجاله وسار بهم لمقاتلة الامويين مرة اخرى . وليس غريبا ان يكون البيزنطيون هم الذين شجعوه على ذلك . فاضـطر عبد الملك ، سنة ٦٩٠ ، الى مصالحة البيزنطيين ، تشبها بمعاوية من قبله . وكان قسطنطين قد توفي ، وخلفه ابنه جوستنيان الثاني ، الذي عرف فيما بعد بالاخرم ، وهو فى السادسة عشر من عمره . فلما اتاه وفد عبد الملك لطلب الصلح ، عارضا الف دينار فى الاسبوع ، واسيرا وجوادا كل يوم ، الى جانب نصف خراج قبرص وارمينيا وايبيريا ، قبل هذه التعهدات المغرية ، وامر بوقف تعديات المردة (٣) .

ولكن المردة كانوا « ملكيين » اكثر من « الملك » نفســه ، فرفضوا الخضوع لاوامره ، وتابعوا القتال . واعلن يوحنــا انه سيواصل قيــادته للمردة ، حتى ولو قطعــت الدولة البيزنطية معونتها له . وكانت حجته ان تقلبات الطقس تمنعه من الانسحاب الى اسيا الصغرى ، ولذلك فهو مضطر للبقاء فى لبنان والدفاع عن نفسه . فغضب جوستنيان على هؤلاء العصاة ، وخشي ان يفقد بسببهم ما وعده به عبد الملك . وارسل فرقة بيزنطية الى لبنان لاخضاع المردة بالقوة . ولكن تلك الفرقة كانت اعجز من ان تقهر الثوار الذين قهروا الدولة الاموية القوية . فاعتمد قائد البيزنطيين على الحيلة ، اذ دعا يوحنا الى حفلة ، موهما اياه انه صديقه وانه

---

(١) المصدر نفسه ١٠٥-١١٠ (٢) الدويهي ، تاريخ الطائفة ٦٨
(٣) الدبس ٥ : ١٠٥ - ١١٠

اتى ليساعده ضد المسلمين ، ثم قتله وهو بين يديه (١) . وهجم الجنود البيزنطيون على المردة الذين ذعروا لقتل اميرهم فشتتوهم، واسروا حوالي اثني عشر الفا ، وقادوهم معهم الى اسيا الصغرى وارمينيا (٢) .

افاد عبد الملك الاموي من سحب القسم الاكبر من المردة من جبال دولته . فلما انتهى من اخضاع ثورة ابن الزبير ارسل جيشه بقيادة سحيم بن المهاجر ، لتعقب الباقين من المردة فى جبال لبنان ، الذين تجمعوا من جديد ، تحت امارة المقدم الياس ، للتعدي على المسلمين بين حين وآخر . وتمكن سحيم من استرجاع بعض العبيد المنضمين الى المردة ، ومن مطاردة بعضهم حتى حدود اسيا الصغرى . ولما اعلن عبد الملك الحرب ضد جوستنيان بسبب الخلاف على نقوش النقود وعلى خراج قبرص بينهما ، كان قد ارتاح من اي مساعدة ممكنة يقدمها لبنان لاعدائه (٣) .

وكان جوستنيان قد انحاز الى جماعة المؤمنين بالمشيئة الواحدة للمسيح . فارسل الى يوحنا مارون ، البطريرك على لبنان منذ ٦٨٦ ، يطلب اليه مجاراته فى هذا الايمان . فرفض يوحنا التنازل عن مقررات مؤتمر خلقيدونيا الشهير . وخوفا من بطش الملك ، هرب الى دير مارمارون ، على العاصي ، واعتصم به ، وارسل الى كهنة لبنان الموارنة يحذرهم من الامبراطور . فارسل الامبراطور القائد لاون للقبض عليه . الا ان لاون كان صديقا للبطريرك ، فلم يلب امر امبراطوره . فارسل جوستنيان قائدا اخر اسمه موريق على رأس جيش لجب . فاضطر البطريرك الى الهرب والاعتصام فى جبال لبنان . واعلن المردة ولاءهم له ، ونزلوا لمساعدته وحراسته بقيادة المقدم ابراهيم . ولما وصل الجيش البيزنطي ، واضطهد المسيحيين فى الساحل والكورة ، التف حوله

---

(١) يسمي بعض المؤرخين يوحنا الياس ، واليه ينسبون بلدة قب الياس . اما قرألي فيرجع ذلك الى القرن الحادي عشر (ابن القلاعي ص ٦ من المقدمة) .
(٢) بقي هؤلاء فى ارمينيا مدة طويلة . وجاء ذكرهم فى كتابات مؤرخي القرن العاشر (الدويهي ، تاريخ الطائفة ، ص ٧٢)
(٣) البلاذري ١٥٩ ، ٢٤٩

المردة وافنوه . وينقل الدويهي وصف احد المصادر القديمة الطريفة لهذا الانتصار « وباغتهم الابطال الصناديد (اي المردة) حتى امتلأت من عدهم ولمديدهم الاكام والبيد . واصطدم الجيشان وتقابل الفريقان . وجردت السيوف ودار على الفريقين كأس الخوف . وهمهمت الابطال فى حومة الميدان وزمجرت الشجعان فى موقع الطعان . وغلت الاحقاد فى الصدور غلي المراجل وحصدت السيوف سيل الرؤوس حصد المناجل . ونادى حمى القوم يا للثارات وفرق الكمى صفوف الغارات . فما كنت ترى الا راسا طائرا ودما فائرا وجوادا غائرا وشجاعا زائرا وقد ضرب قسطل الحرب عليهم من الغبار رواقا ونصب عثير الطراد على رؤوسهم سرداقا . وما زالوا فى مقابلة ومؤاتية ومخاصمة ومناصبة الى ان تنكست اعلام الروم وطلبوا الهزيمة ورأوا الفرار من امام اعدائهم اوفر غنيمة » (١) .

وكانت هذه المعركة السبب الرئيسي فى الانقسام بين السريان والموارنة ، اذ ظل السريان موالين للبيزنطيين، بينما عاداهم الموارنة. وكانت ، من ناحية اخرى ، الخطوة الاولى فى ائتلاف المردة مع الموارنة .

وتحسنت العلاقات بين الموارنة والمسلمين بعد هذا الخلاف الماروني ـ البيزنطي . فاحترم معظم الخلفاء شبه الاستقلال الذي كان لبنان ينعم به ـ وكان المسلمون يدركون صعوبة اخضاع لبنان بالقوة ووعورة المواصلات فيه. وبقي معظم ولاة الجبل من المسيحيين لمدة خمسة قرون . وحافظ السكان على تقاليدهم وعاداتهم .

الا ان هذه الصداقة لم تحل دون قيام بعض المنازعات السياسية الطائفية . ففي سنة ٦٩٦ اصبح طيباريوس امبراطورا على بيزنطية ، بعد خلع جوستنيان ونفيه . وارسل طيباريوس هذا يخلع على امير جبل لبنان الالقاب والهدايا ، ويطلب مؤازرته

---

(١) الدويهي ، تاريخ الطائفة ٨١

ضد العرب . فاعلن المردة ثورتهم من جديد . وكافأهم الامبراطور بأن عيَّن ثلاثة من امرائهم فى عداد حاشيته (١) .

ثم ثار الموارنة فى خلافة الوليد بن عبد الملك . وحاربهم اخوه مسلمة مدة ، ولكنه اكتشف شدة بأسهم ، فتعهد بدفع معاش سنوي لهم ، ومنحهم ما يحتاجونه من الميرة ، وعفاهم من الجزية ، وساواهم مع المسلمين ، وسمح لهم بالمحافظة على تقاليدهم ودينهم ـ كل ذلك مقابل خضوعهم له ، ومساعدته ضد البيزنطيين . ووافق صغار الموارنة والمردة على ذلك . اما البطريرك والامراء فرفضوا ، واضطروا الى الهرب الى اسيا الصغرى .

وجرت فى العهد العباسي المركزي عدة ثورات لبنانية مسيحية ضد الحكام المسلمين . وكانت اشهرها **ثورة المنيطرة** . وهذه الثورة سياسية طائفية اكثر مما كانت اقتصادية ـ بالرغم من ادعاء البلاذري بأنها كانت بسبب قسوة عامل الخراج . وكان شعار الثوار الصليب ، علامة مسيحيتهم . وقد تجمع الثوار ، سنة ٧٥٩ ، فى حصن المنيطرة المعروف فى منطقة كسروان . وهناك نظموا شؤونهم ، وانتخبوا رئيسا من بينهم وعينوه ملكا ، وساروا الى البقاع ، وهاجموا قراه وبعلبك قاعدته . وكان الاسطول البيزنطي فى مياه طرابلس يمدهم بالمساعدة . وعاثوا فى البقاع واخافوا المسلمين ، الى ان ارسل صالح بن علي ، والي الشام العباسي ، جيشه لاخضاعهم . ومع ان الجيش العباسي لم يتعرض لدينهم ، الا انه اجلى الكثيرين عن منازلهم وشتتهم فى مناطق لبنان النائية . وقد احتج الامام الاوزاعي ، المسلم السني ، على هذا الاضطهاد ، فى رسالة رفعها الى صالح بن علي ، يقول فيها « وقد كان من اجلاء اهل الذمة من جبل لبنان ممن لم يكن ممالئا لمن خرج على خروجه ممن قتلت بعضهم ورددت باقيهم الى قراهم ما قد علمت . فكيف تؤخذ عامة بذنوب خاصة حتى يَخرَجوا من ديارهم واموالهم وحكم الله تعالى ان لاتزر وازرة وزر اخرى » (٢) .

* * *

(١) المصدر نفسه ص ٩١ (٢) البلاذري ص ١٦٦٢

وكنا قد رأينا في اول هذا الفصل كيف وضع معاوية اسس خطة جديدة للتفرقة الطائفية السياسية ، بأن اجلى المسيحيين عن اماكنهم الحساسة ، الاستراتيجية او الخصبة ، ومنحها للمسلمين، العرب او الفرس ، ولليهود وغيرهم . ولما شعر العباسيون بأن الفتن المسيحية لا تزال تقض مضاجعهم ، مستغلة انشغال العباسيين بحروب كثيرة اخرى ، أحيوا خطة معاوية في الاجلاء مرة اخرى . وقام المنصور بأكبر عملية من هذا النوع . ففي سنة ٧٥٨ زار ذلك الخليفة العباسي مدينة دمشق . واتى **الامير المنذر بن مالك واخوه الامير ارسلان** لزيارته من المعرة في شمال سورية — وكان الاميران المذكوران يتزعمان قبائل لخم الساكنة في تلك البقاع منذ مدة طويلة . فاعجب المنصور بشجاعة هذين الاميرين ، وعرض عليهما فكرة الانتقال الى لبنان وسكناه ، لايجاد توازن في القوى بين المسيحيين والمسلمين . ولما قبل الاميران ذلك انعم المنصور عليهما باقطاعات واسعة من ارض لبنان ، واعطاهم الوثائق التي تثبت لهم هذه الملكية .

تركت تلك الجماعات سورية الشمالية غير آسفة ، لقحط المنطقة ومضايقة الشعب الموالي للامويين لهم . واتت الى وادي التيم وسكنته جاعلة سن الفيل عاصمتها . ثم انتقل السكان الجدد الى جبل المغيثة . ومنه انتشروا في انحاء متعددة من لبنان . وكانوا يقسمون الى اثنتي عشرة جماعة ، على كل منها مقدم . وسكنت كل جماعة منطقة خاصة بها ؛ وراحت تهاجم المسيحيين وتقتص منهم . وظل الامراء على صلة وثيقة مع العباسيين لاطلاعهم على سير هذه الاعمال ولنيل المكافآت . ولما زار المهدي بن منصور دمشق منحهم اقطاعات جديدة[1] . كما عهد الرشيد اليهم بسكنى الشواطىء لقطع اي اتصال بين اللبنانيين المسيحيين والاسطول البيزنطي[2] .

---

(١) الشدياق ٦٤٦ و٦٤٨ (٢) البلاذري ١٦٣

ذلك ان الموارنة لم يكتفوا بثورة المنيطرة ، بل واصلوا تعدياتهم ضد المسلمين بين حين وآخر . وبمجيء الارسلانيين وسكناهم الى جانبهم اصبح النزاع لبنانيا صرفا . فظل الارسلانيون اعداء الموارنة عدة قرون . وفي سنة ٨٧٥ اوكل المتوكل اليهم امر اضطهاد المسيحيين قدر المستطاع . فسار الارسلانيون ، بقيادة الامير نعمان حاكم بيروت ، لقتال المسيحيين على نهر بيروت . وجرت هناك مذابح هائلة ، ارسلت رؤوس القتلى فيها ، من المسيحيين ، الى موسى بن بغا ، وزير المتوكل ، ليعرضها على سيده فرد المتوكل يشجع المسلمين ويهنئهم ويكافئهم (١) .

وكان الامير هانيء ، من قبل نعمان بثلاثين سنة ، قد ذاع صيته بين الناس باضطهاده المسيحيين . واطلق اصحابه عليه لقب الغضنفر ابي الاهوال ، لكثرة من قتل من المسيحيين (٢) . كما اشتهر الارسلانيون بمعارك اخرى كثيرة ضد المسيحيين ؛ ومنها معركة انطلياس التي منع فيها المسيحيون من القدوم الى السواحل وارغموا على البقاء فى الجبال ؛ ومعركة نهر الموت التي سمي النهر بهذا الاسم لكثرة القتلى ؛ ومعركة سن الفيل التي تمكن فيها الامير مسعود من احراق عشرات القرى المسيحية ...(٣)

وتتابعت ، مع اللخميين ، هجرات القبائل التنوخية ، باشراف الرشيد والمتوكل . واسس التنوخيون لانفسهم عدة قرى ، مثل عين دارا وبعقلين وعين زحلتا . وانتشروا من منطقة الغرب الى باقي المناطق المجاورة . ووصلوا كسروان فى اوائل القرن التاسع (٤) وكان التنوخيون ينقسمون الى عدد من القبائل ، اهمها آل بحتر وابياللمع والفوارس وشويزان (٥) . والتنوخيون اعراب الاصل ،

---

(١) الدويهي ص ١٠٠
(٢) المصدر نفسه ٩٧ ؛ الشدياق ٦٥٢
(٣) الشدياق ٦٤٨ـ٦٥٠
(٤) المصدر نفسه ٢٢٤
(٥) المشرق سنة ٢٤ عدد ١ ص ٤٥

هاجروا الى سورية منذ القرن الثالث للميلاد . وكانوا يؤلفون جزءا من قبيلة قضاعة الكبيرة . وظلوا يسيطرون على القبائل العربية في سورية حتى قويت عليهم شوكة بني سليح ثم الغساسنة. ثم جاؤوا الى لبنان ، ايام العباسيين ، للاشتراك في محاربة المسيحيين وايجاد التوازن معهم ، بعد ان اعلنوا اسلامهم ايام المنصور (١) .

وهكذا نرى ان دخول المسلمين الى لبنان جاء على دفعات متعددة ، بدأ اولها ايام الامويين ، بشكل قليل جدا . وتزايد العدد ايام العباسيين ، في القرن التاسع . ولكن لبنان ظل ، بطابعه العام ، بلدا مسيحيا حتى القرن الثالث عشر . فمن بين الخمسة والعشرين الف جندي عربي الذين فتحوا سورية ، وبين المئة الف مسلم عربي الذين وجدوا في سورية الطبيعية في نهاية العصر الاموي ، لم يكن منهم الا القليلون في لبنان . **ولم يصبح للمسلمين كيان كبير في لبنان الا في عهد المماليك الذين انزلوا قبائل اسلامية جديدة لتحارب الصليبيين وتمنع اتصالهم مع المسيحيين** . وعندها فقط ظهرت الشعائر الاسلامية بشكل عام في لبنان (٢) اما اللخميون والتنوخيون فكانوا ، في القرون الاولى ، اقليات طائفية بالنسبة الى الاكثرية المارونية . هذا وقد سكن لبنان ، بالاضافة اليهم ، بعض القبائل الاخرى ، **مثل بني خزاعة** ، في بعلبك ، ايام معاوية (٣) ، **وبني تلحوق** ، ايام الفاطميين (٤) ، **وبني عاملة** ، الذين قدموا الى جنوب لبنان وسكنوا مع الوائليين الذين اتوا في القرن الثالث عشر (٥) .

وقدم لبنان ، في القرن الثاني عشر ، بعض الموجات العربية الاخرى . فأتى **المعنيون ،** بزعامة الامير معن الايوبي ، في الربع الاول من القرن الثاني عشر من العراق وشمال سورية . واسكنهم نور

---

(١) Hitti, History of Syria ص ٥٤٥ (٢) الدبس ٥ : ٢٩٢
(٣) هم اصل بني الحرفوش الذين سنتحدث عنهم فيما بعد
(٤) الشدياق ١٥٥ (٥) الزين ، مع التاريخ ، ٤٢-٥٩

الدين زنكي ، صديق العباسيين ، منطقة الشوف والبقاع وجبل لبنان ، واوكل اليهم امر محاربة الصليبيين والمسيحيين المتعاونين معهم . واعلن المعنيون تحالفهم ، فى هذا السبيل ، مع البحتريين (١) ثم نزح **الشهابيون** الى لبنان سنة ١١٦١ . فقد نشب نزاع بين نور الدين زنكي وصلاح الدين الايوبي . وخشي الشهابيون الذين كانوا يسكنون حوران منذ الفتح العربي ان يقعوا ضحية هذا النزاع لصداقتهم مع الطرفين ، فهاجروا الى وادي التيم . ولكي ينال الشهابيون رضى آل زنكي والايوبيين حاربوا الصليبيين وطردوهم من جبال لبنان ، واسسوا اقطاعات اسلامية هناك . ثم تصاهروا مع المعنيين وتحالفوا سياسيا معهم. وينتسب الشهابيون الى آل مخزوم ؛ وزعيمهم الاول شهاب بن عبد الله بن الحارث (٢).

وقد حافظ لبنان ، مدة طويلة ، على لغته الارامية ، بالرغم من الفتح العربي . فقد كان اللبنانيون متعصبين للغتهم الارامية اذ اعتبروها لغة المسيح . وصمدت مدة طويلة ، فى جبال لبنان ، امام تعديات اللغة اللاتينية والعبرانية . ومع ان سورية تنازلت عن اراميتها ، ظل لبنان متمسكا بها حتى القرن الثالث عشر ، حينما انتصرت العربية عليها بنزوح جماعات كبيرة من العرب المسلمين الى لبنان . الا ان السريانية ، التي هي احدى فروع الارامية ، واصلت بعض السيادة الجزئية فى جبل لبنان حتى القرن السابع عشر . وبقيت تستعمل فى الكنائس المارونية حتى القرن الثامن عشر . ولا تزال السريانية تستعمل حتى اليوم فى بعض القرى المسيحية ، مثل جباع ومعلولا وغيرهما (٣) .

وتؤلف هذه العصبية اللغوية ظاهرة طائفية ، اذ هي تشير الى خوف اللبنانيين من ذوبانهم الثقافي فى الجماعة الاسلامية ، وتمسكهم بلغتهم التي هي رمز عنصريتهم الطائفية .

* * *

---

(١) الدويهي ، تاريخ الطائفة ص ١٠٣
(٢) المصدر نفسه ١٠٤-١٠٨ ، الشدياق ٤٠-٤٦
(٣) Hitti, History of Syria ٤٨٤ ، ٥٤٦

وتحولت الطائفية المسيحية ضد الفاطميين ، بانتقال سيادة لبنان الى ايديهم ، من العباسيين . وبينما عامل الخلفاء الفاطميون الاوائل المسيحيين بالعدل ، انحاز سادسهم ، الحاكم ، عن هذا النهج ، وقسا على المسيحيين بمعاملته . **فثار اللبنانيون فى مدينة صور عليه ، بزعامة ملاح يدعى علاقة** « واجتمع اليه احداثها ورعاعها ، وضرب السكة باسمه ونقش عليها هكذا : عزاً بعد فاقة ، للامير علاقة . واستنجد بباسيل الملك (البيزنطي) وضمن له تسليم البلد اليه . فسير اليه بنجدة فى البحر وكان ابن حمدان وفائق الخادم البراز فى جماعة من العبيد مع اسطول تقدم من مصر محاصرين صور . وكانت جيوش الحاكم قد سارت الى دمشق مع جيش ابن محمد بن الصمصام للقاء الدمشقيين ، فعدلت الى صور وسار الدهتقين المتغلب على دمشق الى مصر متطوعا .. وفتحت صور بالسيف فى جمادي الاخر سنة ثمان وثمانين وثلاث مئة واخذ مركب من اسطول الروم وفيه مائتي نفس فقتلوا عن آخرهم واخذ علاقة اسيرا ونهبت المدينة وقتل وسبى جماعة من اهلها ممن كان قد اجتمع مع علاقة وحملوا الى مصر وكان وصولهم فى شعبان من السنة والشهر علاقه بمصر وسلخ وصلب بالموضع المعروف بالمنظر بين القاهرة ومصر وقتل المأسورون » (١) .

ثم ثار المسيحيون ثورة كبيرة اخرى بعد ثمانين سنة ، فى عهد شجاع الدولة سلطان دمشق . واستطاع السلاجقة اخضاع الثائرين والانتقام منهم (٢) .

* * *

وتشكل الحروب الصليبية وما كان لها من اثر فى الطائفية بلبنان ، الحلقة الاخيرة من هذه الطائفية الجامعة ، التي اختلطت فيها العصبيات الدينية بالسياسية والاقليمية والاقطاعية . ولم يكن من الغريب ان يتأثر المسيحيون فى لبنان بهذه الحروب ، وهي التي لم تقم الا تحت شعار الصليب وفي سبيله . ومهما كانت

---

(١) الانطاكي ٤٥٥ (٢) الدويهي ، تاريخ الازمنة ١٠١

العوامل الاقتصادية والسياسية والاقليمية والفردية ، وراء هذه الحروب ، مهمة ، يظل السبب الديني العامل الرئيسي .

انحاز المسيحيون فى لبنـان ، وخاصة الموارنة ، الى صف الصليبيين ، اثناء هجومهم على سورية الطبيعية ، ثم اثناء اقامتهم فيها ، واخيرا أثناء انسحابهم منها . اما المسلمون فى لبنان فأظهروا عداءهم للصليبيين . فقد اعتدى اهالي صور على الحملة الصليبية الاولى فى لبنـان . وثارت طرابلس وبيروت وصيـدا . واعتصم السكان المسلمون داخل لبنان ضد الصليبيين (١) .

ونزل موارنة الجبل الى الساحل ، عند مرور الحملة الصليبية الاولى بسواحل لبنان فى طريقها الى « الارض المقدسة » ، « وقدموا تهانيهم للصليبيين وادوا قسطهم من شعور الاخوة » وأمدوهم بما احتاجوا اليه من معلومات عن طريق القدس (٢) . فرسموا لهم اتجاهات الطرق الثلاث التي يجب عليهم اتباعها . وقدموا اليهم ما يحتاجونه من زاد ومؤونة . وكان النساك والرهبـان ينزلون من الجبل لتحية المحاربين وتشجيعهم . وسار موارنة الجبل والضنية وسير وجبيل فى مقدمة الجيش كأدلاء وكشافة (٣) .

وانضم الى الصليبيين عدد من المحاربين اللبنانيين الموارنة . واليهم يرجع الفضـل فى نجاح حصـار بيروت سنة ١١١٠ ثم فى محاربة مسلمي منطقة الغرب ، من اللبنانين ، وفي فتح طرابلس (٤) وتمكن مسيحيو صيدا من انقاذ حياة الملك بلدوين لما تآمر عليه مسلمو المدينة سنة ١١١١ (٥) . ويقدر المؤرخون عدد الموارنة الذين حاربوا مع الصليبيين بعشرات الالوف ، ومنهم اثنا عشر الفا كانوا فى القدس لحراستها (٦) .

---

(١) William ١ : ٣٢٠–٤٧٧ (٢) المصدر نفسه ٣٢٠

(٣) الدويهي ، تاريخ الطائفة ١٠٢ ، الدبس ٦ : ٢٩

(٤) الشدياق ٦٦٥ ؛ مزهر ١ : ٢٠٦ ؛ Hitti, History of Syria ٦٠٠

(٥) William ٤٨٨ (٦) مزهر ١ : ٢٠١

وامتازت مدة ضم لبنان الى الدولة المسيحية التي اسسها الصليبيون فى سورية الطبيعية فى القرنين الثاني والثالث عشر بخضوع اللبنانيين المسيحيين التام ، واقامة علاقات اجتماعية وشعبية وسياسية وثيقة بين الطرفين . وقد تبع القسم الشمالي من الساحل امارة طرابلس ، والقسم الجنوبي (ابتداء من نهر الكلب) مملكة القدس . اما الجبل فحافظ على استقلاله الاداري . ومنح الصليبيون البطريرك الماروني صلاحيات دينية وسياسية واسعة . وكان ملوك فرنسا وامراؤها يتكاتبون مع زعماء الموارنة الدينيين والمدنيين ، وتدل رسائلهم على الصداقة والتعاون الذي كان يربط بينهم (١) .

ووجد الصليبيون عند انحلال سلطانهم تحت ضغط الهجمات الايوبية والمملوكية عليهم ، حصنا منيعا لهم فى جبل لبنان المسيحي . فالكثيرون منهم ، من الذين عجزوا عن الهرب ، نزحوا الى الجبل واستوطنوه . ولا تزال بعض العائلات المارونية فى لبنان تنتسب الى الصليبيين حتى اليوم ، مثل آل فرنجيه والصليبي وبردويل وطربيه وصوايا ودويهي وغيرهم (٢) .

لذلك لم يكن غريبا ، بعد كل هذا التعاون المسيحي مع الاجانب ، ان يغتنم المسلمون فرصة استعادة حكم البلاد وطرد الصليبيين حتى يثأروا من المسيحيين ويضطهدوهم . فما ان خرج الصليبيون الا وارسل عمال العباسيين يطلبون من خليفتهم السماح لهم بابادة مسيحيي سورية الطبيعية انتقاما لخيانتهم لهم . غير ان الخليفة رفض ذلك قائلا « ان الله لا يأمرنا ان يقتل من لم يرتكب السوء » كما اعترف ميخائيل السوري (٣) .

اما مماليك مصر ، وهم المشهورون بقسوتهم وفظاعة انتقامهم من اعدائهم ، فلم يلتزموا راي الخليفة العباسي . وعامل السلاطين

---

(١) المصدر نفسه ١ : ٢١٠
(٢) المصدر نفسه ٢١١ ؛ Hitti, History of Syria ٦٢٦ ؛ حتي ، سورية والسوريون ٢٥ (٣) الغزالي ٢٢٣

المسيحيين بقسوة بالغة . ففي ١٢٦٤ ارسل الظاهر بيبرس جيشه لمحاربة موارنة القليعات وعرقه وطرابلس الا ان موارنة الجبل هرعوا لمساعدة اخوانهم وطردوا المماليك ، ومنعوهم من دخول طرابلس التي كانت يومها بايدي المسيحيين (١) . ويقول ابن القلاعي ان الظاهر اغتنم في هذه الحملة فرصة الاختلاف الذي نشب بين بابا روماوموارنة لبنان. ثم يصف تنكيل المماليك بالسكان ، واحراقهم الغابات والقرى والمزارع (٢) . وقدم جيش المماليك مرة ثانية الى لبنان ، سنة ١٢٨٣ ، للانتقام من اهالي جبة بشري واهدن وحصرون واسروا زعماء المسيحيين ، وهدموا كنائسهم وحصونهم وقلاعهم ، وسبوا ونهبوا (٣) وارسل حسام الدين لاجين : صاحب دمشق ، قائده قرشنقو ، مع جماعة من تنوخيي لبنان ، لمعاقبة مسيحيي الجرود وكسروان ، سنة ١٢٩٠ . وقد خرب المهاجمون القرى المسيحية وشتتوا سكانها . وانزل لاجين قبائل سنية مكانهم ، في الذوق وغزير وغدير . وانزل جماعات شيعية في حراجل وميروبا وفاريا (٤) . وغزا كسروان ، بعد ذلك بسنتين ، جيش الملوك بيدرا ، بأمر من الملك المنصور قلاون . ولم يفت في عضد هذا الجيش تغلب الموارنة عليه ، بل قام بحملة اخرى ، تمكن فيها من اخضاع الموارنة (٥) .

وسار المماليك ، ومعهم جموع التنوخيين والامراء المستوطنين في لبنان ، لقتال موارنة الجرد وكسروان سنة ١٣٠٢ ، لانهم ساعدوا حملة صليبية صغيرة نزلت في الدامور (٦) . وجرت المعارك بين الطرفين في جبيل . وكان جيش الموارنة يتألف من ثلاثين الف محارب ، بقيادة ثلاثين مقدما . واستطاعوا الانتصار على المسلمين وطردوهم من اراضيهم . ولحقوا بالتنوخيين الى قراهم ، في منطقة الغرب ، واحرقوها . ورفضوا المصالحة التي عرضها عليهم جمال

---

(١) دويهي ، تاريخ الطائفة ص ١١٣
(٢) ابن القلاعي ص ٢٢
(٣) الدويهي ، تاريخ الازمنة ص ١٤٦
(٤) الدويهي ، تاريخ الطائفة ص ١١٩
(٥) صالح بن يحيى ص ٤٥ (٦) المصدر نفسه ص ٥٠

الدين اقوش صاحب دمشق . فارسل اقوش جيشه ليدافع عن التنوخيين اصدقائه ، وتمكن من صد الموارنة ، ثم من احتلال كسروان . واسكن قبائل تركمانية سنية فى تلك الانحاء . الا ان الحرب بين الموارنة والمسلمين دامت عدة سنوات (١) . وتشتت بسببها عدد كبير من الموارنة ، فى جزين وبعلبك وقرى البقاع . وبالرغم من ان ناصر الدين ، قائد المماليك ، أمن المستسلمين من المسيحيين على ارواحهم ، عاد فغدر بهم (٢) . واسكن عائلاتهم فى مناطق داخلية قاحلة . فظل المسيحيون قانعين بهذه المناطق الى ان زال سلطان المماليك فهاجروا الى بيوتهم الاصلية فى شمال لبنان (٣) .

واصدر المماليك تشاريع قاسية ضد المسيحيين ، فى كافة مقاطعات دولتهم ، وخاصة فى عهود قلاون والسلطان الناصر والصالح . وشجعوا المسلمين على اقامة اتجاه ادبي سياسي رجعي ضد المسيحيين . وقامت الدعوة ، فى بيروت خاصة ، الى تمجيد الدين والتاريخ الاسلامي ومهاجمة التاريخ والتقاليد المسيحية (٤) . واضطرت جموع كبيرة من المسيحيين الى الهرب الى قبرص والاقامة فى تلك الجزيرة نهائيا . وكان بين هؤلاء عدد لا بأس به اشترك فى الحملة الصليبية التي توجهت لغزو مصر فيما بعد ، للانتقام من اضطهاد المماليك لاخوانهم المسيحيين فى لبنان (٥) . وقد اقتفى هؤلاء اثر المسيحيين اللبنانيين الذين هاجروا الى قبرص قبل قرن من الزمان ، هربا من اضطهاد صلاح الدين الايوبي لهم لما فتح سواحل لبنان (٦) .

---

(١) الدويهي ، تاريخ الطائفة ١٢٣–١٢٤

(٢) صالح بن يحيى ص ١٣٦–١٣٧

(٣) مما يذكر ان الدروز ، سكان الجرود ، كانوا متحالفين مع الموارنة ، سكان كسروان ، ضد التنوخيين والاكراد السنيين

(٤) Hitti, History of Syria ص ٦٢٤

(٥) الدبس ٦ : ٣٠٧–٣٠٨ ؛ دريان ٨٧–٩١

(٦) William ٢ : ٤٤٨

الباب الخامس

الطائفية الاقطاعية

وجدنا ، فى الفصل السابق ، كيف أمت الجماعات الاسلامية لبنان ، من انحاء متفرقة بين العالم الاسلامي ، ونزلت فيه اما بدعوة العباسيين والفاطميين والمماليك ، او لاسباب اضطرارية اخرى . وقد نزلت كل جماعة منها فى منطقة خاصة بها ، وراحت تتوسع على حساب الجماعات الاخرى القريبة منها . وتحولت هذه الارتباطات بين الجماعات المختلفة والمناطق التي تسكن بها الى اقطاعات كونت النظام الاقطاعي الذي ازدهر فى لبنان اكثر من خمسة قرون .

وكانت سوريا الطبيعية قد عرفت الاقطاعية منذ دخول المسلمين اليها . فكان الخلفاء الامويون والعباسيون من بعدهم يتولون توزيع الاراضي على اخصائهم ، من القادة والعمال ورجال الحاشية ، مقابل كميات معينة من الخراج يتسلمونها بواسطتهم من الشعب الذي لم يكن له فى الارض الا خدمتها . وحافظ الصليبيون على النظام الاقطاعي لما احتلوا سورية . كذلك فعل الايوبيون والمماليك ، اذ ثبتوا النظام المذكور ، وجعلوه نظام لبنان السياسي للقرون الخمسة التالية .

وجدت الطائفية فى الاقطاعية نظاما جديدا كي تستغله لصالحها ؛ ووجد الاقطاعيون فى الطائفية ستارا جديدا كي يتستروا وراءه لتحقيق رغباتهم . ولما كان مجال التدخل الاجنبي ضعيفا فى تلك الازمنة ، لم يجد رجال الاقطاع غير الطائفية ، والعصبية القبلية معها ، من وسيلة الى التنافس فيما بينهم .

كان لبنان ، فى اوائل العهد الاقطاعي ، مقسما الى المناطق

التالية : **بنو عمار** ، الشيعية ، فى طرابلس (١) ! التركمان السلاجقة الاصل ، فى غزير وذوق مخايل وذوق مصبح ، وقرى عديدة من كسروان والكورة وجبيل ، بزعامة **بني عساف** . ثم توسع سلطانهم حتى شمل مدينة بيروت ، بتساهل السلطان برقوق . ولما مات آخر زعمائهم الاقوياء ، سنة ١٥٨٠ ، خلفهم **آل سيفا** ، التركمان الاصل ، الذين سيطروا على عكار منذ ١٥٢٨ ، واصبحوا حكام لبنان الشمالي(٢) . وفي بيروت كان **آل بحتر** ، امراء الغرب ، يتولون حماية المدينة وضواحيها ، منذ نهاية القرن الثالث عشر(٣). والبحتريون تنوخيو الاصل قحطانيو المنشأ . وبداوا يظهرون على مسرح السياسة اللبنانية منذ منتصف القرن الثاني عشر . وبعد عشرات السنوات تولوا امر صيدا ووادي التيم والدامور ومجدل بعنا وغيرها(٤) . وكان الايوبيون والمماليك راضين عنهم . حتى ان العصاة فى لبنان كانوا ينتقمون منهم لصداقتهم مع الحكام المصريين(٥) . لكنهم تعرضوا سنة ١٢٧٨ لغضب المماليك لانهم تعاونوا مع الصليبيين .

وسكن **بنو بشارة** فى جنوب لبنان واسسوا اقطاعية لهم . ومع ان المصادر الشيعية تقول انهم كانوا شيعة الا ان مسيحيتهم ثابتة . وقد ظلوا مسيطرين هناك حتى القرن السادس عشر(٦). اما الشوف فكانت اقطاعياته موزعة بين **المعنيين والشهابيين** . وسيطر **التنوخيون** على كافة انحاء الشوف ووادي التيم والمتن وبعض كسروان . ولحق بهم ، فى القرن السادس عشر ، فوج لخمي جديد، يتألف من آل الاطرش والنكد عبد الملك وعماد وعزالدين ويزبك وجنبلاط . وسكن **الخزاعيون** الشيعة فى البقاع . وسكن اخوانهم **العامليون** الجنوب .

وبالاضافة الى الاقطاعيات المسيحية التي كانت منتشرة فى شمال لبنان ــ الكوره وكسروان ، وفي البقاع ، انضم اليهم عدد

---

(١) تغري بردي ج ٢ قسم ٢ ص ٢٦٧
(٢) الدويهي ، تاريخ الازمنة ٢٣٨ (٣) صالح بن يحيى ص ٨١
(٤) الدويهي ، تاريخ الطائفة ١٠٤ (٥) صالح بن يحيى ص ٩٢
(٦) زين ، مع التاريخ ص ٧٩

كبير من **الازديين** ، العرب الاصل ، اليمانيين . وقد اتوا الى لبنان بين القرن الثاني عشر والخامس عشر . ومنهم عائلات الخازن واليازجي وحداد وشقير وصايغ ورزق ونخله ونفاع وكعدي وابي خاطر وابي عسله ومعلوف وصليبي وصليبا وجميل وغيرهم . ومنهم من سكن مع الموارنة فى اقاليمهم الخاصة بهم . واقام الباقون فى المناطق الارثوذكسية .

وبالرغم من التغيرات التي كانت تحصل بين وضع وآخر فى وضع التقسيم الاقطاعي ظل لبنان يعيش فى ظل هذا النظام الاقطاعي الطائفي حتى القرن التاسع عشر . وسأنقل للقارىء احصاء وضعه الشدياق لسكان لبنان فى القرن التاسع عشر ، حسب مناطقهم الاقليمية ، الطائفية . وارقام هذا الاحصاء تقريبية ، للذكور فقط (١) :

الزاوية : ١٧٣٠ مسيحيا بزعامة بني الظاهر و٦٠ مسلما (سنيا وشيعيا)
الكورة : ٢٥٠٠ ملكي بزعامة بني عازار ؛ و ١٢٦ مسلما
القويطع : ١٤٥٨ مارونيا بزعامة بني ابي صعب ؛ وبعض الجماعات الكردية ـ ١٣٩
جبة بشري : ١٠٢٠٠ ماروني .
البترون : ٦٨٠٠ مسيحي و ٢٠٠ شيعي
جبيل : ٥٠٠٠ مسيحي و ١٠٠٠ شيعي
جبة المنيطرة : ٢٤٧٠ مسيحي و ٢٢٠٠ شيعي
كسروان : ١٠٠٤٤ مارونيا (وقليل منهم ملكيون)
القاطع : ٤٢٠٠ ماروني (وقليل منهم ملكيون) بزعامة ابي اللمع
المتن : ٦٧٠٠ ماروني ؛ ٢٢٥٠ درزيا وشيعيا وسنيا (لكل قرية مذهبها) .
بيروت : ٣٠٠٠ مسيحي و ٣٠٠ مسلم
الغرب الاسفل : ١٤٥٠ مسيحيا و ١١٠٠ درزي بزعامة آل ارسلان

---

(١) لا ندعي ان كافة ارقام هذا الاحصاء صحيحة . الا انها تعطينا فكرة تقريبية عامة عن توزيع السكان ذلك الزمان .

الغرب الاعلى : ١٥٦٠ مسيحيا و ٨٠٠ درزي بزعامة آل تلحوق و ١٠٠ مسلم
الشحار : ١٦٣٠ مسيحيا و ١٠٠٠ درزي بزعامة آل نكد
الجرد : ٢٠٠٠ مسيحي و ٩٠٠ درزي بزعامة آل عبد الملك
المناصف : ٤٠٠٠ مسيحي و ١١٤٠ درزيا بزعامة آل نكد
الشوف : ١٤٢٠ مسيحيا و ٣٥٢٠ درزيا بزعامة آل جنبلاط
العرقوب : ١٣٠٠ مسيحي و ١١٥٠ درزيا بزعامة آل عماد
جزين : ٣٢٧٠ مسيحيا و ١٠٠ درزي
الشوف البياضي : ١١٤٧٠ مسيحيا و ١٠٠٠ سني (بزعامة آل ابي اللمع)
اقليم التفاح : ١٧٨٤ مسيحيا و ٣١ درزيا
اقليم الخروب : ١٥٠٠ مسيحي و ١٠٠٠ سني ودرزي
اقليم الريحان : ٣٢٧ مسيحي و ٦٨٦ سني (١)

* * *

كانت هذه المقاطعات الاقطاعية دائمة التناحر . ففي القرن الرابع والخامس عشر اتحد اقطاعيو طرابلس وبعلبك ، السنيون ، ضد بني بشارة ، المسيحيين فى جنوب لبنان(٢) . وحارب آل عساف ، السنيون ، شيعيي الشمال . وآزر آل حبيش وآل الخازن ، الموارنة ، السنيون ضد الشيعيين . وتحارب اقطاعيو البقاع الشيعيين مع اقطاعيي وادي التيم الدروز سنة ١٣٤٤(٣) . وثارت الاقطاعات الاسلامية على المسيحية سنة ١٣٦٧ بتحريض المماليك . وقتل المهاجمون البطريرك الماروني والكثيرين من الكهنة والاعيان (٤) . وهاجم آل عساف مدينة بيروت سنة ١٣٨٠ وحاربوا التنوخيين الدروز فيها . وبعد ذلك بسنوات قليلة تحالف السنيون التركمان مع الناصر فى حربه ضد السلطان برقوق ، الذي استمال الدروز الى جانبه . وانتقلت المعارك بين المملوكين فى مصر

---

(١) الشدياق ١٩–٢٤ (٢) الزين ، مع التاريخ ٨٠–٨١
(٣) دويهي ، تاريخ الطائفة ص ١٢٨
(٤) دويهي ، تاريخ الازمنة ١٨٥ ؛ الدبس ٦ : ٤٦٨

الى حرب طائفية فى لبنان . فوقعت الفتن بين السنيين والدروز . ووقف الموارنة على الحياد . لذلك احسن برقوق اليهم ، لما انتصر على خصمه ، لانهم لم يتعاونوا مع جيرانهم السنيين (١) . ونشبت الفتن ، فى اواسط القرن الخامس عشر ، بين التنوخيين فى بيروت وآل الحمرة فى البقاع(٢) . واشتد ظلم بعض الاقطاعات الاسلامية على الموارنة ، فهرب عدد منهم سنة ١٥١٠ الى جزيرة قبرص(٣) . وكان مسيحيو مدينة بيروت يلاقون اضطهادا مستمرا من امراء الغرب البحتريين ، حكام المدينة . وحول هؤلاء البحتريون بعض الكنائس الى اسطبلات لخيولهم (٤) .

واستطاعت جيوش السلطان سليم العثماني ان تحتل سورية ومن ضمنها لبنان ، دون مقاومة تذكر ، بعد ان انتصرت على قوات المماليك فى معركة مرج دابق سنة ١٥١٦ . ووضع العثمانيون الساحل الجنوبي من لبنان تابعا لولاية دمشق بينما تبع شماله ولاية طرابلس . واستقلت صيدا ، سنة ١٦٦٠ ، فى ولاية خاصة ، اذ امن العثمانيون الى مسلميها . اما جبل لبنان فقد حافظ على وضعه الخاص . واعلن السلطان سليم موافقته على نظام لبنان الاقطاعي ، بالرغم من عداء بعض زعمائه له فى مرج دابق .

وروى الشهابي ان السلطان سليم ارسل وراء امراء جبل لبنان يستدعيهم الى حضرته ، وهو فى دمشق . فتوجه اليه عثمان بن معن وجمال الدين بن ارسلان وعساف التركماني . وتخلف التنوخيون ، القيسيون ، عن الذهاب . والقى الامير المعني خطبة ولاء اعجبت السلطان وجعلته يثبته اميرا على امراء لبنان الاقطاعيين . كما منح الارسلانيين منطقة الغرب ، والتركمان كسروان وجبيل (٥) .

وتنقل سكان لبنان حسب هذا التقسيم الجديد . فهاجر

---

(١) الدويهي ، تاريخ الازمنة ١٩٠ (٢) المصدر نفسه ٢٠٨
(٣) المصدر نفسه ص ٢٢٧ (٤) شيخو ص ٨٢
(٥) المصدر نفسه ٥٦١

الشيعيون من بعلبك الى فاريا وحراجل . وسكن سنيو البقاع ساحل علما وعرامون وكسروان وغزير . واقام دروز المتن فى برمانا ومزارع كسروان ؛ ومسيحيو طرابلس فى المتن وكسروان . وسيطر آل حبيش على غزير ؛ وآل عساف على كسروان والذوق . وتزعم مقدمو بشري وجبيل والبترون موارنة الشمال — وكانوا من آل الخازن وحبيش وابي اللمع (١) . وبداوا فى حرب مع الشيعيين لطردهم من الشمال . وطالت الحرب حتى اوائل القرن التاسع عشر حينما جلى آخر الشيعيين عن العاقورة والجرد (٢) .

وقد اراد السلطان سليم من نظامه الاقطاعي الطائفي هذا ان يجعل للمسلمين حق الاشراف على الموارنة ، خوفا من ان يعود الموارنة الى الاتصال مع اوربة المسيحية (٣) . كما حافظ السلطان المذكور على الطائفية فى التشريع والادارة . فقسم وظائف عمال الخراج بين الطوائف المختلفة . واعطى رؤساء الطوائف حق القضاء. وعمم العثمانيون نظام الملة ، الطائفي الاساس فى القضاء والادارة (٤).

واعتمد العثمانيون ، بادىء الامر ، على مساعدة السنيين ، اما التنوخيون والبحتريون فقد لاقوا اضطهاد الغزالي حاكم دمشق لموالاتهم المماليك ضد العثمانيين — وزالت بهذا الاضطهاد سيادة التنوخيين على وادي التيم واصبحت بيد المعنيين . واعتقل الغزالي ناصر الدين بن الحنش زعيم قبائل صيدا والبقاع وابن الحرفوش زعيم شيعة البقاع وقتلهما وارسل راسيهما الى الاستانة (٥) . وبالرغم من تثبيت سليم الدروز امراء على الجبل ، لم تكن العلاقات بينهما ممتازة . فقد اعتقل الغزالي بعض ابناء فخر الدين المعني ، لما كان الغزالي امينا للعثمانيين . ولما ثار عليهم انضم الدروز

---

(١) كان آل ابو اللمع دروزا ثم تنصروا
(٢) راجع كتاب زغيب « تاريخ عود النصارى الى جرود كسروان »
(٣) Stripling ص ٥١–٥٨
(٤) Hitti, History of Syria ص ٦٧٩
(٥) الشهابي ص ٥٩٦

اليه (١) . وكان للدروز خمسة وعشرون الف مقاتل مستعد للحرب ضد العثمانيين . فعمل العثمانيون على اخضاعهم ، خاصة لما اتهموا الدروز بسرقة امــوال مصر المرسلة الى اســيا الصغرى سنة ١٥٨٤ (٢) .

واستعاد اللبنانيون ، بعد هذه التنظيمات الاقطاعية الطائفية الجديدة سياسة التناحر . ففي ١٥٢١ غدر قائدبيه عســاف التركماني بآل حبيش الموارنة فى كسروان(٣) . واضطهد منصور عساف ، الذي تزعم ســنيي الشــمال من ١٥٢٢ حتى ١٥٨٠ ، المسيحيين بقسوة . فانتشرت الفتن فى عهده ، وامتدت الطائفية الى كافة المناطق اللبنانية . وانتقم آل شعيب من آل سيفا سنة ١٥٢٨ واضطروهم الى الهرب الى الباروك واللــجوء الى الدروز المعنيين هناك . وتمكن الدروز من ارجاع الهاربين الى اراضيهم . فغضب الموارنة، وتحالفوا مع آل شعيب ضد الدروز وآل سيفا(٤) .

وعادت الحرب من جديد ، بين آل ســيــفا وآل حبيش فى شمال لبنان سنة ١٥٩٣(٥) . وبعد ذلك بتسع سنوات اعلن آل ســيــفا الحرب على الشيعيين فى بعلبــك وجبة بشري ، من آل الحرفوش(٦) . وكان المسيحيون فى بيروت يلاقون اضطهادا من مسلميها ، فى هذه الاثناء . وتمكن المسلمون من الاستيــلاء على كنيسة الرهبان الفرنسسكان وحولوها الى جامع ــ وهو المعروف بجامع السراي (٧) .

وهاجم آل حرفوش المسيحيين فى جبة بشري سنة ١٦٠٢

---

(١) Stripling ص ٦٥

(٢) الدويهي ، تاريخ الازمنة ص ٢٨٤

(٣) الشهابي ص ٦٠٦

(٤) المصدر نفسه ص ٦٠٨

(٥) الدويهي ، تاريخ الازمنة ص ٢٨٨

(٦) الشهابي ص ٦٢٣

(٧) شيخو ص ٨٤

ونهبوا بيوتهم واهانوا مقدساتهم(١) . كذلك اضطهد آل سيفا ، ايام ولاية يوسف سيفا ، المسيحيين ، وخاصة آل حبيش . واضطر جماعة منهم الى اعلان اسلامهم . والف فرقة منهم سماها البياضة لتحارب معه(٢) .

ونشب قتال سنة ١٦٣٤ بين آل سيفا السنيين وآل حمادة الشيعيين(٣) . وتدخل الدروز ، فى السنة التالية ، فى النزاع العائلي الذي نشب بين الاميرين سيفا وعساف، ووسعوا شقته لصالحهم(٤) وتابع آل سيفا تعدياتهم على المسيحيين . واضطهدوا رجال الدين (٥) . ولما عين الشيخ ابو رزق ، المسيحي ، موظفا فى طرابلس، غضبوا وثاروا واضطروه الى اعلان اسلامه . ومع هذا قتلوه . واضطروا ابنه من بعده لان يسلم . ولما اراد الرجوع عن اسلامه ، اجلسوه على خازوق حتى مات(٦) . وارسل المسيحيون ، بواسطة الشيخ ناصيف الخازن ، شكوى الى الملك لويس الرابع عشر ، يتظلمون اليه من اضطهاد المسلمين . فأجاب واعدا بمساعدتهم(٧) .

واستأنف المسلمون اضطهاد النصارى بعد زوال حكم الامير فخر الدين الكبير . فثار الشيعيون فى جبيل والبترون وطردوا الموارنة الى كسروان والمتن والشوف حيث التجأوا الى الامير ملحم المعني ، الذي كان يسير حسب مشورة مستشاره المسيحي ابي نوفل الخازن(٨) . وكان العثمانيون يشتركون مع المسلمين فى هذه التعديات . فثار الموارنة عليهم ، بزعامة ابي كرم (احد اجداد يوسف كرم الذي اشتهر فى تاريخ لبنان الطائفي فى القرن التاسع عشر) . الا ان العثمانيين القوا القبض عليه وحاولوا اجباره على الاسلام فلما رفض قتلوه(٩) .

* * *

---

(١) الدويهي ، تاريخ الازمنة ٢٩٦ (٢) الباشا ص ٥٢
(٣) الدويهي ، تاريخ الازمنة ص ٣٣١
(٤) المصدر نفسه ٣٣٢ (٥) المصدر نفسه ٣٣٦
(٦) المصدر نفسه ٣٤٨–٣٤٩ ، ٢٧٨–٢٨٢
(٧) الدبس ٧ : ٢٨٤ (٨) دريان ١٧٢–١٩١
(٩) كرم ص ١٨١

وحكم لبنان ، فى نهاية القرن السادس عشر ، الامير **فخرالدين المعني الثاني** ، حفيد المعني الاول ، وابن قرقماز الذي اغتاله العثمانيون . ويعتبر فخر الدين ، فى التاريخ « الرسمي » للبنان ، مؤسس لبنان الحديث ، والامير الوطني الاول الذي كان للبنان باكمله وليس لطائفة ما فيه . ويستخلص اصحاب هذا الراي استنتاجهم من حقيقتين ، اولاهما انه صادق جميع الطوائف ، وثانيهما انه لم يرتبط مع طائفة ما .

والامران صحيحان . فقد كان فخر الدين ، فى المناسبات المختلفة ، مع جميع الطوائف . وعاش طيلة حياته دون ان ينتسب الى طائفة واحدة منها . الا ان سياسة كهذه تكشف لنا عن دهاء الامير اكثر من تسامحه ، وعن حنكته اكثر من لاطائفيته . ذلك ان فخر الدين الذي لم يرتبط مع طائفة ما كان يتظاهر ، امام هذه الطوائف ، بالارتباط معها ، كل على حدة ؛ ولانه ، هو الذي اعلن تسامحه ، قسا على عدد من الطوائف لحساب طوائف اخرى .

ابتدأ حكم هذا الامير سنة ١٥٩٨ باعلانه الحرب ضد آل سيفا ، الذين كانوا يسيطرون على شمال لبنان وطرابلس وكسروان وبيروت . واستمرت الحرب معهم عدة سنوات(١) . ولما انتصر عليهم هاجم آل حرفوش فى البقاع سنة ١٦٢٢ . ثم اعلن الحرب على العائلة الشيعية الثانية فى لبنان ، آل حمادة ، ثم على باقي الشيعة ، مثل آل علي الصغير ، وآل المنكر وشكر وغيرهم (٢) . وكان لا بد لفخر الدين ، من اجل سحق اعدائه السنيين والشيعيين ان يتحالف مع طائفة اخرى غير الدروز ، الذين اعتبروه واحدا منهم . لذلك لم يجد امامه غير الموارنة . فقربهم اليه ، على حساب السنيين والشيعيين ، وجعلهم اصفياءه . فساعدوه فى معركة نهر الكلب سنة ١٥٩٨ ضد آل سيفا(٣) .

وعين فخر الدين المسيحيين امراء على كسروان الفتوح وغزير؛

---

(١) الدويهي ، تاريخ الازمنة ٢٩١–٣٠٨ ؛ الخالدي ٦٦
(٢) الدويهي ، تاريخ الازمنة ٣١٦–٣١٩ ؛ ٣٢١
(٣) مزهر ١ : ٣٦٠

واعانهم ضد اعدائهم ؛ وجعل آل الخازن مشايخ بعد ان كانوا من العامة ؛ واعلن كسروان منطقة مسيحية ، وعهد الى عدد من المسيحيين بادارة البلاد ؛ وعين ابراهيم المقلاني موفدا له فى اوربه ؛ وابا نادر الخازن مستشارا اولا . وسمح للمسيحيين بحريتهم الدينية كاملة ؛ ويقول الدويهي « وفي دولة الامير فخر الدين ارتفع رأس النصارى.. عمروا الكنائس وركبوا الخيل بسروج ولفوا شاشات وكرور . لبسوا طوامين وزنانير مسقط . وحملوا القاص والبزق المجوهرة »(١) . وفتح فخر الدين ابواب البلاد للمسيحيين المضطهدين فى سورية(٢) . وتحالف مع مسيحيي اوربه . واعتمد على مساعدتهم لكي يحارب الدولة العثمانية . والتجأ الى توسكاني وفرنسا سنة ١٦١٣–١٦١٨ لما حاربه العثمانيون . وسمح للاوربيين المهندسين والفنانين والتجار والمرسلين ، بالعمل فى لبنان . واتصل مع البابا ليعقد معه معاهدة لتحرير سورية من العثمانيين مقابل حماية المسيحيين(٣) .

آلت كل هذه الاعمال الى ايجاد كتلة مارونية–درزية ضد السنيين والشيعيين. ولكي يزيد من احتكاك الكتلتين اجرى الامير تنقلات عديدة بين السكان . فنقل جماعات مسيحية من شمال لبنان الى جنوبيه ، لتسكن مع الشيعيين . واسكن فريقا آخر فى قرى الشوف . اما القسم الاكبر من المسيحيين فأسكنهم فى المدن السنية الكبيرة ، مثل عكا وصور وصيدا وبيروت وطرابلس . وانشأ للمسيحيين قرى فى مقاطعتي عكار والبقاع المسلمتين . واسهمت هذه القرى فى رد الهجمات الاسلامية عن امارته ، وفي منع البدو ، المسلمين ، من القدوم الى لبنان(٤) .

والف الموارنة والدروز اغلبية جيشه الساحقة . ولم يكن للشيعيين اكثر من فرقتين ، وكان للارثوذكس فرقة واحدة فقط ؛

---

(١) الدويهي ، تاريخ الازمنة ص ٣٢٩
(٢) خالدي ص ٢٠٨–٢٤١
(٣) الدويهي ، تاريخ الازمنة ٣٠١–٣٢٥ ؛ مزهر ١ : ٢٧٧–٢٨١ ، ٢١٨–٢١٩
(٤) الدويهي ، تاريخ الازمنة ٣٠٧ ؛ مزهر ١ : ٣٦٢

وكان للسنيين عدد قليل من الضباط(١) . ولما حاربه العثمانيون سنة ١٦٣٤ لم يصمد معه الا المحاربون الموارنة والدروز ، اما باقي الفرق فتخلت عنه . وفي المعركة الاخيرة التي جرت مع باشا دمشق جاهد الموارنة فى سبيل منع الطوائف الاخرى من التخلي عنه (٢) .

ولم تكن الطوائف المختلفة تتنازع على فخر الدين لو لم يعط لكل منها مجال الاعتقاد بالارتباط معها . ذلك انه ادعى الاسلام لما شعر بعداء المسلمين له لتحالفه مع الدروز والموارنة وحروبه معهم فى عشرات المعارك . وبنى للمسلمين عدة جوامع ، وتزوج اكثر من امراة ، برهانا على اسلامه ، وصام رمضان . وادعى انه صرف وقته على تطبيق الشريعة الاسلامية فى البلاد(٣) .

وروى بعض الرهبان انه اعلن تنصره امامه ، وسمى نفسه لويس فرنسيس ، وادعى ان البابا اعفاه من اعلان تنصره . ورووا ايضا انه عزم على ارسال ابنائه لكي يترهبوا فى فرنسا . ومن جهة اخرى اقنع الدروز بدرزيته ، مثل والديه من قبله(٤) . ونشر فى البلاد ، للتوفيق بين هذه النصرانية_الدرزية فى آن واحد ، اسطورة علاقة الدروز بالمسيحيين . فكتب سانتي ، صديقه الايطالي ، ان الدروز هم بقايا الصليبيين ، وانهم نسوا دينهم المسيحي دون ان يندمجوا مع المسلمين ، فاصبحوا فى منزلة وسط بينهما(٥) . وقال المؤرخ الذي عاصره ، فيتالي ، ان الدروز « فى عرف الجميع بقايا الفرنسيين فاتحي الارض المقدسة... ومع انهم ليسوا بالمسلمين ولا بالمسيحيين ولا تابعين لمذهب فهم يكرهون المسلمين بقدر ما يميلون الى المسيحيين . حتى ان مر بهم غريب بادروه بالسؤال : بطرس او حنا والارح عنا » وقال فى مكان آخر من كتابه « وهم (اي الدروز) يكرهون الاتراك (اي المسلمين) ويميلون الى

---

(١) مزهر ١ : ٣٦٥
(٢) فيتالي ص ١٥
(٣) الشدياق ص ٣٣٦
(٤) مزهر ١ : ٣٦٨_٣٧٠
(٥) المصدر نفسه ص ٢٩٣

المسيحيين ميلا شديدا ، خاصة الموارنة ، ويعتقد كبارهم وعقالهم انهم من اصل مسيحي(١) .

لقد اعتمد فخر الدين على الطائفية وسيلة لقضاء مصالحه وسيادته الاقطاعية ، في ادعائه بلا طائفيته . ولهذا قال ارقو « كان فخر الدين على دين شعبه ، بلا دين ! »(٢) .

* * *

اجتمع وجهاء لبنان ، سنة ١٦٩٧ في السمقانية ، قرب بعقلين ، وانتخبوا الامير بشير الشهابي الاول ، امير راشيا ، حاكما على لبنان . ففي تلك السنة مات الامير احمد بن ملحم المعني دون ان يخلف ذرية . وتحول الحكم بذلك الى الشهابيين ، وبقي في ايديهم مدة قرن ونصف تقريبا(٣) .

واشتهر حكم الشهابيين بانه ابرز الصراع القبلي ، القيسي - اليماني ، ابرازا ظاهرا ، وبلوره في قالب حزبي ، بحيث اشترك مع الطائفية في تقرير مصير لبنان اكثر من قرن من الزمان . والخلاف القيسي اليماني قديم العهد ، ترجع جذوره الى ايام الجاهلية في شبه الجزيرة العربية . وتوارث العرب هذا الصراع ، الشمالي الجنوبي ، عبر الاجيال . ولما خرجوا من جزيرتهم ، ايام الفتح الاسلامي ، نقلوا هذه العصبية معهم . وظهرت في تاريخهم الاموي والعباسي في عدد ضخم من الفتن والثورات . ولا تزال اثارها ظاهرة في العالم العربي حتى اليوم ، في عدة امكنة وصور حية .

ولما كان معظم الاعراب الذين هاجروا الى سورية الطبيعية ، قبل الفتح الاسلامي ، من اليمانيين ؛ وكان معظم اعراب الفتح من القيسيين ، اصبح لبنان ، مثل باقي المناطق السورية ، ارضا خصبة لهذا الصراع القبلي . وعملت الاقطاعية على زيادة هذا الصراع

(١) فيتالي ص ١٢ ، ٢٢-٢٣
(٢) Hitti, History of Syria ص ٦٨٤
(٣) الشدياق ص ٣٥٨

وتنميته . وقال اليازجي في وصف هذه العصبية « وكان يقتل من الفريقين خلق كثير حتى قيل ان معركة كانت بينهم في بعض اودية المتن فما زالت الجماجم تتناثر منهم حتى سدت فرجة الوادي فقيل له وادي الجماجم الى الآن »[1] .

لم يكن هذا الصراع طائفيا ، بل كان قبليا تضم الجبهة الواحدة فيه قبائل متعددة المذاهب . وكان المعنيون والشهابيون والتنوخيون وآل حمادة وتلحوق وجنبلاط وابي اللمع والخازن قيسيين ؛ بينما كان آل عساف وعلم الدين وعلي وارسلان والنكد يمانيين . لذلك امتاز حكم المعنيين بالسيطرة القيسية . فلما سقط فخر الدين عين كجك احمد ، والي دمشق العثماني ، علي علم الدين، اليماني ، حاكما على لبنان . فنكل بالقيسيين واضطهدهم . الا ان المعنيين استعادوا مركزهم سنة ١٦٣٦ وأعادوا شأن القيسية[2] . وتبعه الشهابيون ، فاستبدوا باليمانيين ايضا ، وانتصروا عليهم في معركة عين دارا المشهورة سنة ١٧١١ ، واضطروا جماعات كثيرة منهم الى الهرب الى حوران . فاقتسم الشهابيون اللمعيون والنكديون وآل القاضي وجنبلاط وتلحوق اراضي لبنان الاقطاعية فيما بينهم[3] .

لم يأخذ هذا الصراع القبلي مكان الطائفية . فقد عملت العصبيتان ، القبلية والطائفية معا ، على تفتيت اوصال الشعب وعلى اذكاء الحقد والتفرقة في النفوس . وكان انتصار القيسيين في عين دارا اندحارا للشيعيين في لبنان ، اذ كان الشيخ مشرف بن علي ، الشيعي ، يقود جماعة كبيرة من القيسيين . فحول المنتصرون الحرب الى حملة نهب لممتلكات الشيعيين واضطهاد لهم . ولم تنج الجماعات الشيعية التي لم يكن لها علاقة بالموضوع من هذا الاضطهاد [4] . ولما مات حيدر الشهابي ، الذي نكل بالشيعيين ، اظهر الشيعيون سرورهم فخضبوا ذيول خيولهم بالحناء ! فقام ابنه

---

(١) يازجي ص ١٩
(٢) الدويهي ، تاريخ الازمنة ص ٣٢٤-٣٦٣
(٣) الشدياق ص ٢٦٥ (٤) المصدر نفسه ٣٦٠-٣٦٢

ملحم وطاردهم من جديد . واعلن نفسه عدوا للطائفة الشيعية فى طول البلاد وعرضها(١) .

وتكاتفت الطوائف الاخرى ضد الشيعة . فتحارب الموارنة معهم فى كسروان سنة ١٧٢٦(٢) . ونشبت حرب اخرى بين آل حمادة وموارنة جبة بشري سنة ١٧٦٦ – واغتنم الشيعيون فى ذلك فرصة هجوم ظاهر العمر ، صديقهم على لبنان(٣) . وتجمعت جيوش الدروز ، من الخربة والباروك والشوف بقيادة آل عماد وخطار وجنبلاط ، لتحارب شيعيي جبل الريحان واقليم التفاح. وتوسع ميدان القتال بين الفريقين . وكان المسيحيون يؤازرون الدروز ضد الشيعيين(٤) . واجتمع مشايخ الموارنة فى شمال لبنان واقسموا على التعاون ضد الشيعيين . وقدم الامير يوسف الشهابي الى مساعدتهم ، وتمكنوا من طرد الشيعيين من الجية والمنيطرة وجبيل والكورة(٥) . واصبح شمال لبنان للمسيحيين : آل ظاهر على بشري ، آل الدويهي على اهدن ، آل الشدياق على حصرون ، آل عازر على الكورة ، آل دحداح على جبيل والبترون(٦) .

واستمر العداء الشيعي–الدرزي الماروني طيلة حكم الامير يوسف الشهابي . وبدأ هذا الامير حكمه بأن سيَّر عشرين الف محارب لمقاتلة آل صعب وصفير ومنكر من زعماء العائلات الشيعية . وبالرغم من انتصار هذه العائلات وانهزام الشهابي ، تمكن هذا الامير ، فى السنة التالية ، من اضطهاد شيعيي الضنية وعفصديق والكورة والعاقورة . وكان الارثوذكس والموارنة يقفون الى جانب الشهابي ضد الشيعيين(٧) . ووقف الشيعيون الى جانب الاميرين سيد احمد وافندي لما ثارا على اخيهما يوسف الشهابي(٨) .

---

(١) المصدر نفسه ٣٦٨–٣٧٠ ؛ الشهابي ٧٧١ ؛ بريك ٤٣
(٢) دربان ص ٢١٧ (٣) بريك ص ٩٧
(٤) ابوشقرا ص ١٥٢–١٦١ (٥) الشدياق ص ٣٩٢
(٦) مزهر ١ : ٤١٨
(٧) الشدياق ص ٣٨٧–٣٨٩ ، ٣٩٢ ؛ ابو خطار ص ٦٥–٦٦
(٨) الشدياق ص ٤٠٠

واشتركوا مع الجزار فى حصار جبيل سنة ١٧٧٩[١] . وكان الجزار، كما يقول مشاقة ، قد ادرك فائدة الاعتماد على هذا الخلاف الطائفي بين الشهابيين والشيعيين « فأضرم نار الفتنة بين الامير يوسف الشهابي وبين مشايخ صعب حكام بلاد بشاره والشقيف وقصده من ذلك اضعاف الفريقين ليستولي على بلادهما غنيمة باردة[٢] . وعند وفاة الجزار واضطراب الاحوال استولى الشيعيون على عموم بلاد بشارة وصيدا واغاروا على بيروت[٣] .

وكان شيعيو الجنوب يضطهدون المسيحيين الذين يسكنون بينهم . وبقي الامر كذلك الى ان عين الجزار ابراهيم مشاقة حاكما على المنطقة ، فأمر بوقف الاضطهاد وساعد المسيحيين على نيل حقوقهم . وحاول الشيعيون قتله دون جدوى[٤] . وثاروا سنة ١٧٦٧ على المسيحيين ثورة كبيرة ، بزعامة آل الحرفوش، واستولوا على بعض الاديرة واضطهدوا رهبانها . وكان سبب ذلك ان احدى الفتيات الشيعيات تنصرت ، وترهبت ، وسافرت الى روما . واعادوا الثورة ، مرة اخرى ، بعد اربع عشرة سنة لاسباب طائفية اخرى [٥] .

ومن حوادث هذه الفترة الطائفية الاخرى ثورة مسلمي بيروت على المسيحيين فى المدينة سنة ١٧٥٨ لاستيلاء احدى سفن القراصنة ، الاجنبية ، على سفينة للمسلمين . وقد هاجم الثائرون دير الكبوشيين ونهبوه واتلفوا محتوياته واعتقلوا رهبانه . ولولا نجدة ملحم الشهابي لما نجا الرهبان من القتل[٦] . وفي زحلة اعتدى اكراد البقاع على المدينة وضواحيها ونكلوا بالمسيحيين[٧] .

---

(١) ابو خطار ص ٧٠ (٢) مشاقة ٣٣-٣٨
(٣) معلوف ، حوادث الشام ص ٦٩
(٤) مشاقه ص ٤٠-٤١ (٥) قطان ٣٥ ، ٦٧
(٦) الشدياق ص ٣٧٦-٣٧٧ (٧) قطان ص ٥٦

الفصل السادس

الطائفية الاستعمارية

كانت دول الشرق القديمة ، السابقة للميلاد ، تتقرب الى الدويلات اللبنانية عن طريق العصبية الطائفية ، لتحقق لنفسها امتيازات سياسية وعسكرية تستثمرها فى صراعها ضد اعدائها ـ كما راينا فى الفصل الثاني من الكتاب . ورأينا فى الفصل الرابع ان الدول المسيحية من بيزنطية وصليبية ، اتصلت مع المسيحيين فى لبنان واسست واياهم تحالفات عسكرية وسياسية ضد مسلمي البلاد الذين كانوا على اتصال وثيق مع حكومات سورية وما بين النهرين ومصر الاسلامية . الا ان التدخل الاجنبي فى شؤون لبنان، بالمفهوم الاستعماري الحديث ، لم يبدأ الا فى القرن الماضي . وليست هذه الحوادث التي ذكرناها الا مقدمات للاستعمار الحقيقي الذي عرفه لبنان فى القرنين الاخيرين ؛ اذ اصبحت سورية الطبيعية، ضمن ممتلكات الامبراطورية العثمانية ، مطمع دول اوربة ، المتنازعة فيما بينها ، والساعية الى توسيع ممتلكاتها ومناطق نفوذها على حساب بعضها بعضا . واشترك فى هذا الصراع ، الى جانب الدول الاوربية ، كل من مصر والعثمانيين .

وجد هؤلاء الاستعماريون ان الخطوة الاولى فى سبيل السيطرة على لبنان تستوجب استثمار الاوضاع الطائفية فيه ـ فى اثارة طائفة على اخرى ، وفي رعاية طائفة ضد اخرى . لذلك غذى هؤلاء الطائفية ونموها وتعهدوها باموالهم ودهائهم ، بحيث اخذت الطائفية مفهوما جديدا ، واصبحت ، لدى الكثيرين ، مجرد وليدة هذه التغذية الاستعمارية الآثمة . واخذ رجال الحكومات الاجنبية ، من وزراء وقناصل وعمال ماجورين ، الدور الذي كان

لرجال الاقطاع فى القرون الوسطى ورجال الدين فى قرون الميلاد الاولى ورجال الاقاليم فى عصور ما قبل المسيح يلعبونه ـ وهو دور التستر وراء قناع الطائفية ، لتحقيق الاطماع الجزئية . ورضيت طوائف لبنان ، فى الفترة الخامسة من مراحل تطور الطائفية ، امام اغراء هذه الدول ، بان تكون سلاحا يفتك بجسم الشعب ويقطع اوصال وحدته العاطفية .

بدأت هذه المرحلة فى القرن التاسع عشر . وقد بزغ فجر هذا القرن اثناء ولاية الامير بشير الشهابي الثاني ، الملقب بالكبير . وقد اعتمد الامير المذكور على الطائفية ، كوسيلة للمحافظة على نفوذه فى الشعب ، اكثر من اي امير لبناني آخر . وحفل عصره بالمؤامرات الطائفية ، العلنية والمخفية ، التي كان هو يحيكها ، لوحده او بتعاون مع الدول الاجنبية ، ليلهي الشعب عن الثورة عليه ، ويؤمن لسيادته الامتداد الذي يريده .

كان بشير مسيحيا . فأبوه اول امير شهابي يظهر مسيحيته علنا(١) . الا انه ، مثل فخر الدين ، فضّل كتمان هويته الطائفية ، لمصلحته السياسية(٢) . وروى الرحالة الافرنسي بوجولا ان بشيرا أمر بمعاقبة ثلاثة رجال ، مسلم ومسيحي ودرزي ، لانهم اختلفوا فى مذهب الامير ، واكد كل منهم ان الامير ينتسب الى طائفته(٣) .

أظهر الامير عطفا نحو المسيحيين ، وخاصة الموارنة . فكان مدبره مسيحيا ، وهو فارس ناصيف . ثم عين مدبرا مسيحيا آخر اسمه بطرس كرامه(٤) . ولما هاجم نابوليون عكا ، فى حربه التي اعتبرها الشرق حربا دينية بين المسلمين والمسيحيين ، وقف بشير على الحياد ، مع ميل نحو الافرنسيين . فمنع الدروز من

---

(١) يروي شيخو (ص ٩٢) ان الشهابيين تنصروا منذ اوائل القرن الثامن عشر ، حين اعتنق الامير عبدالله الشهابي الدين المسيحي فى غزير على ايدي الاباء الكبوشيين . ثم تبعه الامراء حيدر وسيد احمد وقاسم . وتنصر الامير بشير نفسه سنة ١٧٦٧

(٢) Hitti, History of Syria ص ٦٩٤

(٣) حنين ص ١٠٤ (٤) الشدياق ص ٤٢٠ ، ٤٨٨

محــاربة نابوليون ، ورفض مســاعدة الجزار ، وحرس قوافــل الافرنسيين المارة فى لبنان(١) .

وامر الجزار ، بعد انتصاره على نابوليون بفك حصاره عن عكا ، بطرد بشير من امارة لبنان ، انتقاما منه . فالتجأ بشير الى الحكومة البريطانية ، وارسل الى قائد الاسطول البريطاني فى شرقي المتوسط ، سميث ، عارضا عليه صداقته ، وطالبــا حمايته من غضب الجزار . وسر الانجليز لهذا العرض لانه اول طلب لبناني يعرض عليهم التدخل فى شؤون البلاد الداخلية . فقدم سميث على ظهر اسطوله الى لبنان ، وتوجه لزيارة بشير ، وتبادل واياه مظاهر الصداقة والتحالف . وحاول سمث اقناع الجزار بالعفو عن بشير. ولما عجز ارسل الى الباب العالي يطلب تدخله . فقبل العثمانيون وثبتوا بشيرا حاكما على جبل لبنان . الا ان الامراء المخلوعين من آل شهاب ثاروا عليه واضطروه الى الهــرب . فحمله الاسطول البريطاني الى مصر ، ثم ارجعه الى لبنان بعد ان هدات الحالة . وقدم الانجليز له مساعدات مالية كبيرة ، واذاعوا ان بشيرا اصبح فى حماهم (٢) .

وكان موارنة لبنان موالين لبشير طيلة هذه الفترة . وعملوا معه فى غيابه ضد الجزار . ورفضوا اميرا آخر غيره . فاثارت هذه الموالاة حفيظة الدروز عليه . وانتشرت بين اوســاطهم دعوة الى وجوب محاربة الامراء الشهابيين الدروز الذين تركوا دينهم . حتى ان العلماء افتوا بحق قتل الشهابي الذي يتنصر . فاضطر بشير ، ازاء هذا العداء الى التقرب من المســلمين السنيين ، ليكسب بهم صديقا جديدا ضد اعدائه(٣) فكتم نصرانيته ، وامر باقفال المقاهي فى شهر رمضان ، ومنع الاكل والشرب العلني فيه (٤) . ولما لم تجده هذه الاعمال اضطر الى التقرب من الدروز انفسهم ، مــن

---

(١) المصدر نفسه ص ٤٤٩

(٢) المصدر نفسه ص ٤٥٠-٤٥٧

(٣) حتى اعداء الامير بشير قاموا بالشيء ذاته (مشاقه ص ٧٠-٧١)

(٤) الشدياق ص ٤٩٢-٤٩٤

جديد . فسمح للدروز الهاربين من لبنان ، خوفا منه ، بالرجوع[1] . واستضاف الكثيرين دروز حلب اللاجئين الى لبنان ، وكانوا حوالي اربعمئة عائلة ، ومنحهم المال والمساكن[2] .

غير ان بشيرا ظل صديقا للمسيحيين . وظهر عطفه واضحا سنة ١٨٢٦ لما هاجمت بعض السفن اليونانية ميناء بيروت، وحاول جنودها احتلال المدينة . الا ان المسلمين طردوا المهاجمين وانتقموا من مسيحيي المدينة بحجة اتصالهم مع المهاجمين ، فاضطهدوهم ونهبوهم واعتقلوا الكثيرين منهم . الا ان بشير رفع هذه القسوة وافرج عن المسيحيين وطرد الموظفين المسلمين المسؤولين عن الحادثة وعوض عن خسائر المتضررين[3] .

وفي سنة ١٨٢٢ غضب الباب العالي على بشير ، فهرب الى مصر لاجئا مرة اخرى . وقابل محمد علي ، سيد مصر ، هنالك وتباحثا في مصير مشترك . فقد كان محمد علي يطمع في تأسيس دولة قوية له ، تشمل مصر وما يحيط بها من ممتلكات الدولة العثمانية . ذلك ان سورية اقرب المقاطعات العثمانية الى مصر ، واكثرها قيمة عند المصريين . فهي الارض ذات الغنى الطبيعي والمركز الاستراتيجي ، والجسر الذي لا بد لمصر من عبوره في طريقها الى اسيا . وكان محمد علي قد بدأ بالتدخل في شؤون سورية الداخلية منذ ١٨١٠ ، فكان يستقبل الولاة والحكام والامراء السوريين الهاربين من ضغط العثمانيين ، او المتحاربين فيما بينهم، ويشجع واحدا ضد اخر ، ويطالب الباب العالي بتعيين احدهم وطرد الاخر . وعمل عملاء مصر في توثيق علاقة هؤلاء الامراء بمحمد علي ، ونقل الاخبار اليه .

فلما قدم بشير الى مصر وطلب مساعدة واليها وعده محمد علي بذلك « واسر اليه جميع ما يرغبه منه في جبل لبنان من

---

(١) المصدر نفسه ص ٥٦٦
(٢) Hitti, History of Syria ص ٤٨٧
(٣) الشدياق ص ٥٦٠

الخدمة عند الحاجة لانه كان مزمعا ان يتملك بلاد الشام بالسيف» كما قال الشدياق(١) . وتوسـط محمد علي للامير بشـير لدى العثمانيين فعفوا عنه ، وارجعه الى لبنان محملا بالهدايا . وتوثقت العلاقات بين الاميرين ، وسارا فى سياسة موحدة ، تؤدي الى ولاية محمد علي على سورية ، مقابل اعلان بشير اميرا دائما على لبنان.

وهكذا دخلت مصر فى تاريخ لبنان ، وفي تاريخ الطائفية بنوع خاص ، فى القرن التاسع عشر . فباعتمادها على الامير بشـير ، المسيحي المغضوب عليه من الدروز والسنيين ، آزرت المسيحيين ، بينما بادلها الدروز والسنيون العداء . ولما ثار الدروز ، بقيادة آل عماد وبشير وجنبلاط وبعض الشهابيين ، على الامير بشير ، سنة ١٨٢٥ ، اعلن محمد علي استعداده لارسال عشرة الاف جنـدي مصري لمساعدة بشير ضد الثائرين الدروز(٢) .

ويصف ابو شقرا عداء الامير بشير للدروز ، بعد رجوعه من مصر ، بناء على نصيحة محمد علي له ، قائلا ان محمد علي اراد من ذلك اذكاء روح الطائفية بحيث يتيسر له امر الاستيلاء على لبنان(٣) . حتى ان الكاتب المذكور يتهم بشـيرا بالتنصر « نـكاة بالدروز واعلانا بالبغض لهم والابتعاد عنهم والحب لغيرهم والقرب من ذلك الغير » وانه بعد التنصر اغرى كافة آل شـهاب بالتنصر ايضا(٤) . ويصف جهود بشير فى زرع بذور التفرقة الطائفية بقوله « واما ما حمل اللبنانيين على نبذ التحزب السلالي (اي العصبية القيسية اليمانية) والتمسك بالتحزبات الطائفية فهو الامير بشير الشهابي والسياسة التي اتخذها ذريعة لاستبداده واسـتقلاله بخضد شوكة زميله سميّه الجنبلاطي المشهور . فانه منذ عول على ذلك الامر المهم اخذ فى تشـييد قوة الاكليريوس من الطائفتين ثم جعل يسعى فى بذر حبوب الشقاق بين الطوائف المحمديةوالمسيحية فيتداخل بهـا الاكليريوس فتورث مداخلاتهم ضغـائن وعوامل

---

(١) الشدياق ص ٥٣٩ (٢) المصدر نفسه ص ٥٥١
(٣) قال هذا ايضا المعلوف ، المؤرخ المسيحي لذلك القرن ، فى كتاب حوادث الشـام ص ١٠٣
(٤) ابو شقرا ص ٧ـ٨

عدوانية فى القلوب اذ كان الامير يعزز جانب الفئة المسيحية منها وهو على ذلك جاد جاهد فى توطيد دعائم النصرانية فى البلاد ونجاح مساعيهم وبسط ايديهم ونفوذ كلمتهم مع اخماد نار الدروز ودرس آثار عزهم وسؤددهم وغناهم . فنمت بذلك بين الطائفتين بذور الحسد وتأصلت فى افئدتهم جذور البغض والمشاحنة »(١) .

ثم يروي ابو شقرا حوادث عديدة اظهر بشير فيها عداءه للدروز ، مثل قتل زعيم الدروز الامير بشير جنبلاط ، وتولية المسيحيين على الشوف ، واعتماده على الجنود المسيحيين فى مقاتلة الدروز ، وسماحه للمسيحيين باضطهاد الدروز الساكنين بينهم وتحيزه معهم فى المحاكم ، واعفائهم من بعض الضرائب وجعله فرقة الحوالية بوليسا للبلاد ــ وهي جماعة مسيحية مسلحة ولم يكن فيها درزي واحد ، كان اجرها يؤخذ من الدروز بالقوة . كما يتهم الكاتب بشيرا بتشتيت الدروز ، وارغام بعضهم على النزوح الى حوران . ثم يصف حالة الدروز بأن منازلهم كانت « متداعية مهترئة ، والاشجار والمغروسات مقطعة محتطبة والاملاك مشققة مبذرقة ايدي سبا ، والبيوت الثرية مستنزفة اموالها بمظالم الامير بشير رازحة تحت اعباء الديون .. والمهابة الدرزية والوقار الذي يجلل كل درزي منزوعا مغتصبا » . اما المسيحيون فكانوا ، على خلاف عادتهم « من صفر الايدي وخلو الوفاض والخشوع والاحتشام ولين الكلام ، فى تعسر وخيلاء وعتو وشموخ اناف مرتبطين الجياد الصافنات بعد ارتباط الحمر والابقار ، وسكناهم العلالي الشاهقة بعد الاكواخ تقبض منهم الكف على نصاب الحسام الصقيل بعد ان كانت لا تعرف مقبضا غير الخرز والمطرقة»(٢) !

واغتنم المسيحيون مساندة بشير لهم فانتقموا من الدروز . وثار مسيحيو زحلة سنة ١٨٢٥ على الدروز واضطهدوهم ، ولم يتورعوا عن اقتراف القتل بوحشية . وكانت حجتهم فى ذلك انهم

---

(١) المصدر نفسه ص ٢٦
(٢) المصدر نفسه ص ٢٦–٢٣

انما يردون بهذه **الاعمال** على اضطهاد مسلمي البقاع لهم(١) . ويزيد ابو شقرا بأن المسيحيين ، فى عموم البلاد ، عذبوا الاطفال والنساء وسرقوا العقارات «وبلصوا» الابرياء طيلة حكم بشير والمصريين(٢).

* * *

بدا الحكم المصري سنة ١٨٣١ حين وصل **ابراهيم باشا** ، ابن، او متبنّى ، محمد علي ، الى لبنان ، على رأس جيش كبير ، واحتله مع باقي المناطق السورية . وبالرغم من تباطؤ الامير بشير بمساعدته بادىء الامر ، ارسل ابراهيم الى ابيه يمدح الامير بشير بمساعدته « صدق خدمته »(٣) ، معلنا بذلك بدأ التحالف الشهابي ـ العلوي الذي دام عشر سنوات ، على حساب دروز لبنان وسنييه . وقد **اسهم جيش بشير فى فتوحات ابراهيم** ، فالتحق معه الف مقاتل من الشويفات بقيادة خليل بن بشير . واحتلت هذه الفرقة طرابلس. وتعهد الفا مقاتل لبناني ، بقيادة قاسم بن بشير ، بحماية طرق التموين الى زحلة . واخضع جيش بشير ، العامل فى خدمة المصريين ، عددا من ثورات فلسطين وعكا وصافيتا وجبال النصيرية سنة ١٨٣٣(٤) . واشترك هذا الجيش فى فتح حمص ، وعين بشير حاكما على المدينة . وتولى خليل ومسعود ، ابنا بشير ، تعريف المصريين على طرق البلاد واوضاعها الجغرافية(٥) .

اما الدروز فاعلنوا الحرب على هذا التحالف ، وهرب زعماؤهم الجنبلاطيون والعماديون والنكديون الى دمشق وحلب لتحريض الشعب ضد ابراهيم وبشير . واتخذوا قرية بشندلاية ، قرب

---

(١) معلوف ، زحلة ص ١٣٨ ، ١٥٦ـ١٦١

(٢) ابو شقرا ص ٣٣

(٣) المصدر نفسه ص ٥٦٨ ؛ الشدياق ص ٥٦٧

(٤) المصدر نفسه ص ٥٧٨ (٥) ابو شقرا ص ١٨

حماه ، مركزا للعمل ضد المصريين وحلفائهم(١) . **فساعد هذا الحلف مسيحيي البلاد على اعدائهم الدروز ، ونشبت الفتن الطائفية فى عدة امكنة ، واهمها فى زحلة ودير القمر والمتن** . وتمكن المسيحيون من الانتصار على الدروز . وكافأهم ابراهيم باشا بأن اعفاهم من الضرائب ! (٢)

ولما حاول ابراهيم تجنيد الف وستمائة درزي رفض الدروز ذلك . فانتقم ابراهيم بأن امر بجمع الاسلحة منهم ، وصادر حوالي الف ومئتي شاب وارغمهم على الخدمة العسكرية . فحمي غضب الدروز واعلنوا الثورة على المصريين سنة ١٨٣٣ ، بقيادة **شبلي العريان** . واشترك الدروز اللبنانيون والسوريون بهذه الثورة اشتراكا فعليا ، سريا او علنيا ، بشكل عام شامل . ولما فشل ابراهيم فى اخضاع الثائرين عمد الى الدس الطائفي . فأوكل امر محاربتهم الى المسيحيين فى جيشه . وخصص اربعة الاف مسيحي لهذا الامر ، وسلمهم اسلحة وافرة ، ووعدهم بابقائها معهم مدى الحياة ، ولابنائهم من بعدهم ، مقابل مقاتلة مواطنهم . وكان بين هذه الاسلحة سبعة الاف بندقية صادرها الجيش من الدروز ! وقاد خليل بن بشير ، هذه الفرقة ، **فتحولت الثورة الشعبية ، بذلك ، الى حرب اهلية طائفية(٣)** .

وازداد عطف ابراهيم على المسيحيين ، ليزداد نفور الدروز منهم . وكان المسيحيون قد رحبوا بمقدمه لاملهم بأنه سيحررهم من القيود التي كانوا يرزحون تحتها ، لما سمعوا عنه من تحرير للاقباط المصريين. وسمح ابراهيم للارساليات التبشيرية المسيحية، الاجنبية ، بتأسيس مراكز ثابتة لها فى لبنان . واعطاها حرية كاملة للعمل . وادى هذا الى قيام اشهر مؤسستين ثقافيتين اجنبيتين فى لبنان ــ الارسالية الاميركية سنة ١٨٣٤ واليسوعية ١٨٣٩ . ووضع ابراهيم نظاما اداريا لا طائفيا . وسمح للمسيحيين

---

(١) الشدياق ص ٥٧١
(٢) المصدر نفسه ٥٧١ــ٥٧٨ ؛ رستم ، المحفوظات ١ : ٥٨٤
(٣) الشدياق ٥٨٢ــ٥٨٧ ؛ الخازن ١ : ٥

بالاشتراك فى انتخابات مجلس الشورى(١) وارسل عددا من الشبان المسيحيين لتعلم الطب فى مصر على حسابه(٢) . وحطم بعض الاقطاعات غير المسيحية مثل آل الحرفوش فى بعلبك وآل شهاب فى حاصبيا وراشيا(٣) . ومنح المسلمين حق التساوي فى اللبس والعادات الاجتماعية مع المسلمين . وخفف عنهم الضرائب، بحيث انحاز مئات الدروز الى الكثلكة ، ليخلصوا هم ايضا من الضرائب المفروضة عليهم(٤) . ويلاحظ من يتبع تاريخ تاريخ ابراهيم ومحمد علي **أن الكثير من هذه الاحسانات على المسيحيين فى لبنان لم تعط لمسيحيي مصر ، وهذا دليل على القصد الخفي الذي كان وراء هذه التصرفات !**

واشترك المسيحيون مع المصريين ، مرة اخرى ، فى محاربة الدروز والتنكيل بهم . وكان ذلك سنة ١٨٣٩ عندما قام الدروز بثورتهم المشهورة ضد ابراهيم باشا ، فى كافة انحاء سورية الطبيعية . وتطوع اربعة الاف مسيحي لبناني لمحاربة دروز حوران . وكان معظمهم من الموارنة . فاعتبر الدروز اللبنانيون هذا التطوع تحديا لهم . وزاد فى النقمة تبجح هؤلاء المحاربين ، بعد رجوعهم الى لبنان ، بمعاركهم ضد الدروز ، وبأسلحتهم التي سمح المصريون لهم بابقائها معهم ، وكانت تبلغ ست عشر الف بندقية(٥).

الا ان السياسة الدولية لم تسر حسب رغبة المصريين . فقد قررت الدول الاوروبية الكبرى ، بعد اتساع رقعة الفتوحات المصرية فى جسم الامبراطورية العثمانية ، ان توقف مصر عند حدها، حفظا على كيان هذه الامبراطورية التي لم يكن سقوطها فى صالح دول اوربة . وارغمت هذه الدول المصريين على الانسحاب من سورية الطبيعية . ولتنفذ قراراتها ارسلت عملاءها الى لبنان ليثيرا الشعب ضد المصريين . وكانت الطائفية ، كالعادة ، سلاح

---

(١) مزهر ١ : ٤٨١
(٢) الشدياق ص ٥٨٨
(٣) مزهر ١ : ٤٨٨
(٤) Springett ص ٢٠٣
(٥) مزهر ١ : ٥١٢

هؤلاء العملاء . فاستغلوا حادثة اعتقال سلطات الامن المصرية بعض الطلاب اللبنانيين المسيحيين المقيمين فى مصر ، وحادثة مجيء شحنة من الاثواب العسكرية الى مرفأ بيروت ، واذاعوا بين الناس ان ابراهيم باشا ، السني ، ينوي اضطهاد المسيحيين ، مثلما اضطهد الدروز ، ويعزم على ادخالهم فى جيشه بالقوة(١) .

وايد ابراهيم هذه الاشاعات حينما امر بجمع اسلحة المسيحيين ، حتى تلك القطع التي تعهد بابقائها معهم مدى الحياة ! فعصى المسيحيون الامر ، وتنادوا الى الثورة ضده ، بزعامة فرنسيس الخازن . فخشي محمد علي من اشتداد هذه الثورة ، وحاول ان يستميل اليه المسيحيين من جديد محرضا اياهم ضد الدروز . الا ان المسيحيين صمموا على متابعة الثورة ــ وكان رسل الانجليز يشدون من ازرهم(٢) . وتمكن هؤلاء الرسل من اقناع الثائرين بطلب معونة اوربة ضد مصر ، بالرغم من محاولات المصريين لاقناع البطريرك الماروني ، يوسف حبيش للبقاء الى جانبهم(٣) . ولما علم محمد علي بوصول السفن الاوروبية الى مياه لبنان لطرد ابنه لعب ورقته الاخيرة، فاعلن تحالفه مع الدروز، ضد المسيحيين. فاطلق سراح زعماء الدروز المأسورين فى مصر ، من آل جنبلاط وعماد ونكد ، وارجعهم الى لبنان ، بعد ان منحهم الهدايا والالقاب، وطلب اليهم تحريض اخوانهم ضد العثمانيين والمسيحيين . وجمع ابراهيم بعض مشايخ الدروز ووعدهم بمنحهم مقاطعة كسروان ، مقابل مقاتلة المسيحيين . كما سلّم آل تلحوق وعبد الملك ودروز بعقلين بعض الاسلحة التي جمعها من المسيحيين . وقال ابراهيم ، فى تعليل سياسته هذه ، كلمته المشهورة « **وكما لا يقطع الالماس الا الالماس كذلك لا يقطع الجبليين الا الجبليون !** »(٤) .

غير ان المسيحيين والدروز تكاتفوا معا فى حرب واحدة ضد

---

(١) الشدياق ص ٥٨٨–٥٨٩
(٢) المصدر نفسه ص ٥٩١–٥٩٣
(٣) المصدر نفسه ص ٥٩٥
(٤) مزهر ١ : ٥٦٢

المصريين ، برعاية الاروبيين ، ولم تنجح محاولات مصر كثيرا . فقد قرر مندوبو الدروز والموارنة والشيعيين والسنيين العمل المشترك ضد المصريين فى اجتماع عقدوه فى انطلياس ، فى الثامن من حزيران سنة ١٨٤٠(١) (دون ان يمنع هذا التحالف بعض الدروز من موالاة المصريين ضد المسيحيين ، والعمل معهم لحرق الكنائس واضطهاد الابرياء) (٢) . وكان ابراهيم يخشى تحالف بشير مع الثوار ضده . لذلك ارسل حنا البحري ، الموظف عنده « يقيم عنده عينا عليه » . وسعى حنا المذكور لاثارة الموارنة على الدروز من جديد ، ولكن دون جدوى(٣) . اما بشير فظل وفيا لمصر ، وان كان قد اتصل مع الثوار فى مناسبات كثيرة . وعوقب ونفي من البلاد سنة ١٨٤٠ لقاء هذا الوفاء . وهذا ما دعا محمد علي لان يكتب اليه ، وهو منفي فى مالطة « انك ولئن تركتني وخالفت وعدك معي فانا باق على محبتك حيث تأكيدي توجهك الى مالطه جاء بسبب خدمتك اياي . فكن مطمئنا فأني انشاءالله تعالى اجعل صالحك كصالحي »(٤) .

* * *

راينا ان طرد المصريين من سورية الطبيعية تم على ايدي تدخل الدول الاوربية . ولا مجال لنا هنا لان نتحدث عن اسباب هذا التدخل وعلاقته بالمسألة الشرقية التي كانت محور العلاقات الدولية فى القرن الماضي . ولكن يهمنا ان نكشف ــ ما دمنا نقف على عتبة موضوع تدخل اوربة الاستعماري بشؤون سوريا ولبنان ــ عن مدى اهتمام تلك الدول بلبنان ، وبالطائفية فى لبنان ــ ذلك الاهتمام الذي ظهر بشكله السافر منذ ١٨٤٠ تقريبا .

وكان العثمانيون قد اعتبروا الطائفة السنية فى البلاد نصيرة لهم ، بعد ان وجدوا دول اوربة تعتمد على طوائف البلاد المختلفة .

---

(١) الخازن ١ : ٢-٣ ؛ الشدياق ص ٦١٣
(٢) مزهر ١ : ٥٠١ (٣) مشاقه ص ١٢٧-١٣٠
(٤) الشدياق ص ٦١٥

فالسنيون كانوا الوحيدين الذين لم يعثروا لهم على سند فى اوربة. واما مصر ، وهي بلد سني ، فقد ناصرت الموارنة ، اعداءهم ، وحرمتهم هم من حقوقهم ، ومن امتيازاتهم التقليدية . لذلك توثقت علاقات العثمانيين مع السنيين ، بعد ان اظهرت الدولة العثمانية نفسها بمظهر المدافعة عن « بيضة الاسلام » والحريصة على حماية حقوق المسلمين ، بدورها الذي تلعبه منذ القرن السادس عشر ، كمركز الخلافة الاسلامية .

وعامل العثمانيون المسيحيين معاملة مختلفة عن المسلمين . فقد سمح للمسلمين بدخول الادارة والجيش . واعتبروا مواطنين فى الدولة ، كالعثمانيين انفسهم . اما المسيحيون فاعتبروا رعايا . وعنى ذلك حرمانهم من بعض الحقوق الادارية والعسكرية. وحرموا من حق المساواة مع المسلمين . وعاشوا على هامش حياة البلاد وكان لكل طائفة منهم حقوقها الخاصة المحمية من الاجانب ، ومجالسها الادارية المسؤولة عن رعاية شؤونهم الدينية والسياسية معا . وجعلت كل طائفة ملة خاصة ــ « امة » مستقلة قائمة بذاتها . **وفي حين انقسم المسيحيون الى هذه الملل المتناحرة ، تجمع السنيون حول الخليفة العثماني واعتبروه رمزا للوحدة وصلوا له فى الجوامع وتفانوا فى خدمته[1] .**

وسأترك للدكتور مشاقه وصف الاضطهاد الذي كان مسلمو البلاد ينزلونه بالمسيحيين ، برعاية وتحريض وحماية الدولة العثمانية التي سعت الى التفرقة ابقاء لنفوذها : « كان التعصب بالغا اشده بشعب ذلك العصر حتى تجاوز به القوم حدود الافراط. وكان المرء منهم يحسب كل رجل غير متدين بدينه جاز له قتله والاعتداء عليه ولا اثم فى ذلك ولا تريث فى ابتزاز ماله وعرضه ... وكان فريق من العلماء واهل التقوى يرون معاملة الذمي بالحسنى تبعا لقواعد الدين الشريف ــ ولكنهم لم يتوفقوا لردع الرعاع فى زمان عمت فيه الفوضى وساد الجهل والهمجية . وكان المسيحي

---

(١) الحصري ، محاضرات ١٦١

عرضة للاهانة والذل اينما مر او حل . وكان المسلم يسيء معاملته لدرجة مفرطة حتى ألف الذل كما الف مذلة اذلاله . فكان النصراني حيثما مر وتوجه ينعت بالكافر ويشتم صليبه ويحتقر وتقلب عمامته ويصفع ويرفس الى غير ذلك من الاهانة . وكان اذا مر فى حي المسلمين لحقه صبيان الازقة معيرين قائلين له : نصراني كلب عواني رقوله بالصرامي ؛ قالت امه فينه ضربه تقلع عينه... وكان المسلم اذا مر بمسيحي يقول له اشمل ، يريد بذلك ان يسير عن يساره فيفعل صاغرا . واذا كثرت الناس بالطريق بين ذاهب وآيب كثر شقاؤه ولا يعلم كيف يذهب فيدعى للطورقة فيطورق اي يمشي على الطاروق ... والطاروق عبارة عن منخفض فى وسط الشارع تسير به البهائم ... تتجمع به الدواب محملة وفي فصل الشتاء يجتمع به ماء الشتاء وفي الصيف الاقذار ... وكان كثيرا ما يسخره اصحاب الدكاكين لقضاء حوائجهم ، او يستعملون اهانته واسطة لاذهاب مللهم وتفرح كربهم ... وكانت تلك العمة كبيرة مستحكمة الربط كي تنفلت على ما تقدم وتقي ضمنها ورقة الجزية لانه لو سار خطوة بدونها عرض نفسه لخطر الاهانة .. وكان قانون الحكومة اذ ذاك يكره المسيحي ان يحمل على كتفه كيسا يسمونه يس الحاجة وليس له ان يخرج من بيته بدونه . والمقصود من هذا الكيس ان يضع به من الاغراض وحوايج المسلمين ما يسخره هؤلاء بحمله ... وكانت اموال المسيحيين مطمعا للحاكم وغيره . ولم يكن الحاكم وحده يضغط على النصارى ماليا بل هناك كان يؤدي جزية لزعماء الرعاع من المسلمين ليتركوا له حياته ثم الى المتشردين من الابضيات وأهل البأس ... وكان اكثر التعدي الذي يقع بأهل الذمة من الجند والاوباش ورعاع الاسلام كثيرا ما اضطر بعضهم لاعتناق الاسلام هربا من الحيف والذل...» (١)

وكانت الاصلاحات التي وعد العثمانيون بتحقيقها ـ وقد صدرت فى « خطين شريفين » فى ١٨٣٩ و١٨٥٦ ـ من اجل تحسين

---

(١) مشاقة ص ٢٦-٢٩

احــوال المسيحيين قد اثارت نقمة المســلمين على المسيحيين فى لبنان ، اذ شعروا بزوال سيادتهم عن هؤلاء «الرعايا». وهكذا اثار الوعد بهذه الاصلاحات التي لم تتحقق طائفة على اخرى. وضمنت الدولة العثمانية بذلك استمرار « حاجة » البلاد اليها لتهدئة الفتن فيها . فقد شعرت ان خروج لبنان عن سلطانها يعطي مجال التحرر لباقي المقاطعات التي كانت ترزح تحت حكمها . ولم يكن لها من وسيلة للبقاء الا بالطائفية . فارتباطها بالسنيين هو الذي يقف امام ارتباط الموارنة والدروز بالافرنسيين والانجليز ـ هذا الارتبــاط الذي كان يهدد مصالح العثمانيين فى لبنــان ويعرض سيــادتها للزوال[1] .

* * *

وكانت فرنسا تعتبر نفسها حامية المسيحيين فى الشرق ، وخاصة الموارنة فى لبنان، بمقدار ما كان الموارنة يعتبرونها صديقتهم الكبيرة الاولى . فقد جرت التقاليد فى البلدين على اعتبار الصداقة المارونية الافرنسية فى غاية العراقة ، تدعمها القــرون الطويلة ، وتجعل فرنسا لا تقبل منافسة دولة اخرى فى هذه الصديقة ، وتجعل الموارنة لا يقبلون منافسة طائفة اخرى فى الولاء لفرنسا .

يرجع اصل هذه العــلاقات الى القرن الثالث عشر ، حــين ارسل الملك لويس الافرنسي سنة ١٢٥٠ رسالة من عكا الى موارنة لبنان يقول فيها «الى امير الموارنة بجبل لبنان والى بطريرك واساقفة الطائفة المذكورة : ان قلبنا امتلأ فرحا لما رأينا ولدكم سمعان قد اتى مع ٢٥ الفا حاملا الينا حاستكم الحبية ومقدما لنا الهدايا الفاخرة. . وبالحقيقة ان محبتنا الخالصة التي ابتدانا ان نستشعرها نحو امة الموارنة ايام حلولنا فى قبرس حيث هم مقيمون قد تضاعفت اليوم

---

(١) Charchill ص ٥٤

بزيادة ونحن موقنون ان هذه الامة التي قامت تحت اسم القديس مارون هي قسم من الامة الفرنسية ، لان محبتها للفرنسيين تشبه محبة الفرنسيين بعضهم لبعض . وعليه فيجب من قبيل العدل ان تتمتعوا انتم وجميع الموارنة بنفس الحماية التي يتمتع بها الفرنسيون من جانبنا وان تقبلوا فى الوظائف كما هم يقبلون... اما نحن وجميع الذين يخلفوننا على عرش فرنسه فنعد بأننا نوليكم انتم وجميع شعبكم حمايتنا الخاصة كما نوليها للفرنسيين بعينهم »[1] .

وعقد فرانسيس الاول سنة ١٥٣٥ معاهدة مع السلطان سليمان ، العثماني ، بدات ما يعرف **بالامتيازات الاجنبية** . وقد نصت هذه الامتيازات ، من بين الحقوق الاخرى ، على حماية فرنسا لكاثوليك الدولة العثمانية . ثم جددت المعاهدة سنة ١٦٧٣، واعتبر الكهنة الكاثوليك فى الدولة رعايا افرنسيين . وكان ملك فرنسا قد ارسل الى سفيره فى القسطنطينية ، منذ ١٦٣٩ ، طالبا اليه حماية مسيحيي الدولة عند الحاجة . كما ارسل لويس الرابع عشر سنة ١٦٤٩ كتابا الى البطريرك الماروني فى لبنان يتعهد فيه بحماية الموارنة مرة اخرى[2] . واضطر السلطان سليمان الثاني مرتين ، ازاء الحاح فرنسا ، لان يعد الموارنة بحرية دينية كاملة ؛ وسمح لقنصل فرنسا بأخذ مكان مرموق فى الكنيسة الكاثوليكية ، مثلما كان مكانه مرموقا فى الدولة[3] .

ودعمت فرنسا هذه العلاقة السياسية المتسترة بثوب ديني بتعهد العلاقات التجارية والارساليات التبشيرية بين لبنان وفرنسا. فقد ضاعفت فرنسا عنايتها بامور التجارة ، وارسلت القناصل واسست المكاتب والمراكز الثابتة لتسهيل امورها . وكانت فرنسا منذ ١٥٢٠ قد حاولت ضم لبنان اليها بالقوة ، للحصول على ثروته وكنوزه ، حينما ارسلت اسطولا يتألف من خمس عشرة

---

(١) الدويهي ، تاريخ الطائفة ص ١١٠

(٢) دريان ص ١٧٣

(٣) Miller ص ١٥٢

سفينة الى سواحل لبنان . الا ان مسلمي ودروز السواحل هاجموا الجنود الافرنسيين وطردوهم(١) . وجعل آل الخازن ، منذ ١٦٦٢ ، قناصل لفرنسا فى لبنان . وكان ابو نوفل الخازن اولهم(٢). ثم اصبحت الوظيفة وراثية فى هذه العائلة .

اما **التبشير** فكان الميدان الاوسع لانماء العلاقات الطائفية . وكانت الدول الاوربية قد بدات الاهتمام بالتبشير منذ انتهاء الحروب الصليبية ، اذ شعرت ان استرجاع الاماكن المقدسة لن يتم بالحرب بل باقناع المسلمين للايمان بالمسيحية . وكان ريموند لل وفرنسس الاسيسي ووليم الطرابلسي من دعاة هذه الفكرة . وعلى اساسها قامت الارساليات الكاثوليكية ـ الكرمليين والفرنسسكان والدومينكان . وبدات هذه الارساليات تفد الى لبنان منذ القرن الثالث عشر(٣) . ثم لحقتها الارساليات الجزويتية والقديس يوسف والفرير . وانتشرت الرهبنات الافرنسية فى لبنان فى القرن السابع عشر ، وكان الموارنة يرحبون بذلك (٤) . ورعى ملك فرنسا بنفسه شؤون التبشير ، فى ذلك القرن ، واهتم ببناء الكنائس . وبدات فرنسة تستقبل رجال الدين اللبنانيين وتعلمهم فى مدارسها الدينية على حسابها . وواصلت فرنسا رعايتها للارساليات فى الشرق ، بالرغم من اضطهادها لها فى فرنسا نفسها ، خاصة فى ١٧٦٥ ، ١٧٦٧ ، ١٨٠٤ ، ١٨٨٠ ، ١٩٠١ الخ..(٥)

جعلت هذه الارتباطات الراي العام الماروني يؤمن بأن فرنسه هي حليفته الاولى . لذلك لم تكن فرنسه تترك مناسبة الا وتتدخل فيها. وفي الوقت نفسه كانت تحض الموارنة على مقاومة الاضطهادات الطائفية باضطهادات مماثلة ، واعدة اياهم بمساعدتها وحمايتها لهم. وكان اول تدخل سياسي رسمي من هذا القبيل الطلب الذي تقدم به ملك فرنسا سنة ١٦٩٣ من الباب العالي ، من اجل تعيين الامير

---

(١) Stripling ص ٦٤   (٢) الدبس ٧ : ٢٨١
(٣) Hitti, History of Syria ص ٦٢٥ـ٦٢٦
(٤) الدويهي ، تاريخ الازمنة ص ٣٦٤
(٥) Jessup ص ٦٥٩

احمد بن معن ، اميرا على لبنان ، ضد منافسيه آل علم الدين . ثم تابع لويس الخامس عشر سياسة التدخل هذه فى امور كثيرة .

وكان اهتمام فرنسا وتدخلها يزدادان كلما لمست ازديادا فى **اهتمام بريطانيا فى الشرق . فقد كان لبريطانيا ، هي الاخرى ، مطامعها ومصالحها فى هذا الجزء من العالم . ولما لم يكن لبريطانيا طائفة تشترك معها فى المذهب (اذ ان البروتستانتية لم تنتشر فى لبنان الا فى نهاية القرن الماضي ، وهي ، حتى اليوم ، لا تشكل دعامة للمصالح الاجنبية فى البلاد ، لان قلة عدد افرادها ادت الى ابتعادهم عن مجرى النزاع الطائفي السياسي) اضطرت ، بادىء الامر ، الى الاعتماد على التجارة ، والتدخلات الرسمية والخفية فى بلاط الخليفة العثماني .**

وترجع المصلحة البريطانية فى الشرق الى الحروب الصليبية، التي عرفت بريطانيا ، مثل فرنسا ، على الشرق ، وغناه . وتأسس عدد من الوكالات التجارية لبريطانيا فى سورية منذ القرن السادس عشر . ثم ازداد الاهتمام الانجليزي بسورية فى القرن الثامن عشر ، عندما اصبحت الهند وشرقي اسيا محورين رئيسيين للثروة البريطانية الاستعمارية . وارسلت بريطانيا عشرات الرحالة والمؤلفين والموظفين لدراسة أحوال سورية كطريق رئيسية الى الهند . ودرست الحكومة البريطانية سنة ١٨٣٥-١٨٣٧ مشروع مد خطوط برية ومجار بحرية بين البحر المتوسط والمحيط الهندي عبر سورية ، وارسلت بعثة شسني المشهورة لهذا الغرض .

ولم يكن دور روسيا فى الاهتمام بسورية الا من قبيل المنافسة مع بريطانيا وفرنسا ، اذ كانت تنافسهما فى وراثة الدولة العثمانية. وروسيا هي التي فتحت ابواب المسألة الشرقية ، فى معاهدتها مع العثمانيين سنة ١٧٧٤ التي اعطتها حق الاشراف على حقوق الرعايا الارثوذكس فى الدولة . وهذا الحق هو الذي قادها الى التدخل

---

(١) Seton-Williams ص ١٠١

فى شؤون سورية الداخلية ، مثلما كانت فرنسا تتدخل بحجة حماية الموارنة . ولما ثار ظاهر العمر ، والي صفد وعكا ، على العثمانيين امدته روسيا بفرقة بحرية صغيرة(١) . ولكن روسيا لم تظهر اي اهتمام خاص بلبنان الا بعد سنة ١٨٤٠ .

اما ايطاليا فقد اقتصر اهتمامها على ارسال البعثات الدينية وتاسيس المدارس الطائفية . ولم تصبح خطرا على مجرى السياسة الدولية فى هذا المضمار ، لحداثة عهدها بالعمل السياسي الدولي وتأخرها عن حلبة صراعه . وكانت ارسالياتها التبشيرية ضعيفة ؛ ولم تكن الحكومة تدعمها ماليا ومعنويا وسياسيا مثل حكومة فرنسا . ثم اغتنمت فرنسا فرصة الخلاف الذي نشب بين الفاتيكان والحكومة الايطالية وانفردت فى تقرير مصير الارساليات الكاثوليكية والسيطرة عليها لصالحها . واصبح القاصد الرسولي ، منذ ١٨٧٠ ، افرنسيا ، بعد ان كان ايطاليا (٢) .

ولم يزد دور النمسا عن دور ايطاليا . فقد اكتفت حكومتها ، من بعد حملة ابراهيم باشا ، بالاشتراك فى التصويت وتقديم الاقتراحات لمستقبل لبنان ، دون ان يبدر منها مساع خاصة للتدخل فى شؤونه الداخلية . وكانت فرنسا تأخذ مكانها فى حماية الكاثوليك ، مثل الموارنة . وبالرغم من سعي النمسا سنة ١٨٤٠ لان تجعل نفسها حامية الكاثوليك ظل كاثوليك البلاد محافظين على ولائهم لفرنسا(٣) . ولم تفلح اعاناتها المالية وتدخلاتها فى الاستفادة من الخلاف الذي نشب بين الموارنة وفرنسا(٤) .

* * *

وجدت الدول الاوروبية ، حامية هذه المطامع التي تكلمنا عنها فى الصفحات الماضية ، ان سقوط الدولة العثمانية امام الجيش المصري يعني ضياع مصالحها فى هذه الدولة . فمحمد علي

---

(١) الشدياق ص ٣٩٠–٣٩٢
(٢) الحصري ص ١٧٤
(٣) غالب ص ٢١٥
(٤) مزهر ١ : ٥٧٠ ؛ الخازن ١ : ١٣ ، ٥٠

لم يكن صديقا لأي منها ، الا فرنسا . وهذا يعني ان مصالح روسيا والنمسا وبريطانيا وبروسيا ستقع فى ايدي مصر ، وفرنسا من ورائها . لذلك اجتمعت الدول المذكورة فى مؤتمر عقد فى لندن سنة ١٨٤٠ ، وقررت حماية الدولة العثمانية ـ هذه الدولة التي مضى على اوربة عشرات السنين وهي تحطم كيانها .

وارسلت الدول الاوربية اساطيلها ، بقيادة السير شارلز سمث البريطاني . وحملت السفن المشتركة المتوجهة الى سواحل لبنان لطرد ابراهيم باشا ٥٢٠٠ جندي عثماني ، و١٥٠٠ بريطاني ومئة نمساوي . واضطرت فرنسا ، عندما رات نفسها تخسر بوقوفها الى جانب محمد علي الخاسر ، الى الانحياز الى جانب « الحلفاء » الاوربيين .

وبينما قررت هذه الدول الاوربية العمل المشترك لطرد المصريين ، وحماية العثمانيين ، قررت كل منها العمل الفردي ، لتوسيع نفوذها فى البلاد ، واستغلال ضعف الدولة على حساب الدول الاوربية الاخرى . واصبحت الاستانة مركزا لهذا الصراع الدولي ، فى سورية الطبيعية عموما ولبنان خصوصا . ولما كانت الطائفية المطية التي ركبها هؤلاء المتصارعون فى حلبة صراعهم ، اعتبر كل سفير اوربي فى الاستانة نفسه وسيطا بين دولته والطائفة التي ترتبط بلاده بها .

وكانت بريطانيا قد سبقت هذه الدول فى ارسال دعاتها الى لبنان لتحريض الشعب ضد ابراهيم باشا والامير بشير . فقدم الى غزير ، فى كسروان ، منذ ١٨٣٩ ، كاهن ايرلندي الاصل ، اسمه وود ، وادعى انه جاء ليتعلم العربية هناك . ولكنه كان ، اذ يدرس العربية ، « يلقي بذور الشقاق فى قلوب الاهالي » (١) . ووعد وود البطريرك حبيش بمساعدة بريطانيا لاعلان جبل لبنان امارة مارونية مقابل مساعدة الموارنة لها . وفي الوقت نفسه اكد

(١) مشاقة ص ١٢٦

وود للدروز صداقة بريطانيا لهم وعطفهم عليهم . ومثل وود سعى كل من تشرشل واونفرا واللادي استنهوب وغيرهم من البريطانيين الذين اقاموا فى لبنان ، تحت ستار توزيع الهدايا ومصادقة الشعب، الى اثارة العصبية الطائفية لفتح المجال امام بريطانيا لكي تتدخل(١). ولم ينس هؤلاء ، لما اتسع نطاق اتصالهم مع الدروز ، ان يطلبوا من الدولة العثمانية الاحسان الى الموارنة والانعام عليهم ، لجهادهم ضد مصر ! (٢)

وانتشر عمال فرنسا فى البلاد . وتجولوا بين القرى المارونية، طالبين الى السكان رفع الاعلام الافرنسية لنيل حظوة الجيوش الحليفة(٣) . ويظهر ان بشيرا نفسه وثق بهذه الحماية الافرنسية للموارنة ، فحاول الاحتماء بالقنصلية الافرنسية ، لما شعر بقدوم الحلفاء لاعتقاله(٤) .

ولم تلق بريطانيا وفرنسا صعوبات كثيرة امامها ، من اجل بسط نفوذهما فى لبنان . فقد كان لبنان فى جو قلق متوتر ، بعد نفي الامير بشير الثاني . وكانت العلاقات بين طوائفه شديدة التوتر ايضا . فقد استعاد المسلمون ضغطهم على المسيحيين منذ خروج ابراهيم باشا ، واضطهدوا وعذبوا الكثيرين . وجرت عدة حوادث انتقامية ارغمت بعض المسيحيين الى الالتجاء الى حماية الدول الاجنبية(٥) . واصدر السلطان العثماني ، فى هذا الجو ، فرمانا عيَّن فيه بشير القاسم اميرا على لبنان ، منذ الثالث من ايلول ١٨٤٠ ، خلفا للامير المنفي . وكان بشير مسيحيا . فلم يرض الدروز عن هذا التعيين ، بحجة شدة تعصبه ضدهم(٦) .

فخشي الموارنة ان ينجح الدروز فى معارضتهم ، وكتب بطريركهم صك معاهدة بين امراء ومشايخ وعامة الموارنة يتفقون

---

(١) مزهر ١ : ٤٩٥-٥١١ ؛ حنين ص ١٠٩
(٢) الشدياق ص ٦١٧
(٣) رستم ، اصول ٥ : ١٥٢
(٤) ابو شقرا ص ٢٤
(٥) Charchill ص ٣٤-٣٥
(٦) الشدياق ص ٦١٥

فيها على العمل المشترك لحماية مصالحهم . وطالبوا بتخفيض الضرائب عنهم ومساواتهم بباقي الطوائف[1] . ويتهمهم ابو شقرا ، الكاتب الدرزي ، بأنهم عملوا على « انتخاب جماعة من الاشقياء وتجريدهم لقطع الطرق على ابناء السبيل من الدروز وفتكهم بمن استطاعوا اليه سبيلا »[2] . فغضب الدروز واعتبروا هذه الاعمال تحديا لهم لكي يتكتلوا هم ايضا وينزلوا الى معركة الصراع الطائفي من جديد . ولكن بعض الوسطاء نجحوا فى اقامة تحالف مسيحي درزي ، مؤقت ، قضى بايجاد تفاهم بين الطائفتين ، حول المسائل المتنازع عليها[3] ـ وهو تحالف شبيه بالميثاق الوطني الذي عقدته طوائف لبنان بعد قرن من الزمان .

وعاد الخلاف من جديد لما نشر العثمانيون مشروعهم لادارة لبنان ، اذ أسسوا ديوانا للامير يتألف من اثني عشر درزيا ونصرانيا. فقد رضي المسيحيون بهذا ، فى حين رفضه الدروز « لان الديوان يوقفهم عن اطلاق حريتهم بسياسة رعاياهم . اما الموارنة فازدروا برؤسائهم وبباقي الطوائف وطمعوا بتنازل الدولة معهم فى الاموال الاميرية . فلما بلغ الدروز والملكية ذلك ارتابوا من العاقبة وجعلت الدروز يحزبون معهم الملكية . ورفعوا من بينهم الاحقاد والثارات وعرضوا ذلك على الدولة وعمال الانجليز فانجذبت الملكية اليهم لتوهمهم ان غاية هذا الاتحاد هو استعبادهم لهم »[4] . ثم ازداد الخلاف بين الفريقين عند توزيع الاراضي بين الطوائف ، وادعى الدروز ان اراضيهم فى البقاع سلمت للمسيحيين[5] .

وعلى حين فجأة وقعت الفتنة الطائفية الاولى فى هذا العهد المضطرب ، المعروف بعهد الفتن ، بين ١٨٤٠ـ١٨٦٠ . وهي فتنة

---

(١) مشاقة ص ١٤٥ (٢) ابو شقرا ص ٢٧
(٣) الشدياق ص ٦١٧ـ٦١٩
(٤) المصدر نفسه ص ٦١٩ـ٦٢٠
(٥) المصدر نفسه ص ٦٢٠

سنة ١٨٤١ . وكان الجو الممهد لهذه الفتنة مضطربا بحيث كان الناس « فى قلقة ونفور وحركة القوم غير عادية » وكان الكل يتأهبون للقتال اذ كانت الدولة العثمانية « قد نضجت مساعيها ونفخت فى صدور الدروز روحها السامة فملأتها وما عاد ينقصها عن الانفجار الا سبب طفيف »[١] .

وحصل «السبب الطفيف» هذا حينما **اصطاد احد ابناء دير القمر ، وهو مسيحي ، حجلا قرب قرية بعقلين الدرزية ! فاعترضه احد الدروز وتشاجر معه** . وتجمع الطرفان ، من البلدين ، للانتقام من هذا الحادث الفظيع ! واتسع نطاق القتال فى ايام معدودة ، واصبحت البلاد بأكملها فى فتنة مستعرة الاوار . وبينما جمع مشايخ الدروز رجالهم وارسلوهم للقتال ، وزع البطريرك الماروني منشورا حضهم فيه على الانتقام . واستمرت الحرب بين منتصف ايلول واوائل تشرين الثاني[٢] .

اما الجيش العثماني فكان ينظر الى هذه الفتن بسرور ، لانها تدع لهم مجالا للبقاء فى لبنان . وبين معاصري تلك الثورة من يؤكد ان العثمانيين عرفوا بها قبل وقوعها[٣] . ويروي مشاقه انه شاهد والي دمشق وهو يوزع السلاح على الدروز بكميات كبيرة[٤] . وارسل هذا الوالي الى قائد الجيش العثماني فى لبنان يحذره من العمل على ايقاف الفتن ، لانها تسير حسب خطة الباب العالي[٥] . كما اعترف شبلي العريان بأن العثمانيين هم الذين اعطوه السلاح لمحاربة المسيحيين[٦] . وعامل العثمانيون اللاجئين النصارى بمنتهى الوحشية ، حتى قال الناس **« افضل ان نكون ضحايا العداء الدرزي من ان نكون ضحايا الحماية العثمانية ! »**[٧] وكان الضباط العثمانيون يأمرون بهدم حصون المسيحيين ليعرضوهم للخطر . ولما كان الاهالي يحتجون على ذلك كان الضباط يجيبون « ان الدولة

---

(١) مشاقة ص ١٤٥
(٢) المصدر نفسه ص ٦٢١–٦٤٠
(٣) Charchill ص ٥٥
(٤) مشاقة ص ١٤٦
(٥) » ص ٥٦
(٦) الخازن ١ : ٧١
(٧) » ص ٥٢

تقيهم وليس الحصون ! » حتى مصطفى نوري باشا ، القائد الذي ارسله العثمانيون ، متأخرين ، لاصلاح الاحوال ، انحاز الى جانب الدروز ، ورفض قبول المظالم المسيحية(١) ؛ وكان « يأمر وينهي ويعدم من النصارى كل من عرف له مكانة » . وامر مصطفى باطلاق سراح المعتقلين من الدروز ، بالرغم من اثبات التهمة عليهم . وحجته انهم « لم يثوروا الا بامر الدولة وتحريض عمالها بسورية والي صيدا ووالي دمشق بأمر من صهر السلطان الذي قدم من الاستانة بهذه المهمة لذبح العبيد المارقين بزعمه »(٢) . واعفى مصطفى الدروز من دفع الغرامة المفروضة عليهم(٣) .

وازداد التقرب العثماني الى الدروز لما صدر القرار بعزل الامير بشير الثالث ونفيه الى الاستانة ، اذ حملت السلطات العثمانية هذا الامير وزر ما اقترفته هي . فسر الدروز لهذا العزل ، لانهم اتهموا بشيرا باحتقار شيوخهم واهانتهم ؛ وبتآمره على السيدة حبوس ارسلان التي كانت تتزعم جماعة كبيرة منهم(٤) ؛ وبمصادرة ممتلكاتهم وتوزيعها على اقاربه ؛ وبخضوعه لمطالب البطريرك الماروني (٥) .

عاد موضوع مستقبل لبنان الى بساط البحث ، داخل لبنان وخارجه ، وشغل السياسة الدولية من جديد . وكان بشير الثاني ، بعد ان سمح له العثمانيون بالاقامة فى اسيا الصغرى ، يطالبهم بارجاعه الى لبنان . وكاد الباب العالي يلبي طلبه ، لولا تحريض مصطفى باشا ، الذي اجبر اللبنانيين على التوقيع على «عرضحالات» وزعها عليهم ولم يسمح لهم بالاطلاع على محتوياتها . وكانت هذه العرائض تعلن رفض اللبنانيين لقبول بشير الثاني اميرا عليهم . ويقال ان الامير امين ، ابن بشير ، لما سمع بأن بعض المسيحيين اشتركوا مع الدروز فى التوقيع على هذه العرائض غضب وانسحب،

---

(١) الشدياق ص ٦٣٩–٦٤٠
(٢) مشاقة ص ١٥١
(٣) Charchill ص ٦٤
(٤) ابو شقرا ص ٣٥
(٥) » ص ٣٧

مع عدد من اخوته ، من المذهب المسيحي(١) . **فقد كان بشير ، منذ ان خرج من لبنان ، دائم الاتصال مع الموارنة ، ليحثهم على المطالبة بارجاعه ، وليشدد عزائمهم ويمنيهم بالامال(٢) . والحقيقة ان الموارنة ظلوا اوفياء له ؛ وهذا الوفاء من الاسباب التي دعت الدروز الى معارضة فكرة رجوعه(٣) .**

ووقف الانجليز وراء الدروز ، يؤازرونهم فى مطالبيهم ، ليكسبوا ثقتهم ويستميلوهم نهائيا الى صفهم . وكان الانجليز قد ادركوا عجزهم عن استمالة الموارنة ، بعد جهود جبارة بذلها عملاؤهم وقناصلهم . فقد اجابهم البطريرك الماروني ، بعد ان منوه بالامال وعرضوا عليه التعهدات « ان حب فرنسا جار مع الدم فى عروق كل ماروني » (٤) . وهذا ما حدا بالكولونيل روز ، الذي كان يتوسط مع الموارنة ، لان يرسل الى وزارة الخارجية البريطانية « ان الموارنة مستسلمون نفسا وجسدا الى فرنسا وعليه فلم يبق لانجلترا ان تختار فى الامر بل امسى من المحتم عليها عضد الدروز »(٥) . ولم يتورع رتشرد وود ، قنصل بريطانيا فى دمشق، ان يطلب الى العثمانيين وقف مقاومة المسيحيين للهجمات الدرزية عليهم (٦) ! وعمت البلاد اشاعات تنسب الى الانجليز توزيع الاسلحة على الدروز لمحاربة المسيحيين ، بالرغم من تكذيب المسؤولين (٧) .

* * *

عيّنت السلطات العثمانية عمر باشا النمساوي حاكما عاما على لبنان ، بعد ان فشلت فى تعيين امير وطني . وبدأ هذا الحاكم عهده باصدار الاوامر للقائد العسكري ، وجيهي باشا ، باعتقال زعماء الثورة ، الدروز . الا ان قنصل بريطانيا تدخل لمصلحتهم

---

(١) مشاقة ص ١٣٨-١٣٩ (٢) ابو شقرا ص ٣٤
(٣) المصدر نفسه ص ٣٧ ؛ الشدياق ص ٦٤٢
(٤) مزهر ١ : ٥٦٠ ؛ الخازن ١ : ٦٠ ؛ Charchill ص ٤٥
(٥) الخازن ١ : ٧٣ (٦) المصدر نفسه ١ : ٦٨
(٧) المصدر نفسه ص ١ : ٦٧

وتمكن من اطلاق سراحهم . ولما نفر عمر باشا من هذه التدخلات اقنع الانجليز السلطات العثمانية بسحب عمر ، وتعيين مصطفى باشا مكانه . اما اولئك الزعماء فقد رجعوا الى سابق نشاطهم الطائفي ، وكان الانجليز يعنون ، كما اعترف ابو شقرا ، « بعدم مس كرامة احد منهم وضمانة راحتهم وصيانة حقوقهم » (١) .

طالب الدروز بتعيين امير منهم على لبنان . اما المسيحيون فلم يتخلوا عن الشهابيين . وبينما كانت بريطانيا تدعم الفكرة الاولى ، سندت فرنسا الطلب الآخر . وصرفت الحكومتان مبالغ طائلة من اجل تحقيق مشاريعها(٢) . الا ان الانجليز عادوا فادركوا صعوبة تحقيق فكرة تعيين درزي حاكما على لبنان المسيحي ، اذ لم يكن الدروز الا سدس السكان(٣) . لذلك **تبنوا اقتراح الامير مترنيخ النمساوي بتقسيم لبنان الى منطقتين ، على اساس اقاليمه الطائفية : منطقة مسيحية واخرى درزية . وكانت هذه الفكرة هي اساس نظام القائمقاميتين الذي قضى على وحدة لبنان وأهدر مصلحة الشعب الواحدة وافسح المجال للفتن الطائفية بشكل مستمر واسع ، لمدة عشرين سنة** . وبينما رضي الدروز بالمشروع رفضه الموارنة ، وفرنسا من ورائهم ، لا على اساس وطني ، ولكن خوفا على مصير المسيحيين الساكنين فى المناطق الدرزية ، مثل الجرد والغرب والشحار والخروب والعرقوب وجزين !

عين اسعد باشا ، الوالي العثماني ، الامير حيدر اسماعيل قائدبيه ابي اللمع قائمقاما على المسيحيين ، من نهر ابراهيم الى طريق الشام بيروت ، والامير احمد عباس ارسلان قائمقاما على الدروز ، فى الانحاء الجنوبية من لبنان . والى جانب هذا التقسيم والتسمية ، الطائفي ، جعلت المجالس الاستشارية للامارة قائمة

---

(١) ابو شقرا ص ٤٦ ؛ الشدياق ص ٦٩٤
(٢) Churchill ص ٤٠–٦٦ ؛ الخازن ١ : ١١٣
(٣) كان سكان لبنان يومها يتوزعون حسب الترتيب التالي :
٩٥ الف ماروني ، ٣٥ الف درزي ، ٤١ الف كاثوليكي ، ٢٨ الف ارثوذكسي، ١٢ الف شيعي (عن حنين نقلا عن احصاء بريطاني . ولم يذكر ذلك الاحصاء عدد السنيين) .

على اسس طائفية ايضا [١] . ثم جرت بعض التعديلات على الحدود ، فقد كانت الحدود مشكلة اختلف الطرفان عليها طويلا[٢].

وطالب المسيحيون «بتحرير» اخوانهم الساكنين فى المناطق الدرزية بالقوة . وألفوا جماعات من الشباب ، واشتروا لها الاسلحة، ودربوها على القتال . وقام الدروز بتدبيرات مماثلة ، وعادت الفتن بين الطرفين مرة اخرى[٣] . وكان العثمانيون يشجعون هذه الفتن، ماديا ومعنويا[٤]. فقد كانت سلطاتهم تخشى من ازدياد نفوذ القنصل الافرنسي بين الموارنة ، وكثرة تدخلاته بشؤون قائمقاميتهم ، حتى انها خشيت ان تصبح تلك القائمقامية « جزءاً من فرنسا ! »[٥]

لذلك كانت سياسة وجيهي باشا ، الذي تعين قائدا للجيش العثماني فى لبنان سنة ١٨٤٤، التحيز الى جانب الدروز على حساب المسيحيين . ولما نشبت فتنة طائفية جديدة ، فى المعلقة ، اعتقل وجهاء الجانب المسيحي وجمع اسلحة محاربيهم ، وتركهم تحت رحمة الدروز . فهب المسيحيون ضد هذا التحيز ، ونشروا الفتن فى كافة الانحاء اللبنانية . وعمت البلاد موجة من الارهاب والتعديات . وكان السنيون يعاونون الدروز ضد المسيحيين . وتولى العثمانيون حمايتهم ، وتساهلوا معهم فى « حمل السلاح والغناء والسخرية بدين النصارى » . واشتركت بعض الفرق العسكرية بالثورة رسميا ، واطلقت مدافعها على القرى المسيحية. وظلت الحالة متوترة حتى قدوم شكيب باشا ، وزير الخارجية العثمانية ، على راس فرقة كبيرة ، لاخضاع الثورة ، سنة ١٨٤٥[٦]

تابع شكيب باشا السياسة العثمانية التقليدية ، فسمع لمطالب الكولونيل روز ، البريطاني ، التي كانت لصالح الدروز ، ورفض انزال العقوبات بالدروز التي ثبتت التهم عليهم ، كما طلب

---

(١) الشدياق ص ٧٠
(٢) دريان ص ٢٥٢
(٣) الشدياق ص ١٠٧
(٤) الخازن ١ : ١٣٣
(٥) Churchill ص ١١٧
(٦) الشدياق ص ٦٥٩-٧٠٩

الافرنسيون(١) . وتغافل شكيب عن جمع السلاح من الدروز، وعن بعض التعديات الفردية التي قاموا بها ، اثناء وجوده في البلاد ، ضد المسيحيين . فارسل الموارنة المطران نقولا مراد الى فرنسا ، ليطلب من الملك لويس فليب حمايته ، ويصف له قسوة الدروز وتحيز العثمانيين وعداء البريطانيين . وتدخل الملك ، واعلن حمايته لعدد من وجهاء الموارنة . ولما اهان العثمانيون احد هؤلاء احضر القنصل الافرنسي سفينة حربية وهدد القائد العثماني(٢) . اما قنصل بريطانيا فأعلن حمايته للزعماء الدروز المطلوبين الى العدالة ! (٣)

وانتهت هذه التدخلات الاجنبية باندلاع الثورة مرة اخرى . وكان العثمانيون المسؤولين عن اشعالها مباشرة . فقد ارسل محمد باشا قبرصلي ، والي دمشق ، الى دروز حاصبيا ، يطلب اليهم محاربة المسيحيين بالاسلحة التي امدهم بها . واوعز الى دروز حوران بالذهاب الى لبنان لمساعدة اخوانهم . واقنع مسلمي البقاع بمؤزرة الدروز . **وهبت الجماعات الاسلامية المذكورة سنة ١٨٤٥ في حملة واحدة ضد الموارنة** . وانتشرت الفتن في الجنوب والشوف والشحار والمتن وزحلة . واعترف زعيم الثورة ، سعيد جنبلاط ، بمساعدة العثمانيين له ضد هذه « الامة المسيحية الكافرة » . وباجازة داود باشا « لسائر الجماعات الدرزية الفتك بهذه الامة وابادتها »(٤) فحذت فرنسا حذو العثمانيين وبريطانيا في تدخلهما السافر ، ومدت يد المساعدة للثائرين المسيحيين . وكان هؤلاء الثائرون يرفعون الاعلام الفرنسية وسط المعارك(٥) .

* * *

انصرف المسيحيون ، بعد فتنة ١٨٤٥ ، الى الاهتمام باحوال منطقتهم الاقتصادية ، وتمتعوا بانتعاش مالي واجتماعي . فأثار

---

(١) المصدر نفسه ص ٧١٠–٧١٤
(٢) المصدر نفسه ص ٧١٤–٧١٦ ؛ الخازن ١ : ١٢٨–١٣٠
(٣) الشدياق ص ٧١٤
(٤) مشاقة ص ١٥٢–١٥٣ ؛ الخازن ١ : ١٨١–١٨٢
(٥) بشعلاني ص ١٧٤–١٧٥

هذا الازدهار حفيظة الطوائف الاخرى ، وسعت لتأليف الجمعيات الطائفية السرية كي تنتقم من ازدهار القائمقامية المسيحية (١) .

وكانت فرنسا فى هذه الاثناء قد ظفرت بتجديد حقها فى حماية الكاثوليك والموارنة فى الشرق . فطالبت روسيا بتجديد حقها فى حماية الارثوذكس . ولكن العثمانيين رفضوا ذلك . فنشبت الحرب بين الطرفين . واضطرت الدول الاوربية الى التدخل ، وارغمت العثمانيين على اصلاح احوال المسيحيين فى امبراطوريتها مقابل تخلي روسيا عن مطالبها . فعمد الباب العالي ، ازاء ارغامه على الاصلاح ، الى اثارة الطوائف الاسلامية على المسيحيين ، سرا. وارسل صادق افندي الى سورية ليتولى تدبير امر الفتنة ضد المسيحيين(٢) . وكانت البلاد مهيأة لذلك . فقد اغضب المسلمين نيل المسيحيين حقوقهم ، واصلاح احوالهم ، وازدهار منطقتهم اقتصاديا على حساب ضعف منطقتهم وفقرها(٣) . وعين صادق زعماء الدروز فى وظائف البلاد العليا ، ومنحهم اوسمة عثمانية رفيعة وامدهم بفرمانات الحماية .

واغتنم صادق ، من ناحية اخرى ، فرصة الخلاف الذي نشب بين عامة الموارنة ومشايخهم ، فشجع طانيوس شاهين ، زعيم الثورة العامية ، فى الخفاء ، بينما اعلن عطفه على آل الخازن ، مشايخ البلاد ، مع الانجليز . اما الافرنسيون والكنيسة المارونية فكانوا فى صف العامة ضد المشايخ ؛ وامدت فرنسا الثائرين بكميات وافرة من الاسلحة . ولما كان الامير حيدر ابو اللمع يساند العامة ، وفرنسا ، طالب الانجليز بعزله . فقد سعوا الى تحقيق كل ما قد يزيد النزاع بين الطوائف اللبنانية ، كما اعترف السير شارلز نايبار فى مجلس العموم البريطاني(٤) .

---

(١) Churchill ص ١١٩ــ١٢٠
(٢) مشاقة ص ١٥٤ــ١٥٥ (٣) حنين ص ١١٩
(٤) دربان ص ٢٦١ ؛ Churchill ١٢١ــ١٢٥ ؛ الخازن ١ : ٣٧٢ ، ٣٨٩ ، ٢ : ٢٨٨ ، بشعلاني ص ١٧٦ ، حنين ص ١٢٠

واتسعت اتصالات صادق مع المسؤولين الدروز والسنيين ، وعمت البلاد انباء تحريضه لهم ووعوده ومساعداته . وعاونه فى ذلك احمد باشا والي دمشق الذي ارسل خصيصا لهذه الغاية[1]. حتى ان قناصل الدول الاجنبية لاحظوا هذا الجو وارسلوا الى حكوماتهم يخبرونها بالامر . الا ان الخطوة المباشرة تمت على يدي خورشيد باشا والي صيدا ، الذي ثار بواسطته دروز الجنوب على الامراء الشهابيين ، وحرقوا ممتلكاتهم فى راشيا وحاصبيا . وهجم دروز الجبل على بيت مري فى اواخر آب سنة ١٨٥٩ . وكان سبب هذا الهجوم **اعتداء رجل مسيحي من بيت مري على درزي لان حمار الدرزي ضرب ابن ذلك المسيحي !** وتوسع ميدان الفتنة بسبب هذه الحادثة التافهة ، حتى شمل جميع المناطق اللبنانية[2] . وزاد فى النقمة اشاعات الطائفيين بان العثمانيين اوكلوا الى الدروز امر ابادة المسيحيين . فهجم الدروز على دير القمر ، التي كان العثمانيون يحاصرونها واعملوا الذبح فى سكانها . وبعد قتل الفي مسيحي انتقل الهاجمون الى جزين وقاموا بالفظائع نفسها . وفي حاصبيا قتل الدروز اكثر من سبعمئة مسيحي . وقتلوا فى راشيا خمسمئة ...

حركت هذه التعديات المستمرة عصبية المسيحيين فى قائمقامية الشمال ، فألفوا جيشا بقيادة **يوسف كرم** وساروا لمساعدة اخوانهم ، لكن خورشيد عمل بدهائه دون وصول هذا الجيش الى مناطق القتال . وكان مسيحيو زحلة ، فى ذلك الوقت ، يقعون فريسة هجوم درزي سني عثماني مشترك . فأعلنت الدول الاوربية حمايتها لطوائف لبنان المسيحية ، خاصة بعد ان انتقلت الفتن الى سورية وفلسطين[3] . واشتركت السفن الاوربية فى نقل المضطهدين المسيحيين من سكان القائمقامية الدرزية ، الى مصر واوربه .

---

(١) مؤتمر الشهداء ص ٩٤
(٢) ابو شقرا ص ١٠٢
(٣) مشاقة ص ١٦٣–١٨٦ ؛ Churchill ص ٢١٨

وكان حاصل هذه الثورة المعروفة بفتنة سنة ١٨٦٠ والتي دامت اشهرا ثلاثة ، أحد عشر الف قتيل مسيحي ، الى جانب قتلى المهاجمين الدروز(١) . ولم تكن حوادثها ومآسيها محصورة بين الدروز والموارنة . فقد آزر الشيعيون الموارنة ، وآووا بعض الهاربين من مسيحيي الجنوب ، ودافعوا عنهم . ولولاهم لافنى الدروز مسيحيي جبل الريحان(٢) . اما الارثوذكس فاشتركوا فى عدة معارك مع الدروز ضد الموارنة . وانقسم السنيون الى فريقين، فريق مع الموارنة وآخر مع الدروز(٣) .

ووجدت دول اوربة فرصة التدخل سانحة امامها . فعقد سفراء بريطانيا والنمسا وروسيا وتركيا مؤتمرا فى باريس ، باشتراك مندوبي الحكومة الافرنسية . وكان ذلك فى الثالث من اغسطس سنة ١٨٦٠ ، وقرروا شرعية التدخل فى شؤون لبنان . وعهدوا بمسألة التدخل العسكري لفرنسا وانجلترا . وبينما اكتفى الاسطول الانجليزي بالرسو فى ميناء بيروت ، انزل الاسطول الافرنسي ستة الاف جندي افرنسي . وقد فعلت فرنسا ذلك اجابة لطلب التدخل الذي ارسله لها وجهاء الموارنة فى لبنان(٤) ــ فى وقت كان نابوليون الثالث فيه يسعى لتوسيع نفوذه فى الشرق . وكان العثمانيون قد ارسلوا فرقة عسكرية برئاسة فؤاد باشا وزير الخارجية وقيادة خورشيد باشا ، لكي يتظاهروا باهتمامهم فى تهدئة الاحوال واستعادة الامن . ولم يرسلوا هذه البعثة الا بعد ان تأكدوا من وصول الاسطول الافرنسي الى قبرص ، فى طريقه الى لبنان !

استراح المسيحيون لمرأى الجنود الافرنسيين وهم يقيمون فى ثكناتهم على الساحل ، ثم وهم يتجولون فى منطقة دير القمر وبيت الدين ، معلنين حمايتهم لهم . واستراحوا ايضا ، بادىء الامر ، للحزم الذي اظهره فؤاد باشا . فقد امر هذا الوزير باجراء

---

(١) Churchill ص ٢١٩ (٢) الزين ، صيدا ص ٨١
(٣) الخازن ٢ : ٣٤١ ؛ حنين ص ١٢٠
(٤) ابو شقرا ص ١٣٢

تحقيقات شاملة ، وبالتعويض على المتضررين ، وبنفي المسؤولين من الارهاب والفتن ، من مدنيين ورجال دين ، وباعدام العثمانيين الذين ثبتت عليهم تهمة التحريض ، او الاشتراك فى الفتن . الا ان هذا الحزم عاد فكشف عن نية فؤاد فى عدم قطع الصداقة العثمانية ـ الدرزية ، اذ اطلق سراح مجرمين كثيرين ، ومنع محاكمة آخرين . وبين المتهمين من نال اوسمة منه . ووصل الى سماع المسيحيين وعد فؤاد للدروز بأن « لا تهرق من رجل درزي نقطة دم قط »(١).

وقررت الدول الاوربية تشكيل محكمة دولية للتحقيق فى الثورة ، برئاسة محمد رشدي ، العثماني . ومع ان المحكمة اظهرت حزما فى معالجة فتن دمشق ، فأعدمت ١٦٥ متهما، وسجنت ونفت المئات الا انها تهاونت مع الدروز فى قضايا لبنان ، ورفضت سماع شهادات المسيحيين ، وخففت احكامها على الزعماء الدروز ، وابدلت الاعدام بالنفي القصير الامد(٢) .

وعقدت هذه الحكومات مجلسا دوليا فى بيروت ، ابتداء من اوائل اكتوبر سنة ١٨٦٠ ، للبحث فى قضية لبنان ، من ناحية سياسية ، ومصيره . وحضر هذا المجلس قناصل النمسا وبروسيا وروسيا وانجلترا ، والجنرال بوفور الافرنسي وفؤاد باشا الوزير العثماني . وبعد ان قرر الحضور اعتقال ١٢٠٠ متهم درزي ، وتنظيم امور التعويض على المتضررين ، انتقلوا الى بحث وضع لبنان فى المستقبل . **فايدت كل دولة النظام الذي يلائمها ويسهل عليها التدخل فى شؤون البلاد . فطالبت فرنسا بارجاع آل شهاب المسيحيين** ، واقترحت اسم الامير مجيد خليل الشهابي . واعتقدت فرنسا ان باستطاعتها كسب موافقة الدروز على هذا الاقتراح ، مع تأييد الموارنة . وتمكنت من اقناع ثمانين وجيها درزيا . الا ان بريطانيا غضبت لهذا التدخل الذي اسهم فيه وجود

(١) المصدر نفسه ص ١٣٧
(٢) مشاقة ص ١٨٧ـ١٩٣

الجيش الافرنسي فى البلاد ، وحملت الحكومة العثمانية على مطالبة فرنسا بسحب هذا الجيش لانه يشكل خطرا على « استقلال » الدولة العثمانية . واستعادت بريطانيا مركزها «الروحي» عند الدروز بان رفضت اقتراح فرنسا باعدام الالف ومئتي درزي ، المعتقلين (١) .

وحذت الدول الاخرى حذو فرنسا فى تقديم المشاريع الطائفية لصالحها . **فطالبت روسيا ، وأيدت اليونان ذلك ، بتاسيس امارة ارثوذكسية فى شرقي لبنان ، مستقلة عن لبنان الماروني والدرزي(٢) . وطالبت بريطانيا بانشاء امارة مستقلة للدروز ، فى جنوب لبنان** ـ وكانت بريطانيا ، فى الوقت نفسه ، قد حاولت استغلال الخلاف الذي نشب بين فرنسا ويوسف كرم ، لعدم رغبة فرنسا فى تعيينه اميرا على لبنان ، فاتصل العملاء الانجليز به ، وعرضوا عليه صداقتهم وحمايتهم ، الا انه رفض ذلك ، وارسل الى وزير الخارجية الافرنسية يقول « اني خدمت نفوذ فرنسا ومصالحها الى الآن كما خدمها اجدادي من قبلي »(٣) .

غير ان تضارب المصالح الطائفية السياسية المختلفة حال دون اتفاق المؤتمرين على مشروع واحد منها لذلك اتفقوا على تنفيذ مشروع آخر ، املت كل دولة ان تستفيد منه ، من زاوية مصلحتها الخاصة . وقد قضى هذا المشروع ، الذي يعرف ببروتوكول لبنان، منح لبنان استقلالا اداريا ، تحت ادارة متصرف مسيحي ، غريب عن لبنان ، تعيّنه الدولة العثمانية بموافقة الدول الكبرى ، لمدة

---

(١) المصدر نفسه ص ١٣٦ـ١٤٥
(٢) الخازن ٣ : ٤٨ـ٥١
(٣) بشعلاني ص ٣٥٨ـ٥٠٦

خمس سنوات قابلة للتجديد . وقسم لبنان الى مديريات وقائمقاميات ، تجتمع كلها فى لبنان موحد غير منقسم الى منطقتين كما كان فى السابق . الا ان حدود لبنان تقلصت عما كانت عليه قبلا . فقد سلخ عنه اقليم وادي التيم وبيروت وصيدا وطرابلس والبقاع وعكار ـ ومعظمها مناطق اسلامية . وانحصر لبنان الجديد فى ثلاثة اخماس لبنان القديم . **وقد ارادت الدول من ذلك المشروع جعل لبنان بلدا مسيحيا** ، غير مهتمة للخسائر الاقتصادية التي تنجم عن سلخ هذه المناطق(١) .

وعيّن اربعة قائمقامين موارنة ، على البترون وكسروان والمتن وجزين ، وقائمقام درزي على الشوف ، وارثوذكس على الكورة ، وكاثوليكي على زحلة ؛ وذلك حسب النسبة العددية لكل طائفة فى كل منطقة ، والحق لكل قائمقام مجلسان ، مجلس ادارة ومجلس محاكم . وكان كل منهما يتألف من ستة اعضاء ، مسلمين ومسيحيين بالتساوي . اما المتصرف فعاونه ثلاثة مجالس ـ مجلس الادارة الكبير ، وقد قام على الطائفية ايضا : مارونيان عن كسروان ، ماروني ودرزي وشيعي عن جزين ، ماروني وارثوذكسي ودرزي وشيعي عن المتن ، درزي عن الشوف ، ارثوذكسي عن الكورة ، كاثوليكي عن زحلة . ومجلس حقوق ، رئيسه ماروني ، ومجلس جزاء ، رئيسه درزي(٢) .

قررت الدول هذا النظام للبنان فى التاسع من يونيو ١٨٦١ . ثم أجرت عليه ، فى السنوات الثلاث الاولى ، بعض التعديلات . وظل نظام لبنان الرسمي حتى الحرب العظمى الاولى ـ اي مدة

---

(١) راجع كتاب الاتحاد اللبناني ، المسألة اللبنانية ، لدراسة اوضاع لبنان الاقتصادية .

(٢) مشاقة ص ١٩٣ـ٢٠٠ ؛ ابو شقرا ص ١٤٦ـ١٤٨

نصف قرن . وانضمت ايطاليا ، سنة ١٨٦٨ ، الى الدول التي تبنته منذ ١٨٦١ ، وهي بريطانيا وفرنسا وروسيا وبروسيا والنمسا والدولة العثمانية .

ومع هذا النظام قضي على التوتر الطائفي الظاهر الا انه لم يستأصل الطائفية من النفوس ؛ ولم يكن مؤهلا لذلك ما دام هو نفسه يقوم على اساس طائفي . فقد كان اعضاء المجالس فيه يمثلون طوائفهم وليس اقاليمهم . وعمل المتصرفون فيه على جعل لبنان بلدا مسيحيا ، فلم يكفهم سلخ المناطق الاسلامية ، بل شجعوا الدروز على الهجرة الى سورية (وكان ثلاثة الاف درزي قد التجأوا الى حوران منذ انتهاء ثورة ١٨٦٠ (١) بحيث قل عدد الدروز بنسبة كبيرة . واشترك العثمانيون مع بعض الموظفين بمحاولة اثارة الفتن الطائفية فى بعض المناسبات . فكثيرا ما كانوا يطردون الموظفين المسلمين ليعينوا مسيحيين مكانهم ، ليثور المسلمون ؛ ثم يطردون المسيحيين ويعينون مسلمين ، ليثور المسيحيون (٢) ! واستغل العثمانيون ضعف بعض المتصرفين فشجعوا هجرة المسيحيين من لبنان ، واسكنوا مكان المهاجرين جموعا سنية استقدموها من تركيا ومكدونيا (٣) .

وواصلت فرنسا تقربها من الموارنة ، لتبعدهم عن الطوائف الاخرى فى البلاد . وظلت العلاقات العاطفية بين الموارنة وفرنسا متينة كعادتها . واسهم ملك فرنسا فى معونة المحتاجين الموارنة عند النكبات السياسية او الطبيعية . وباعت بعض اللبنانيات حليهن وارسلن اثمانها الى فرنسة لمساعدتها فى حروبها . ويروى ان مطران بيروت ، طوبيا عون ، مات حزنا لسماعه نبأ انكسار فرنسا فى حربها مع المانية سنة ١٨٧٠ (٤) .

---

(١) ابو شقرا ص ١٣٢
(٢) مؤتمر الشهداء ص ٩٥
(٣) جمال باشا ص ٤٠
(٤) غالب ص ٢٦٨ــ٢٧٠

ولم يخلُ هذا العهد من عدد من الحوادث الطائفية . ففي ١٨٧٦ اعتدى مسلمو الشمال على المسيحيين وحرقوا بعض قراهم (١) . وكان المسلمون ، من سنيين وشيعيين ودروز ، قد ساعدوا المتصرف ضد يوسف كرم الذي اعلن ثورة مارونية ضد العثمانيين(٢) . وساد الدروز ذعر من المسيحيين ، وكانوا شديدي الحذر من تصرفاتهم . ودعاهم الى ذلك اتهام المتصرف رستم باشا للمطران الدبس بتحريض الموارنة على الثورة والفتك بالدروز (٣) . وقد استغلت الدولة العثمانية هذا الذعر وتقربت من الدروز واعلنت نفسها حامية لهم (٤) .

اما المظهر الطائفي الاكبر لعهد المتصرفية فهو تعميم المدارس الطائفية ، بحيث اصبحت الثقافة عاملا فى تقسيم اللبنانيين ، بدل ان توحدهم . فكان للكاثوليك والموارنة اليسوعية والبطريركية والحكمة وراهبات قلب يسوع ومدرسة مريم والكلية الشرقية ومدرسة الراهبات المارونية ؛ وللبروتستانت الجامعة الاميركية فى بيروت وعشرات المدارس الثانوية ، للبنين والبنات ، فى بيروت والجبل ؛ وللارثوذكس مدرسة الثلاثة اقمار ؛ وللمسلمين العلمية والرشيدية والعثمانية والكلية الاسلامية ؛ وللدروز الداودية .

وانتشرت الصحف الطائفية فى البلاد التي كانت تساعد المدارس فى تفريق الطوائف واذكاء العصبية بينها ، مثل : البشير ورسالة قلب يسوع والكنيسة والمشرق والجسمانية وصديق العائلة

---

(١) بشعلاني ص ٥٤٨
(٢) المصدر نفسه ص ١٩٨
(٣) المصدر نفسه ص ٥٤٧ ؛ مزهر ١ : ٧٩٨
(٤) اوراق لبنانية ج ٦ ص ٢٨٤ ، فى حزيران ١٩٥٥

للكاثوليك والموارنة ؛ والنشرة الاسبوعية والكلية للبروتستانت ؛ وابابيل والاقبال والاتحاد العثماني والنبراس والكوثر للمسلمين ؛ والهدية والمنار للارثوذكس ، الخ...

وقد ظل الكثير من المعاهد التربوية والصحف عاملا على مساندة الطائفية حتى بعد زوال عهد المتصرفية . ولم يخل عهدا الانتداب والاستقلال من الكثير من هذه المؤسسات الطائفية التي اوقفت رسالتها التربوية او الصحافية على تنمية الشعور الطائفي بين السكان .

الفصل السابع

الطائفية العقدية

تحدثت فى الفصول السابقة عن تلاعب رجال الاقاليم ورؤساء المذاهب ، ورجال الاقطاع ، ثم الدول الاجنبية بالطائفية ، تلاعبا يسر لهم تحقيق المطامع التى يبغونها فى هذا البلد • ذلك لان **الطائفية كانت بضاعة رائجة ، نفقها نفاقها ، وقربها من قلوب السذج الذين تلهيهم الظواهر عن البحث وراء الجوهر •**

كان ذلك فى عصور لبنان المتعاقبة الصفحات فى سجل ماضيه ، حينما لم تكن اعين شعبه قد انفتحت على النهضة الحديثة التى كشفت قناع الطائفية وأبانت مساوئها ، والتى قدست مفاهيم وقيما جديدة ، لا تترك مجالا للعصبيات العتيقة ، من طائفية واقطاعية واقليمية واستعمارية • فقد نبهت الحضارة التى بزغت فى لبنان فى نهاية القرن الماضى واوئل هذا القرن النفوس على فساد العصبية الطائفية واعتبرتها من مخلفات عصور الجهل والانحطاط • وعرف اللبنانيون ان الطائفية لا تفى بحاجات المجتمع الحديث ، التواق الى نهضة شاملة تحقق اصالة نفسه ، ولا تحابي فئة على حساب فئة • وعرفوا ان الطائفية اصبحت عيبا ، وان ممارستها اصبحت عيبا ايضا • واكبر سلاح يمكن ان تشهره فى وجه مرض اجتماعى هو ان تقنع الناس بأنه عيب •

فالاقطاعى فى لبنان اليوم يدرك ان الطائفية عيب مثل الاقطاعية، ولذلك فهو يخفي طائفيته مثلما يخفي اقطاعيته • وعملاء الاستعمار يخافون اعلان طائفيتهم مثلما يخافون اطلاع الشعب على تآمرهم ضده مع دول اجنبية ، كذلك يخجل رجل السياسة المنغمس فى مصالحه ، ورجل الدين المتحجر النظر الى رسالة الدين ،

يخجلان من اعلان طائفيتهما ، خجلهما من اظهار حقيقة انانيتهما وتحجرهما • اي ان المتلاعبين القدماء بالطائفية اصبحوا يخافون الطائفية اذ رأوا الشعب ينظر اليها كعيب •

الا ان هذا الوضع لم يقض على الطائفية ، بل اعطاها مفهوما جديدا ، ووضعها في قالب جديد • فالشعور بالخجل من مرض اجتماعي ما لا يقضي عليه ، ما لم يمتنع المجتمع عن ممارسة ذلك المرض تماما • والطائفية لم تنته لان المتلاعبين بها عثروا على طريقة اخرى يحققون بها طائفيتهم ، دون ان ينتبه الشعب الى ذلك • فالشعب في لبنان يخجل من الطائفية ولكنه يمارسها في الخفاء ـ خجل المدمن العريق • وجل ما فعلته النهضة الحديثة التى فضحت الطائفية ، انها نقلتها من امام الاعين ووضعتها في الخفاء •

وبحثت الطائفية ، بفضل اصحابها المدمنين عليها ، عن اتجاه جديد تحقق به نفسها وتحقق لاصحابها المصالح الجزئية التي يعيشون لها ، دون ان تظهر علنا • وبذلك فتشت الطائفية عن ستار يحجب عيوبها ، وهى التى انقضت عشرات القرون عليها وهى تلعب دور الستار لامراض اجتماعية اخرى •

كان الذي فضح عيوب الطائفية ، في حضارة العالم الحديثة ، انوار ثلاثة شعت في الغرب وانعكس ضوؤها في بلادنا ، ولم يعد بمقدور الطائفيين ، هناك وهنا ، الوقوف في وجهها • وهذه هي انوار العلم والقومية والديمقراطية • اما العلم فقد اظهر للناس ، بقوة منطقه ، ان العاطفة العمياء يجب ان تصمت امام صوت الحق ، وان مصلحة المجموع تسبق مصلحة الجزء • واستند العلم على صفحات طويلة من تاريخ الانسانية ، تثبت تدهور المجتمعات التي كانت الطائفية تسود نظامها الاجتماعي • وشرح العلماء الاجتماعيون الطائفية ودعوا الى استئصال جذورها مثلما شرح زملاؤهم الطبيعيون جسم الانسان واستأصلوا الجراثيم القابعة فيه • وقهر مبضع علم الاجتماع الطائفية ، من حيث النظريات ، مثلما قهر مبضع الطب الكثير من امراض البشر •

اما نور القومية ، الذي لم ينعكس في بلادنا الا في هذا القرن ،

فقد اعلن الحرب على كل عصبية تخالف العصبية الوطنية الجامعة ، او تجزئها او تعارضها • واعتبرت القومية كافة التكتلات ، من طائفية واقليمية واقطاعية وطبقية ، تجزيئا لوحدة ثابتة مقدسة • فالشعب جسم واحد قد تتعدد مذاهبه ومعتقداته ، اما ولاؤه فواحد ـ ولاء الفرد للمجموع ، وللقيم التي يمثلها المجموع ، وللحق العام الذي ينطق به المجموع على لسان الافراد •

وعمل النور الثالث ، نور الديمقراطية الحديث الانتشار في هذه البلاد ، على تنقية العقول من نظريات التفاوت بين الناس ، ومن محاولات كبت اراء معينة لتفسح المجال لاراء اخرى • فالمجتمع الديمقراطي هيئة واحدة ، يتساوى اعضاؤه في الحقوق والواجبات • وللحرية المقام الاول في هذا المجتمع • اما الاضطهاد الفكري والاكراه المذهبي فهو جريمة ـ جريمة بحق المجتمع مثلما هو جريمة بحق الفكر نفسه •

سلطت نهضتنا الحديثة هذه الانوار على ظلمة الجهل والانانية والعصبية العمياء التي كانت الطائفية تعيش فيها ، ففضحتها وابرزت معايبها • الا ان الطائفيين كانوا اذكى من ان يستسلموا ، فاستعملوا ادهى الاعيب السياسة ، واحطها ـ سياسة استغلال هذه الانوار لصالحهم هم ، سياسة استعمال النور لتغطية الظلمة ، ولتبرير طائفيتهم • ووجد الطائفيون الستار الذى بحثوا عنه لكى يحجبوا به عواطفهم ومصالحهم الطائفية ـ انوار العلم والقومية والديمقراطية • وهكذا دخلت الطائفيةفي المرحلة الاخيرة من مراحل تطورها التاريخي وهى المرحلة الاولى التى تنتقل الطائفية فيها من ان تكون حجابا لمصالح اخرى لتصبح هى نفسها ذات حجب تمنع الناس من رؤيتها • انها مرحلة العقائد ، التي يعيش لبنان فيها اليوم ، ومنذ عشرات السنين •

ادرك الطائفيون ان انسان القرن العشرين «مجنون عقائد» • فللفظة عقيدة انسجام وثيق مع نفوس ابناء هذا القرن • والاحزاب ، مهما كانت فوضوية التفكير والمبادىء ، تحجب نفسها في مجموعة من العقائد • واكثر الدول دكتاتورية تحجب استهتارها بالحريات

في عدد من البنود التي تسميها دستورا • والالحاد اصبح «عقيدة» ايمان ، بلا شيء • ذلك ان الانسان اكتفى من العقائد باسمها ، وبتركيبها اللفظي ، دون التعمق في معناها ومبناها الاساسى • فاستغل الطائفيون هذا الوضع ، **وحولوا الطائفية الى عقيدة ـ عقيدة كلمات وبرامج ونظريات ودراسات ، تخفي حقيقة الطائفية في حجب مصطنعة ومزورة • واصبح الطائفي ، بهذه الحجب يعرف نفسه بأنه رجل عقائد وليس طائفيا • اما عقائده فهي طائفية متسترة ، فتاكة ، تفوق باضرارها الطائفية الاقطاعية او الاستعمارية او المذهبية او الاقليمية • وهكذا نجحت الطائفية في اخفاء حقيقتها عن الشعب مثلما كانت تنجح في الماضي في اخفاء المصالح التي كانت تتستر وراءها • ونجح الطائفيون في تحريض الشعب ، في الخفاء ، على الاستمرار في ممارسة هذه العصبية ، وفي التلاعب بعواطف الجمهور ، مثلما كان الاقطاعيون والاستعماريون والمذهبيون والاقليميون يفعلون • واصبح سلاح هؤلاء الطائفيين لدغدغة العواطف الساذجة تعابير وبرامج عقدية ، توهم الناس بانها علم وقومية وديمقراطية •**

واحب ان احذر القارىء ، قبل الوصول الى جوهر هذه الطائفية العقدية ، من ان يعتقد ان المرحلة السادسة ، العقدية ، من الطائفية ، قضت على المراحل الاخرى تماما • فقد رأينا في الفصول السابقة كيف ترتبط المرحلة الواحدة بالاخرى ، وكيف يستمر المفهوم الواحد دون ان تقضي عليه المفاهيم الاخرى • كذلك كان المفهوم العقدي استمرارا ، ولكن بشكل جديد ، للمفاهيم السابقة ، وخاصة لمفهوم المرحلة الخامسة ، الاستعماري •

• • •

الاتجاهان العقديان الرئيسيان اللذان خلفا العصبية الطائفية السافرة هما الاتجاه الاسلامي ، العربي القومية ، والاتجاه المسيحي ، اللبناني القومية • وترجع جذورهما الى اواخر القرن الماضي ، اما ازدهارهما فلم يتم الا في هذا القرن •

ظهرت بوادر القومية العربية في القسم الاخير من القرن الماضي •

وكان ذلك ، بادىء الامر ، في لبنان· ومنه انتشرت فيالعالم العربى· وكانت تلك البوادر وطنية المفهوم ، وليست قومية ، كما نفهم القومية اليوم · وقامت بمساعي عدد من اساتذة وطلاب وخريجي الجامعة الاميركية فى بيروت ومن تأثر بهم من خارج الجامعة · ودعا هؤلاء الى التحرر من الحكم العثماني ، وتحسين اللغة العربية ، ووحدة الناطقين بها امام اعداء البلاد · ولكنهم قلما استعملوا الاساليب العلمية القومية في ابحاثهم ودعوتهم ، بل اكتفوا بالاساليب العاطفية التي لا تتعدى حدود الوطنية والنزعة الاستقلالية التى قد تكون سورية او لبنانية بمقدار ما تكون عربية · فكانت العروبة لغة وشعورا وعاطفة واستقلالا ، اكثر مما كانت قومية وامة وعلما ·

ويرجع الخطأ السائد بين الناس فى فهم تلك العروبة في مرحلتها الاولى ، واعتبارهم اياها قومية مع انها كانت مجرد وطنية ، الى مؤرخ العروبة الاول ، جورج انطونيوس (١) ، الذي لم يهتم ببحث الفرق بين الوطنية والقومية ، ولم يوضح لقرائه اختلاف دعوة اليازجي والبستاني عن العروبة كما نفهمها اليوم ـ تلك الدعوة التى انحصرت فى مقاومة العثمانيين ورفض حملة التتريك، وفى احياء الثقافة العربية كوسيلة للاستقلال الفكري ثم السياسي ·

والحقيقة ان الجامعة الاميركية لم تصبح مصدرا للدعوة العربية القومية الا في العشرين او الثلاثين سنة الاخيرة · اما في السابق فكانت مصدر الدعوة الوطنية · ولكنها زرعت ، فى السنتين الاخيرة ، بذور القومية العربية الخالصة ، غير المحصورة في المفهوم الوطني الساذج ، ولا قائمة على اسس العصبية الاسلامية· ويبرز هذا الاتجاه العربي القومي الصرف فى عدة اشكال ـمنها كتابات الدكاترة والاساتذة قسطنطين زريق ونبيه فارس ونقولا زيادة وادوار عطية والبرت حورانى وغيرهم : وهى عروبة عقائدية منظمة ، لا طائفية ولا حزبية (٢) · ومنها الدعوة العربيةالاشتراكية التى دعا اليها ،بعد

---

(١) الفصول الاولى ·

(٢) لهؤلاء المفكرين عشرات الكتب والمقالات فى هذه المواضيع ،ولا مجالهنا لتعدادها

حرب فلسطين ، عدد من طلاب الجامعة وخريجيها ،والتى ظلت محافظة على لا طائفيتها الى ان اندمجت ببعض العناصر «العربية» الاخرى ، واضطرت الى التزلف الى الشعب ، في قوالب طائفية وشعبية رخيصة • ومنها ايضا احدث الدعوات القومية العربية ، التي يتعهد بذورها الدكتور فايز صايغ مع نفر من اساتذة وخريجي الجامعة ، والتى وضعت للعروبة مفهوما جديدا يختلف عن كافة المفاهيم التقليدية •

ومهما يكن امر هذه الاتجاهات الجامعية ، اللاطائفية ، فالعروبة بشكلها الشعبي العام ، الاوسع ، لا تزال دعوة اسلامية الجوهر والصفة ، فالاسلام «اردنا ام لم نرد ، هو اساس عروبة الشعب» كما يكرر الدكتور نبيه فارس في محاضرته وصفوفه • ذلك ان العروبة لم تبق فى ايدى رجال الجامعة الاميركية ، ومن يهتدى بنور مفهومهم بل تسلمتها ايد طائفية الاتجاه ، جعلتها سلاحا لها في سعيها لاخفاء طائفيتها • فمنذ نهاية القرن الماضي ، تولى امر العروبة ، بعد زوال عهد العروبة الوطنية ايام اليازجي والبستاني ، عروبيون ، مسلمون ، وطائفيون ، من لبنان وسورية ومصر والحجاز • واصبحت العروبة بجهودهم عروبة اسلامية • وكانت مكة تتزعم هذا الاتجاه • وساعد العثمانيون على ايجاد هذا التحول في مفهوم العروبة لانه كان في صالحهم • فالعروبة الاسلامية تتضامن معهم ضد الغرب المسيحي ، وضد مسيحيي البلاد المتعاونين مع الغرب • واشرف عبد الرحمن الكواكبي على هذا التحول ، ودعا الى عروبة تقوم على احياء امجاد الاسلام • وخلف الكواكبي عروبيون اكثر ولاء للعثمانيين منه ، وفى مقدمتهم شكيب ارسلان • وكانت احلام هؤلاء «القوميين» امجاد اسلامية اكثر مما هي امجاد عربية • **فالوطن في الاسلام هو «دار الاسلام» • والقومية العربية هي تنقية هذه الدار وتوحيدها على اساس اسلامي (١) •**

وتبنى هذه العروبة ، فى لبنان ، المسلمون • وانتشرت دعوتها في بيروت وصيدا وطرابلس والمناطق الاسلامية الاخرى • وفهمها

---

(١) محمد كرد علي ، الهلال ص ٢٧٤ عدد نيسان ١٩٣٩

الشعب تحريرا للمسلمين من ربق المسيحيين ، وتوحيدا لهم قوميا وسياسيا • هكذا فهمها المسلمون ، فرحبوا بها ، وهكذا فهمها المسيحيون ، فخافوها ، وساروا في اتجاه معاكس : قومية لبنانية ، مسيحية •

ويقول مؤرخ القوميات في القرن العشرين ، خون ، ان القومية اللبنانية ليست الا عصبية مارونية (١) • ذلك ان الموارنة كان لهم ، منذ القدم ، شعور خاص نحو لبنان • واعتبروا جبله ارضا مسيحية ، بل مارونية ، مستقلة عن الارض المسلمة التى تحيط به • ويشمل لبنان المسيحي هذا «كل السهول والمقاطعات المنبسطة تحت قدميها (اى سلسلة جبال لبنان) جاعلين حدا للبنان من الجهة الغربية البحر السوري ، المعروف بالبحر المتوسط ، ومن الجهة الشرقية مدينة دمشق وغيرها من البلدان المجاورة (٢) واعتبر الموارنة تاريخ لبنان وحدة تبدأ ايام الفينيقيين وتظل الى اليوم والغد ، وحدة منفصلة عن تاريخ الاقاليم المجاورة ! فهو تاريخ الشعوب التي نزلت لبنان وتأثرت بحضارته القديمة ، ثم بالحضارة المسيحية في القرون الميلادية • لذلك قومية لبنان قومية حضارة مسيحية ، وبالتالي قومية مسيحية(٣) ومن يقرأ زجلية المطران القلاعي المشهورة يلاحظ اثر هذه النزعة المسيحية فى مفهوم كيان لبنان :

«وهرطيقي ليس كان عندهم	**ولا مسلم يسكن بينهم**
ويهودي ان كان يوجد عندهم	**قبره تكشفه الغربان •••**
والبطرك كان له سطوة	والحاكم كان له نخوة
وكانوا الاثنين اخوة	في الصنعة وفي الايمان •••
وكانت حدوده محفوظة	**والاسلام منه مرفوضة •••»**

هذا هو لبنان كما فهمه الاكليريوس اللبناني ــ بلد مسيحي ، دينى الحكم ، طائفى النظام • وهو نفسه مفهوم المطران نقولا مراد

---

(١) Kohn ٢٠٤ .

(٢) فيتالي ٧

(٣) عطيه ٧٩

الذى احتج سنة ١٨٤٣ على فصل جبيل عن قائمقامية المسيحيين ، وكتب يقول «بحيث ان جميع هذه البلاد المأهولة بالمسيحيين فقط المتدة الى اعلى قمم جبل لبنان بما فيها وادي قديشا المقدسة مهد المسيحيين الموارنة الذين وقفوا في سوريا منذ اوائل عهد الاسلام في سيل فتوحاته وصدوا مجراه ...»(١)

وهو الكيان الذي يريده هؤلاء جزءا من عالم البحر المتوسط ، منفصلا عن سورية الطبيعية والعالم العربي ، ومرتبطا بهذا العالم المسيحي الحضارة ، قوميا وسياسيا ، ارتباطا يزيد فى مسيحيته (٢)

جابه الاتجاهان ، الاسلامي العربي والمسيحي اللبناني ، في اواخر القرن الماضي ، حكم العثمانيين الجائر للبلاد ، وسعي الشعب للتحرر من هذا الحكم . لذلك تآلفا ، ولو بشكل بسيط ، على تحقيق هذا التحرر . الا ان تآلفهما لم يعن اتفاقهما على مصير موحد للبنان . فقد اراد المسلمون وحدة عربية تضم لبنان فيما تضم من بلدان واراد المسيحيون استقلالا خاصا للبنان . وبلغ خوف المسيحيين من الوحدة العربية درجة فضل بعضهم فيها ابقاء نظام المتصرفية ، خوفا من نيل الاستقلال الذى يؤدى الى الوحدة . ولهذا قال بولس مسعد اثناء الحرب العالمية الاولى « ان من مصلحة اللبنانيين ان يتمسكوا بنظامهم (اى المتصرفية) ويحرصوا عليه حرص البخيل على الدرهم »(٣) .

وقد وقف الانكليز ، في هذا الصراع شبه العقدي ، الى جانب الفكرة التوحيدية الاسلامية ، بينما دعم الافرنسيون الفكرة اللبنانية المسيحية الاستقلالية . وشكل المسلمون ، والمسيحيون غير الموارنة ، المتاثرين بالدعوات الاتحادية العربية ، القسم الاكبر من جهاز الجمعيات السرية والعلنية التي تأسست فى سورية الطبيعية لمقاومة الحكم العثماني فى ايامه الاخيرة .

---

(١) الخازن ١:١١٤

(٢) الحصرى ، اراء واحاديث ٤٣ ـ ٦١

(٣) مسعد ١٧

اما الموارنة الذين جاهدوا ضد الحكم العثمانى فاصطبغت حركتهم بالميل الى فرنسا ، وبالعصبية المسيحية السافرة ٠ وقــد اشيع بين الناس ، فى الحرب العالمية الاولى ، ان البطريرك الياس حويك يجمع الموارنة لمحاربة تركيا فى جيش مسيحى ترعاه فرنسا (١) ٠ وكانت المؤسسات المارونية تحرص على ذكر الصداقة اللبنانية الفرنسية دوما ، وتطالب باستبدال الاستعمار العثمانى بحكم فرنسى ٠ ومن اشهر هذه الجمعيات النهضة اللبنانية ، وكان مركزها فى بيروت ، وفروعها فى مصر وباريس والولايات المتحدة والبرازيل ٠ واشتهر بين زعمائهـا اسكندر عمون وشكرى غانم ونعوم مكرزل وغيرهم ٠ وطالب هؤلاء بدعوة فرنسا لحماية «الوطن اللبنانى» ٠ ويتهم سياسيو ذلك العصر فرنسا بدفع الاموال لرجال هذه الجمعية ، ولصحفها ، مثل المراقب والاتحاد اللبنانى والاحوال والنصير وزحلة الفتاة (٢) ٠ ووجد بـين هؤلاء من لم يخجل ، فى احرج الاوقات ، من تذكير الناس بالعصبيات الطائفية ، فى تبرير التزلف الى فرنسا (٣)٠ وسارت الجمعية السورية اللبنانية فى الولايات المتحدة ، فيما بعد ، على نهج جمعية النهضــة اللبنانية ، وكانت هى الاخرى مارونية الطابع (٤) ٠ واتهم العثمانيون الكثيرين من الموارنة بالاتفاق مع فرنسا لكى تحكم البلاد ، وكان نخله مطران باشا فى مقدمة المتهمين ، سنة ١٩١٤ (٥) ٠ حتى شهداء لبنان ايام جمال باشا ، السفاح ، اعتبر المسيحيون منهم بانهم شهداء لبنان الفرنسية اللبنانية وليسوا شهداء استقلال لبنـــان ، مثل الخورى يوسف الحويك وفيليب وفريد الخــازن وسعيد عقل وبترو باولى وجورج حداد والخورى يوسف هانى (٦) ٠ واختلف الاعضاء الموارنة فى وفــد الجمعية الاصلاحية الى مؤتمر باريس سنة ١٩١٣ عن باقى الاعضاء بالاعتدال فى موضوع الوحدة ، والميل الى استقلال افرنسى

(١) مزهر ٢ : ٨٥٥ ـ ٨٦٣

(٢) جمال باشا ٣١ ـ ٣٢

(٣) المصدر نفسه ٣٩

(٤) دربان ٤٦٠

(٥) Antonius ١٨٧ .

(٦) المصدر نفسه ٨٦ ، يمين ٦٣ ـ ٦٤

الرعاية مسيحى الصبغة (١) ٠ وطالب هؤلاء بابقاء المستشارين الاجانب المسيحيين ، فى الدولة التركية ، لاجراء الاصلاح على ايديهم ! وألف بعض زعماء الموارنة كتبا عديدة ، للمطـــالبة بالوطن المسيحى ، مثل المطران دريان وشكرى غانم وعبد الله صفير واوغست اديب ويوسف السودا (٢) ٠ وكان العثمانيون يتهكمون على الموارنة ، اثناء الحرب العظمى ، ويسألونهم «اين الفرنساويين الذين جعلتم كل اتكالـــكم عليهم ٠٠٠» (٣)

كانت حجة الموارنة ، فى كل هذا الود نحو فرنسا ، ان الاستقلال «لا يتم لهم الا بعناية احدى الدول الكبرى ٠ ونرى بعين العقل المجردة عن الهوى ان هذه الدولة المطلوبة لهذه الغاية انما هى الدولة بل الامة الفرنساوية ، شريفة باصلها كيفما تقلبت عليها الاحوال والظروف ، فهى وحدها التى لها عطف خصوصى عليهم من قديم الدهر ، وبينهـا وبينهم علائق تاريخية راهنة ولدت بين الفريقين عوامـل مودة تكاد تكون طبيعية ، بحيث لا يعتورها امر من الامور الخارجية اينما كانت، ولا تمحوها صروف الايام بل هى ثابتة على الدوام بثبوت اللحم والدم فيهم وفى اولادهم الى ما شاء الله» ٠ ثم يتابع صاحب هـــذا الكلام ، المطران والمؤرخ دريان كلامه «فهذه اذن دون غيرها هى الامة التى يجب ان ننظر اليها بعين الامل وننتظر منها مثل هذه العناية حتى تنولنـا كل هذه المرافق المطلوبة وتحافظ على كياننا وحريتنا وتسيرنا فـى سبيل الرقى ٠٠٠**فمن الواجب اذن على كل لبنانى يهمه امر وطنـــه وسعادته فى كل حال ان يتوخى هذا الامر المهم من فرنسا الام المحبوبة ويستسلم لها بكليته وينظر اليها نظر من ليس له امل بسواها** » (٤)

واضطر الانجليز ، بعد ان لمسوا نمو هذه الصداقة الافرنسية المسيحية فى لبنان ، ان يضاعفوا من تأييدهم للاتجـــاه الاسلامى ، وخاصة بعد ان تحققوا من رغبة فرنسا الاكيدة فى حكم الشرق ، كما

---

(١) دروزة ١ : ٤٤

(٢) دريان ٤٥٠ ـ ٤٥١

(٣) المصدر نفسه ٤٥٣

(٤) المصدر نفسه ٤٥٧ ـ ٤٥٨

ظهرت فى مؤتمر باريس ١٩١٣ • ولذلك بدأوا تقربهم الى العروبة الاسلامية بالدفاع عن عزيز المصرى وتخليصه من حكم الاعدام الذى اصدره رجال حزب الاتحاد والترقى بحقه (١) • وطالب المسلمون فى عموم سورية بمساعدة بريطانيا لهم ، بعد ان رأوا اهتمامها بهم ، فى **معركتهم التحريرية ضد تركيا (٢)** • كما طالب بعض وجهائهم بولاية مصر على سورية ، وكانت مصر تخضع لحكم بريطانى مباشر ، سنة ١٩١٣ ! (٣)

ولعب الانجليز لعبتهم السياسية الكبرى سنة ١٩١٦ ، من اجل اعلان انفسهم حماة العروبة فى استقلالها ووحدتها • وتم لهم ذلك حينما نجحوا فى تحريض الشريف حسين على اعلان الثورة العربية وساعدوه فيها مساعدة ادت الى نجاح الثورة ، ووعده بمختلف الامانى والمشاريع •

ونلاحظ ان لبنان المسيحى لم يرحب بالثورة العربية فى الحجاز كثيرا ، ولم يهتم بها • ويخطىء انطونيوس اذ يعتقد ان سبب عدم الاهتمام هذا هو الجوع الذى كن منتشرا فى لبنان ، بل هو التخوف الطائفى من احتلال المسلمين للبنان (٤) • ويجب الا ننسى ان تاريخ تلك الثورة كان فى العهد الذى سعى الحسين فيه ، بكل قواه ، لتأسيس خلافة إسلامية عربية ، يتولى هو منصب الخليفة فيها ، على المسلمين ، ومنصب الامبراطور ، على الدولة عموما (٥)

وجاء **فيصل بن الحسين** ، بعد نجاح هذه الثورة ، الى سورية الطبيعية ، ليعمل على بناء الوحدة العربيةالاسلامية كما وعده الانجليز • وظلت بريطانيا تسانده ، وتحمى العروبة ، الى ان تم طرد الاتراك من البلاد ، ووضع مصيرها على بساط البحث امام الامم المنتصرة – بالرغم من المعاهدات السرية ، البريطانية – الافرنسية – الايطالية – الروسية

---

(١) مؤتمر الشهداء ١٢٥

(٢) جمال باشا ٧

(٣) المصدر نفسه ٥٨ ، ١١٦

(٤) Antonius • ٢٤ .

(٥) مؤتمر الشهداء ١٢

التى كانت قد قسمت هذه البلاد ومنحتها لدول اوروبة • إى ان العرب ظلوا معتقدين الوفاء فى بريطانيا ، بينما كانت هى تعد نفسها ، وزملاءها ، ببلادهم • ويصف الرياشى هذا الولاء العربى لبريطانيا بقوله «**المناداة بالعرب كانت تعنى ايضا المناداة بالانجليز**» (١)

اقام فيصل حكومة عربية مؤقتة فى سورية الطبيعية • فهب الموارنة ضد هذه الحكومة ، لانها لم تعترف باستقلال لبنان (٢) •

ووقف الافرنسيون من وراء الموارنة يشجعونهم على المطالبة باستقلال «الوطن اللبنانى» لان «الامة اللبنانية» لا يمكن ان تعيش مع امة اخرى • — هذا مع ان بعض الموارنة اشتركوا مع فيصل فى حكومته ، وبعضهم ، من اعضاء مجلس الادارة فى لبنان ، وافقوا على ملكية فيصل على لبنان بعد ضمه الى سورية • وكان للانجليز ودهائهم واموالهم ، فضل كبير فى هذا الكسب المعنوى لفيصل !

دعا هذا التدخل البريطانى الى اسراع فرنسا فى ارسال جيشها الى لبنان • وقد نزلت فرقة فرنسية فى اول اوكتوبر ١٩١٨ • واضطر جيش فيصل الى الانسحاب من لبنان • والغت فرنسا الحكومة الفيصلية ووضعت ادارة افرنسية ، فاصبح لبنان تحت حكم فرنسا المباشر •

وسعى الفريقان ، الفيصلى واللبنانى ، لتحقيق مطاليبهما فى مؤتمر الصلح الذى عقد باريس فى نوفمبر ١٩١٨ لبحث مستقبل سورية الطبيعية • وبينما اشترك الانجليز مع الفريق الاول ، وحملوا فيصل الى اوروبة على سفنهم ، وامدوه بمساعدات كثيرة (٣) ، نقل الفرنسيون الوفد اللبنانى الذى دعا الى استقلال لبنان وصداقة فرنسا برئاسة داود عمون • وبينما اعترف فيصل بمساعدة بريطانيا له ، وخضع «لنصائحهم» ، اعترف عمون بوجوب رعاية فرنسا للبنان فى خطاب شهير جاء فيه « ••• واذا كانت (اى حكومة جبل لبنان) عالمة بعدم كفاءة البلاد على الخصوص فى بدء امرها ان تترقى بنفسها بدون مال ولا اخصائيين ، رأت ان تطلب مساعدة دولة عظمى وهذه لا يمكن

---

(١) الرياشى ٢٠

(٢) مزهر ٢ : ٨٦٨

(٣) عطية ٦٨ — ٧١

ان تكون غير فرنسا لان مبادئها الحرة وتقاليدها العتيدة والاحسانات التى غمرت بها لبنان على الدوام فى الايام العصيبة والتهذيب الراقى الذى اشربته اياه ، كل ذلك مما اهاب باللبنانيين قاطبة اليها ، حتى ان مجلس الادارة الكبير وهو صـدى الرأى العام الامين قرر باجماع الاراء طلب مساعدة فرنسا ٠٠٠ **ولبنان يأبى الاشتراك فى الوحـدة السورية مع المحافظة على شخصيته الممتازة الا اذا كانت فرنسا هى الدولة المساعدة لكليهما معا والا فانه يفضـــــل بقاءه على ضعفه منفردا ٠٠ (١) »**

اتفقت الدول المنتصرة على ارسال لجنة كراين الاميركية لاستفتاء الشعب حول المصير الذى يريده ٠ وطالب المسلمون امام هذه اللجنة بالوحدة السورية ورعاية اميركا ، او بريطانيا ٠ اما الموارنة فطالبوا باستقلال لبنان وحماية فرنسا ٠ وفى الوقت الذى كانت اللجنة تجرى فيه استفتاءها كان البطريرك المارونى ، الياس حويك يسافر الى فرنسا ليطالب بالاستقلال والحماية الافرنسية باسم الموارنة (٢) ٠ وقد اكد هذا البطريرك ، بعد رجوعه ، بان فرنسا «لا تريد ان تملك ارضا بل ان تعمل خيرا للبلاد ٠ ولا يوجد فى الدنيا كلها دولة مثل فرنسا ٠ وهى لا تطلب منا لا مالا ولا رجالا وانما تطلب الشكر ومعرفـــــة الجميل » (٣) ٠ ثم سافر الوفد اللبنانى المسيحى الثالث ، برئاسة المطران عبد الله الخورى ، ليطالب بالشىء نفسه ٠ ونجح هذا الوفد فى الحصول على وعد فرنسى رسمى بتنظيم الانتداب وتثبيته ، كما اراد الموارنة ٠

اما المؤتمر السورى الذى عقد فى دمشق فى السادس من اذارسنة ١٩٢٠ فقد قرر الوحدة السورية وبايع فيصل ملكا ٠ فغضب الموارنة ، واحتجوا ، وسيروا التظاهرات فى الشوارع ٠ وارســـل البطريرك انذاراته وتحذيراته من تحقيق الوحدة ٠ وطالب فرنسا بالعمل السريع ٠ ولم يمض خمسون يوما الا وكانت فرنسا تظفر بوعد دولى جـديد ،

---

(١) دريان ٤٧٥ ـ ٤٧٧

(٢) المصدر نفسه ٤٨٦ ـ ٥٠٣

(٣) المصدر نفسه ٥١٥

لانتدابها على لبنـــــان ، فى مؤتمر سان ريمو • فثار الفيصليون فى دمشق ضد هذا الوعد • وايد مسلمو لبنان ، خاصة سكان جبل عامل والبقاع ، هذه الثورة •وقامت الفتن الطائفية بينهم وبين الموارنة الذين يسكنون بينهم ، فى عدد كبير من القرى • واستعمل المسلمون اسلحة بريطانية ، بينما استعمل الموارنة اسلحة فرنسية !(١)

وانتقم الافرنسيون من الثائرين ، ومن جماعة فيصل • وكان معظم هؤلاء من المسلمين ، مثل رشيد وسعيد طليع ، رضـا ورياض وعفيف الصلح ، عادل وامين ارسلان ، خالد شهاب ، رشيد رضا ، هانى ابو مصلح ، صبحى حيدر ، توفيق بيسار ، عارف نكد ، تامر حماده ، عبد الستار سندروسى ، مصطفى غلايينى ، شريف عسيران، يوسف ابو ظهر ، وغيرهـــم (٢) • ولم يشترك فى المؤتمر السورى الذى ايد فيصل ، من بين عشرات المسلمين اللبنانيين ، الا اربعة من المسيحيين ، من آل مفرج وحرفوش وغلميه ونفاع (٣) • وكان الساحل اللبنانى الاسلامى يؤيد فيصل تأييدا مطلقـــا • اما سكان المناطق المسيحية فقد عارضوا فيصل وارسلوا له ان ٩٥ بالمئة من اللبنانيين لا يريدونه !(٤) ومن الموارنة القلائل الذين ساندوا فيصل والدعوة العربية فى لبنان الخورى يوسف اسطفان • وقد اضطر هذا الخورى الى ترك سلك الكهنوت والهجرة من لبنان، فى سبيل خدمة فيصل(٥) والمارونى الوحيد الذى اشترك فى ثورة فيصـل ، فعلا ، هو الشيخ فريد الخازن • الا انه تخلى عن فيصل لما رجع الى لبنان (٦)

وحاربت فرنسا الدعوة الفيصلية بان شجعت الدعوة اللبنانية «الاستقلالية» ، ونشرت بذور الفكرة الفينيقية بين الموارنة • وقـد اظهرت هذه الفكرة العرب كوحش يبتغى ابتلاع المسيحيين للتخلص منهم • وعنى عملاء فرنسا بتذكير المسيحيين بحوادث القرن الماضى

---

(١) دروزة ١ : ١٠٨ ، ١٢٤

(٢) المصدر نفسه ٧٧ ـ ٧٨

(٣) المصدر نفسه ٩٨

(٤) آصف ٦١٠

(٥) اوراق لبنانية ج ٦ ص ٢٦١ فى حزيران ١٩٥٥

(٦) الرياشي ١٥٧ ـ ١٥٨

وتعديات الطوائف الاسلامية عليهم ٠ وصوروا الاسلام كدين دخيل على لبنان ، بعكس المارونية التي هي المذهب التاريخي لهذا البلد(١)

• • •

واعلن الجنرال غورو باسم الحكومة الفرنسية ، في الاول من ايلول سنة ١٩٢٠ ، تأسيس دولة لبنان الكبير ٠ فرحب الموارنة بهذا المشروع ، مع انهم عرفوا انه يعني ضم لبنان الى فرنسا وليس استقلاله عنها ٠ وخطب زعماؤهم يحيون هذا الضم ، ويشكرون فرنسا لانها احسنت الى لبنان فاعتبرته جزءا منها ، مثل الالزاس واللورين (٢)

وقد استرجع لبنان ، في عهده الجديد ، المناطق التي سلخت عنه منذ سنة ١٨٦٠ ٠ ولما كان معظم سكان هذه المناطق مسلمين ، طالبوا بالبقاء ضمن الدولة السورية ٠ وعارضوا فكرة الضم الى لبنان ٠ الا ان فرنسا اهملت مطاليبهم ، فقد قصدت ان تزيد عدد المسلمين في لبنان ، لتوجد توازنا طائفيا يترك الشعب في حالة توتر دائم ٠

وادى ترحيب المسيحيين باسترجاع الاجزاء المسلوخة من بلادهم ، ومعارضة المسلمين لذلك في الوقت نفسه ، الى قيام عدد من الفتن الطائفية ٠ وشهد جنوب لبنان اشد هذه الفتن ٠ وكان المسلمون ، من شيعة وسنة ودروز ، يشتركون في اضطهاد المسيحيين ٠ وتزعم هذا الاضطهاد محمود الفاعور وادهم خنجر ــ والثاني حفيد زعيم اقطاعي عرف سنة ١٨٦٠ باحسانه الى المسيحيين والدفاع عنهم (٣)

وكان الفرنسيون يدعمون الموارنة في هذه الفتن ٠ **فقد بدأ الفرنسيون انتدابهم على لبنان باعلان ارتباط وثيق مع الطائفة المارونية ، دون الطوائف الاخرى** ٠ وتبادل الفريقان الحفلات والزيارات والمجاملات ، والهدايا والعطايا ٠ واعلنا ارتباطهما التاريخي الدائم في مؤسسة مذهبية واحدة ٠ فاعتبرت الطوائف الاخرى هذه الظواهر تحديا لها واستخفافا لمشاعرها (٤) ٠ خاصة وان تلك الطوائف كانت تلقى

---

(١) دروزه ٢ : ١٢٤ ــ ١٢٨

(٢) آصف ٣ ، ٢٦

(٣) دسعد ١١٧

(٤) خباز ١ : ٥١

عكس هذه المعاملة من حكومة الانتداب. فقد نكل الافرنسيون بالدروز لمجرد اعتداء نفر منهم على اميرال الاسطول الفرنسي في الشرق الذي كان في زيارة رسمية لشيخ العقل في بعقلين . وعارضت فرنسا في مبايعة زعماء المسلمين للحسين بالخلافة ، سنة ١٩٢٣ ، ونفت عبد الحميد كرامه وسامح فاخوري وغيرهما من رجال هـذه الفكرة الى خارج لبنان ، وعطلت الصحف التي كانت تؤيدهما (١) . وكان الولاء الماروني لفرنسا يزداد كلما يزداد العداء الاسلامي لها . ولذلك اصبح للموارنة «دالة» كبيرة على المفوضين السامين ، حتى انهم خضعوا احد هؤلاء ، ساراپل ، لنفوذهم ، واجبروه على مراعاة اوامرهم(٢) . واصبح للبطريرك كلمته النافذة في شئون البلاد (٣) واهتمت فرنسا بتشجيع المدارس الكاثوليكية والافرنسية ، واهملت المدارس الاسـلامية او المسيحية الاخرى . واصبحت تلك المدارس الاسلامية مراكز الدعـوة للقومية اللبنانية وصداقـة فرنسا (٤) . وادخلت فرنسا الى لبنان لاجئين مسيحيين ، من الارمن والسريان والاشوريين باعـداد كبيرة ، واسكنتهم في بيروت وبعلبك ورياق، واستخدمتهم في دوائر البوليس والجمارك والاستخبارات . وكانوا عونا لها ضد المسلمين (٥)

ادت هذه التفرقة في المعاملة بين المسيحيين والمسلمين الى حصر الثورات في لبنان ضمن المناطق الاسلامية . واشهر هـذه الثورات تلك التي تزعمها ملحم قاسم في البقاع ، واخرى قام بها الدروز في الشوف. الا ان الموارنة وقفوا الى جانب الحكومة الفرنسية وساعدوها ضد الثائرين ، فغضب المسلمون وهبوا للانتقام من الموارنة . ونشبت الفتن الطائفية في سنتي ١٩٢١ و ١٩٢٢ في عين اللجة وبيدر الرمل والدامور . وتزعم محمود رفاعي وشكيب وهاب وفندي ياغي المسلمين،

---

(١) المصدر نفسه ١٤٩

(٢) المصدر نفسه ١٩٦

(٣) دروزة ٢ : ١٣٤ ، Kohn ١٨٣ — ١٨٥ .

(٤) خباز ٢ : ٨٠ — ٩٨

(٥) الكيالي ٣٩ ٥٥ — ٥٧

بينما قاد توفيق عزيز ويوسف ثابت الجماعات المسيحية (١) ٠

وراعت فرنسا امر الطائفية فى البلاد من ناحيتها الدستورية٠ فوزعت الوظائف الادارية حسب النسب التالية: ست وظائف للموارنة مقابل اثنتين للارثوذكس ، واثنتين للسنة ، وواحدة لكل من الشيعة والكاثوليك والدروز (٢) ٠ الا ان الافرنسيين كثيرا ما كانوا يتجاهلون هذه القاعدة ، ويخصون اصدقاءهم ببعض الوظائف العالية على حساب الطوائف الاخرى ٠ وكانوا يتدخلون فى القضايا الانتخابية ،فيضغطون على سير الانتخابات احيانا ، ويزورونها احيانا ٠ وقلما كانوا يراعون رأى الشعب (٣) ٠ ولم يكفهم انهم إعطوا الموارنة حصصا، في الوظائف والمقاعد النيابية ، اكثر مما يستحقون ، من الناحية العددية (٤) ، بل ظلوا يضعون اسطورة المحافظة على الاقليات ويذكرون الطائفية فى صلب الدستور الى نهاية عهدهم (٥) ٠ واتفقوا على كون رئيس الجمهورية مارونيا ، ورئيس الوزراء سنيا ٠ وقد حفظ النواب والموظفون والمسؤولون الموارنة لفرنسا هذا الجميل نحوهم ، فحافظوا على ولائهم حتى ان البطريرك عريضة نفسه اتهمهم بالعبودية لفرنسا (٦) ٠

• • •

وظل المسلمون فى لبنان يطالبون بالوحدة السورية، شاملة لبنان، كمقدمة لوحدة عربية اوسع ٠ وعقدوا عدة مؤتمرات لهذا الغرض ٠ فقد عقد مسلمو بيروت مؤتمرا كبيرا في دار المقاصد الخيرية سنة ١٩٢٥ وطالبوا بهذه الوحدة ٠ وتبعهم في ذلك مسلموصيدا وطرابلس وجبل عامل (٧) ٠ ونجح وجهاء المسلمين فى حمل نواب الطائفة

---

(١) مزهر ٢ : ٩٥٢ ـ ٩٥٥

(٢) خباز ١ : ٠ ١٧٦

(٣) المصدر نفسه ١٩٢

(٤) نال الموارنة ٤٦ ٠/٠ من الوظائف ، بينما كانوا ٣٠ ٠/٠ من السكان فقط

(٥) راجع المادة ٩٥ من دستور الانتداب ، ومادة ٦ و ٦ مكرر من دستور سنة ١٩٣٦

(٦) الرياشي ١٣٧

(٧) مزهر ٢ : ٩٦٩

المطالبة بالوحدةداخل المجلس النيابى ، سنة ١٩٣٦ (١) ٠ واشترك مسلمو لبنان في المؤتمر الكبير الذي عقد سنة ١٩٢٨ فى دمشق ، فى بيت السيد ياسين الجابي ، للمطالبة بضم لبنان الى وحدة سورية شاملة (٢) ٠ وبعد انتهاء المؤتمر قاد السادة عبد الحميد كرامةورياض الصلح واحمد الداعوق ومحمد بيهم وملحم فرزلى وانيس نجا وصبحي حيدر ومراد غلميه وسعدي المنلا (واغلبيتهم من المسلمين) الحملـــة للدعوة للوحدة السورية البنانية (٣) ٠ ونجح دعاة الوحدة فى عقد مؤتمر الساحل المشهور سنة ١٩٣٦ ٠ وبالرغم من اشتراك عدد كبير من المسيحيين ، ومن المواطنين غير الطائفيين ، في ذلك المؤتمر ، الا ان السيطرة فيه كانت للمسلمين (٤) ٠

وقام المسلمون ببعض الاعمال السلبية لتحقيق هذه الوحدة ، فقتل بعضهم اسعد بك ، مدير داخلية لبنان ، لتحالفه مع فرنسا ضد فكرة الوحدة (٥) ٠ واضرب موظفو وعمال شركات التراموى والنور والسينما فى طرابلس وبيروت ، بتحريض من المؤسسات الاسلامية(٦) وساعد البقاع ثوار سورية ضد فرنسا سنة ١٩٢٢ (٧) ٠ وثـــار دروز وادى التيم ومرجعيون وكوكبا على المسيحيين وفرنسا مساندة لثورة دروز سورية ١٩٢٥ (٨) وتحولت ثورتهم الى فتنة طائفيـــة فى لبنان فهدد الدروز مدن المسيحيين فى الجنوب والبقاع وفرضـوا الغرامات عليهم ٠ واستنجد المسيحيون بالفرنسيين وتسلموا الاسلحة منهم (٩) وبينما رضى الموارنة بمعاهدتى سورية ولبنان مع فرنســا

---

(١) الكيالى ٤٤

(٢) عطية ٨٧

(٣) مزهر ٢ : ٩٧٤

(٤) عطية ٨٩ : الرواد ٧٩

(٥) مسعد ١٠٧

(٦) التقرير عن حالة سورية ولبنان ١٥

(٧) مسعد ١٠٩

(٨) مزهر ٢ : ٩٦٢

(٩) المصدر نفسه ٩٧١

سنة ١٩٣٦ واعتبروها ضمانة ضد ضم لبنان الى سورية ، ثار المسلمون عليها بشدة (١) ٠

وثار المسلمون ايضا على التحديات الفرنسية لهم ٠ ففى سنة ١٩٣٢ الغت فرنسا الانتخابات لرئاسة الجمهورية لما وجدت امكانية نجاح السيد بشارة الخوري تفوق امكانية السيد اميل اده ٠ فقد كان الاول صديقا للمسلمين وللفئات العربية اما اده فاشتهر بتعصبه الماروني ٠ وكان قد اغضب المسلمين سنة ١٩٢٩ لتشجيعه المؤسسات الثقافية والصحية المسيحية على حساب المؤسسات الحكومية التى تخدم فى المناطق الاسلامية ٠ وعرف اده بعدائه للمسلمين حينما قال مرة ان على المسلمين الرحيل عن لبنان المسيحى (٢) لذلك هب المسلمون ضد هذا التحدى السافر ٠ كذلك غضبوا لما جددت حكومة الانتداب الدستور القديم ، واضافت اليه نظاما انتخابيا جديدا ، سنة ١٩٣٧ ٠ فقد قضى ذلك النظام بتوسيع المجلس النيابي ، بحيث ازداد عدد نواب الموارنة ٠ ودعمت فرنسه عملها هذا بمناصرة لحركة مسيحية ، تزعمها لبنانى يدعى الدكتور شلفون ، كانت تستعمل القوة لتحقيق مطاليبها الطائفية ٠ ولكن ضغط المسلمين اضطر الحكومة الى اعتقال زعماء هذه الحركة وايقافها (٣)

• • •

ولم يصبح الصراع «العقدي» بين المسلمين والمسيحيين صراعا حزبيا منظما الا في الخمس والعشرين سنة الاخيرة ٠ ذلك ان سورية الطبيعية لم تعرف الاحزاب النظامية الا بعد سنة ١٩٣٠ ٠ وكان الحزبان النظاميان الاولان غير طائفيين ٠ واولهما الحزب السوري القومي وثانيهما عصبة العمل القومي ، وقد تأسست عصبة العمل فى قرية قرنايل برئاسة السيد عبد الكريم دندشي ، فى الرابع والعشرين من اب ١٩٣٣ ٠ وقد دعا هذا الحزب الى قومية عربية لا طائفية وجاء في تعاليمه « وحيث ان ذريعة الاقليات كانت وما

(١) Abu Chedid ١ : ٥٨

(٢) الرياشي ٤٣ ، ٦٧ ، Kohn ٢٠٣

(٣) دروزة ٢ : ١٤٤ ـ ١٤٥

تزال سلاحا ماضيا بيد المستعمرين يبررون بها تدخلهم في شؤون الامم المستقلة فيتوصلون بذلك الى استعمارها ، وحيث انه لا فرق في الحقوق والوجائب بين مواطن ومواطن ايا كان مذهبه او منبته او لغته فاننا ننكر ولا نعترف بوجود الاقليات المذهبية او العنصرية او اللغوية وليس لسكان البلاد العربية غير جنسية واحدة هي الجنسية العربية ولغة رسمية واحدة هى اللغة العربية وكل اخلال بهذه الوحدة جريمة وطنية» (١) غير ان الحزب انحل ، فتحول بعض اركانه الى حزب النداء القومي ، منذ خمس سنوات · اما معظم اعضائه فقد اعتنقوا العروبة الاسلامية ، السائدة بين صفوف الشعب ، ومنهم من اصبحوا من كبار طائفيي البلد· ولحق بعصبة العمل حزبان عربيان اخران ، غير طائفيين ، وهما **حزب النداء القومى ، الذى تأسس سنة ١٩٤٤،** وحزب البعث العربى الذي تأسس سنة ١٩٤٠ في الجمهورية السورية (وله فرع في لبنان) ولا يشكل اي من هذين الحزبين قوة شعبية ، او اتجاها فكريا عاملا في تقرير مصير الطائفية او التأثير عليها ــ بالرغم من دعوة الحزبين الى الغاء الطائفية وفصل الدين عن شؤون الدولة ·

اما الحزب العقدى غير الطائفى الاول فى لبنان فهو الحزب السورى القومي ، الذي اتفق المسئولون فيه على اعتبار السادس عشر من تشرين الثاني سنة ١٩٣٢ ، عيدا لتأسيسه · وقد إعلن هذا الحزب حربه على الطائفية في تعاليمه ومبادئه ، وفى حياة واعمال اعضائه · والدعوة الى توحيد سورية في قومية جامعة واحده دعوة لا طائفية ، من قبل ان تصبح دعوة هذا الحزب الخاصة · فمعظم الذين دعوا الى وحدة سورية منذ نهاية القرن الماضى واوائل هذا القرن ، من مفكرين وادباء ، كانوا معروفين بعدائهم للطائفية (٢) اذ ان القول بامة سورية بحد ذاته ، يعني الغاء لصبغة لبنان المسيحية ، من جهة ، والغاء لصبغة سورية الاسلامية من جهة أخرى · وكانت الحكومة الفرنسية قبيل انتدابها على لبنان ، قد ادركت خطر هذه الدعوة السورية على

---

(١) الرواد ١٤٣

(٢) عطية ٦٥ ــ ٩٠

الطائفية في لبنان ، فحاولت تبنيها ، بعد جعلها دعوة طائفيــــة !
ولذلك رضيت عن جهود الاب لامنس ، الذي اثبت وحدة سوريـــة ،
جغرافيا وتاريخيا وعرقيا ٠ ثم شجعت الاساتذة خير الله خير اللــه
وموريس باريس وندرة مطران والعازوري ، وغيرهم من اللبنانيــــين
الموالين لها ومن الافرنسيين ، على تحبيذ فكرة القومية السوريـــة
لتقف ضد الوحدة العربية الاسلامية ٠ حتى انها وافقت على انشــاء
دولة سورية موحدة تشمل لبنان ، سنة ١٩١٩ ، وارسلت جـــورج
بيكو الى البطريرك المارونى ليقنعهبقبول ذلك (١) ٠

لكن الحزب السوري القومي وضع الدعوة القومية اللاطائفية على اسس علمية ، وفى قالب نظامى ، جديد ٠ فاعتبر هذا الحــزب الدين عنصرا لا اثر له في تكوين الامم ونشوئها ٠ فالامة جماعـــــة
واحدة ، في قوميتها وحقوقها وواجبات افرادها ، دون ان يكـــــون
للطائفية او المذهب اى اعتبار ٠ اذ ان البيئة هى العامل الاهـــم فى
نشوء الامم ٠ والامة السورية هي تفاعل الشعب الساكن على ارض
سورية ، ضمن حدودها الطبيعية مع البيئة السورية ، على مـــــر
العصور ، في وحدة حياة اشتركت فيها جماعات مختلفة الاجناســـ
والطوائف والسلالات ــ كما قال الاستاذ انطون سعــــاده مؤسس
الحزب (٢) ٠

وقد حارب الحزب ، فى مبادئه الاصلاحية ، فكـرة وتقليـــــد
اعتماد الطائفية كجزء من الحياة السياسية في دول سورية الطبيعية ٠
فطالب بفصل الدين عن الدولة ، ومنع رجال الدين عن التدخل فــي
شؤون القضاءوالاقتصادوالادارة (٣)واعتبر القوميون هذه المطالــــب
القسم الرئيسي من برنامجهم السياسي ، ومن حياة الاعضاء وتصرفاتهم
اليومية ٠ وجعلوها امرا لازما لبناء الشخصية القومية الاجتماعية ٠
ومهما كانت درجة تطبيق اعضاء هذا الحزب لمبادئهم السياسيـــــة
والاساسية ، تظل المبادىء المعادية للطائفية اكثر نظرياتهم تطبيقـــا
وممارسة ٠ **وتاريخ الحزب ، برنامجا واعمالا ، فى سنواته الثــلاث**

---

(١) المصدر نفسه ٥٢ ــ ٥٧

(٢) سعاده ٢٧٨

(٣) راجع المبادىء الثلاثة الاولى من المبادىء الاصلاحية للحزب

والعشرين ، سجل ناطق لنجاح القوميين الساحق في نزع بـــذور الطائفية من نفوسهم ، وفى سعيهم لنزعها من نفوس المواطنين • وقد اشترك الحزب ، اكثر من مرة ، في تخفيف حدة التوتر الطائفي بيـن الاتجاهين العربي المسلم واللبناني المسيحي- ان في خلافات الكشاف المسلم والكتائب اللبنانية سنة ١٩٣٦ ، او في الضجة التي اثارتهـا الكتب الطائفية فى السنوات الاخيرة ، او فى حملته ضد القضـــاء الطائفي سنة ١٩٥٢ ، وغير ذلك من المناسبات • وليس بين مؤسسات لبنان من حصلت على نسبة معقولـــة في الزواج المختلـط ، بيـن الطوائف ، مثل النسبة التي يفاخر بها اعضاء الحزب السوري القومي الاجتماعي اليوم •

واعتبر الاستاذ سعادة نظرته السورية القومية الاجتماعيـة ، **اللاطائفيـــة نتيجـــة** Synthese **للاتجـــاه (ال** Thesis **المســيحي اللبنـــاني ورد فعله المعاكس ، ال** Antithesis **الاســـلامي العربي •** غير ان هذين الاتجاهين وجدا فى الحزب خطرا كبيرا عليهما ، ولـــم يقبلا به حلا وسطا لتطرفهما• وفتح نشوء الحزب ونشاطه المجال امام هذين الاتجاهين لتأسيس الاحزاب «العقدية» ، على غرار هذا الحزب وبجهود بعض اعضائه السابقين •

وحزب الوحدة اللبنانية اول هذه الاحزاب التي قامت على غرار الحزب السورى القومى ، لمعارضته ، من الناحية الطائفية المارونية • وعرف رئيس الحزب الاستـــاذ توفيق لطف الله عواد ، بصلاتـــه الوثيقة مع فرنسا ومع الرأى العام الماروني ، ولعب الحـــزب دورا رئيسيا في اثارة النعرات الطائفية ، التي كانت تتخفى في ثـــوب عقدي ديموقراطي وطني • ولولا مساعي بعض السياسيـــين لادت تحديات هذا الحزب الى قيام فتن طائفية بين اعضائه وافراد الطائفة السنية في بيروت (١) •

ثم اسس السيد بطرس الجميل ، سنة ١٩٣٦ ، **منظمة الكتائب اللبنانية** • وكانت غايتها جمع الشباب الماروني في منظمة كشفيـــة رياضية، اجتماعية النشاط • وكانت الكتائب منذ تأسيسها منحصرة

---

(١) تقى الدين ٤٣

ضمن الطوائف المارونية والكاثوليكية • اما المسلمون والارثوذكس والبروتستانت فهم اقلية زهيدة ، قد لا يزيد عددهم عن الاربعين عضوا (١) واريد من هذه المنظمة مجابهة النشاط الاجتماعي لمنظمة الكشاف المسلم • ولما دعا الكشاف المسلم الى الوحدة السوريةوالعربية دعت الكتائب الى الاستقلال اللبناني •

وتتهم فرنسا بانها شجعت فكرة تأسيس الكتائب ، وامدت رجالها بمساعدات كثيرة ، خاصة في السنوات الاولى من تاريخها • وينقل الاستاذ لورسين ، مؤلف احد الابحاث القيمة في تاريخ الكتائب ، عن سجلات المفوضية الاميركية في بيروت ، بعض الايضاحات عن هذه المساعدات • حتى انه يتهم بعض كبار المسؤولين في هذه المنظمة بأخذ راتب شهري من الحكومة الفرنسية ايام الانتداب ، ويورد الكاتب المذكور تفاصيل الصلات الثقافية التي تربط كبار رجال الكتائب مع فرنسا ، الى جانب الاتصالات السياسية• ويعلل هذا الاتصال في المقام الاول ، الى تعصب المسيحيين ضد المسلمين ، وخوفهم من تسلط الاغلبية الاسلامية ، فى العالم العربى ، عليهم (٢) •

اما **النجادة** فهي المنظمة الاسلامية التي قلدت الكتائب في مساعيها الطائفية ، وفي حجب هذه المساعي وراء ستار العقائد • وقد مثلت النجادة الاتجاه الاسلامي المتطرف من العروبة • وعهد الطائفيون من المسلمين اليها بامر منافسة الكتائب ، بحيث تحول الصراع المسيحي الاسلامي الى صراع كتائبي نجاد • ومؤسسو منظمة النجادة ، بل معظم اعضائها ،من المسلمين • وهم، وان كانوا لايرتبطون بدولة اجنبيةما مثلما تتهم الكتائب بارتباطها مع فرنسا،الا انهم كثيراما يستوحون مصالح عربية او اسلامية مستقلة عن المصلحة اللبنانية ـ «اللبنانية» من زاوية القائلين بالمصلحة اللبنانية الخالصة بمفهومها الانعزالى •

وقام فى لبنان ، الى جانب منظمتى الكتائب والنجادة ، عدد من الاحزاب والمنظمات الطائفية الاخرى التى اشتركت فى تحويل

---

(١) Lauvser ٩٥ ـ ٩٩

(٢) المصدر نفسه ٤٣ ـ ٤٥

الصراع الطائفى الى صراع حزبى وجارت هاتين المنظمتين فى تزوير العقائد ، وتنظيم المصالح الطائفية فى مؤسسات حزبية ٠ فقد اسس الروم الارثوذكس سنة ١٩٤٣ منظمة **الغساسنة** ٠ واسس الشيعة منظمتين لهم ، الطلائع (لجماعة السيد رشيد بيضون)والنهضة (لجماعة السيد احمد الاسعد) ٠ ثم اسس بعض الموارنة ، برئاسة إلياس حرفوش ، حزبا جديدا ، مسيحيا متطرفا ٠ اما السنيون فأسسوا جماعتى الاخوان المسلمين وعباد الرحمن ، المستقلتين ،وفرعا للشبان المسلمين ٠

كانت هذه المؤسسات امتدادا للنزاع الطائفى العريق فى‌تاريخ لبنان ٠ لكنها خالفت التقاليد الطائفية القديمة بانها لم تسفر عن وجهها الطائفى ٠ فقد طالب معظمها بالغاء الطائفية وباقامة نظم مدنية ديمقراطية ، الا ان هذه المطالبة كانت فى بعض الاحيان وعند بعض المؤسسات تهربا رخيصا من تحمل مسئولية واقعها امام الشعب ٠ ولو تم الغاء الطائفية ، من النفوس ومن القوانين ، كما تطالب اغلب هذه المنظمات ، لزال المبرر الاكبر لوجودها ، ولكانت المنظمات المذكورة قد حطمت نفسها بنفسها ــ وهذا ما لا نظنها تفعله٠

فاخلاص الطائفيين من المسيحيين للبنان هو للبنانى المسيحى ، كما يفهمونه ٠ فالمارونية عملت فى تطور لبنان «حتى عرف بهاوعرفت به» ٠ فلا وطن‌لها سواه ولا كيان‌له بدونها ٠ « فالمارونية بنت لبنان ، ولبنان فى الكثير من مزاياه وخصائصه ، صنع المارونية » كما قال الاستاذ افرام البستانى ، رئيس الجامعة اللبنانية ، ومن دعاة القومية اللبنانية (١) ٠

فالامة اذن لا تقوم عند المؤمنين بالقومية اللبنانية على اللغة ،كما يقول القوميون العرب ، ولا على البيئة، كما يقول القوميون السوريون، بل على وحدة الشعب اللبنانى فى التاريخ ٠ وقد بدأت هذه الوحدة ايام الفينيقيين ، ثم اصطبغت بالمسيحية منذ القرون الاولى للميلاد ــ هذا ، مع العلم بان الفينيقيين لم يمثلوا

---

(١) محاضرات الندوة اللبنانية سنة ٣ النشرة الخامسة والسادسة فى ٢١ حزيران ١٩٤٨ ، ص ١٦٨ ــ ١٦٩

لبنان الجغرافى تمثيلا صحيحا ، اذ امتدوا على سواحل سورية الطبيعية ، من سورية ولبنانية وفلسطينية ، دون ان ينحصروا فى لبنان وحده ، واذا اكتفوا بالساحل اللبنانى دون ان يسكنوا جميع جباله ٠

ومثلما يسعى المؤمنون بالقومية اللبنانية الى انشاء امة لبنانية بالمفهوم العلمى الحديث يسعى القوميون العرب الاسلاميو الاتجاه الى تأسيس امة عربية بالمفهوم الدينى ٠ والنظرية الاسلامية من هذه الامة هى ، كما جاء فى تعاليم الاخوان المسلمين ،

« لقد جرب كثيرون من الزعماء والاحزاب ان يسلكوا الى الوحدة القومية عن غير طريق الدين فلم يفلحوا ولم تثمر دعوتهم فى جماهير الشعب الثمرة الحقيقية المرتجاه ، اللهم الا فى نفوس تحللت من الاسلام والمسيحية على السواء ٠٠٠ واما الذى يمنعنا من الاستفادة من الاسلام لاذكاء روح النضال والتحرر فى جماهيرنا ٠ ان العرب يضطرون لان يجلسوا الى العالم المتمدن يأخذون منه ما ليس عندهم ويعطونه ما ليس عنده ، فخير لهم وللعالم ان يحملوا بيدهم تراث الاسلام وتشريعه الخالد ومحاسن حضارته ٠ ان كل امة من الامم المتحضرة وكل قومية من قوميات العالم الحديث لها فلسفتها الخاصة بها ٠ ونحن العرب من مسلمين ومسيحيين لنا فلسفتنا التى طبعتنا فى التاريخ طبعا خاصا وجعلتنا فى تاريخ العالم شيئا مذكورا ، والتى يجب ان تميزنا اليوم عن غيرنا من الامم ٠ إن فلسفتنا القومية هى الاسلام ، لا الاسلام بمفهومه الدينى الكنيسى ولا الاسلام بمفهومه العبادى الذى يقتصر على المسلمين فحسب ، بل الاسلام بمفهومه الواسع وفلسفته الشاملة للحياة ومبادئه العامة فى الاخلاق وتشريعه المدنى العالى ٠ هذه هى فلسفتنا نحن كعرب اذا اردنا ان ندعوا الى قومية ننتزعها من ضمائر امتنا وقلوبها وعقائدها وواقعها فى التاريخ ، لا ان نلفق لها قومية من هنا وهناك فتبدو كثوب مستعار مرقع غير منسجم (١) ٠

• • •

---

(١) الاحزاب السياسية ٢٢ ـ ٢٥

لا يقتصر هذا الصراع الطائفى ، المغلف بالعقائد على الصعيد النظرى ، بل يمتد باثاره الى حياة لبنان السياسية بخطوطه العريضة • وهو يتجلى فى حقول سياسية ثلاثة : علاقة لبنان بالعالم العربى • علاقة لبنان بسوريا الطبيعية ، وعلاقة لبنان بفلسطين • ويظهر أثر الطائفية فى هذه الحقول الثلاثة ، فى اتجاه كل من الطائفتين الكبيرتين ، عند معالجة قضايا هذه الحقول •

بدأت علاقة لبنان بالعالم العربى ، من الوجهة الرسمية الاتحادية ، تظهر على المسرح السياسى الطائفى بشكل واسع منذ نشوب الحرب العالمية الثانية • وكان لبريطانيا ، الداعية الى الوحدة العربية ، نفوذ كبير فى لبنان • فهى حليفة فرنسا ، نصيرة الموارنة فى حربها ضد المحور ، وهى صديقة المسلمين ، بعد ان عملت جاهدة لتحطيم الصداقة الاسلامية النازية (التى نتجت عن الصداقة الفرنسية المارونية)• وهكذا وعى الانكليز والفرنسيون الحقيقة الطائفية فى لبنان، وراعوها فى معاملاتهم مع طوائفه • ولكى يضمن الانكليز محافظة المسلمين على ولائهم لهم ، ساعدوهم ضد نفوذ فرنسا ، وضد الطائفة التى تحالفها • فبينما كان الجنرال كاترو الافرنسى يتجول فى لبنان ، مدعيا بأن اللبنانيين يطالبونه بحماية فرنسية ، كان الانكليز يرسلون الجنرال الداهية ، سبيرز ، لمساندة المسلمين ضد فرنسا • وبدأ صراع الرجلين واضحا لما وضعت فرنسا ، فى دستور لبنان سنة ١٩٤١ نصا يقول ان لبنان دولة «تؤلف سياسيا وجغرافيا وحدة لا تتجزأ» • فقد اصرت بريطانيا على شطب هذه الجملة التى يعارضها المسلمون • واذاع كاترو ان بريطانيا تسعى من وراء ذلك الى وضع لبنان تحت المطامع الاسلامية، خاصة وان بريطانيا كانت تتقرب من السيدين بشارة الخورى ورياض الصلح ، وتشجعهما فى الدعوة الى وحدة عربية شاملة ، والغاء الاستقلال الذى اعلنته فرنسا • وفى انتخابات سنة ١٩٤٣ ساندت بريطانيا حزب الكتلة الدستورية ، الموالى للوحدة العربية والمتحالف مع المسلمين ، ضد حزب الكتلة الوطنية الذى والى فرنسا ورفض المشاريع العربية (١) •

---

(١) مزهر ٢ : ١٠٤٠ – ١٠٥٥

واستلم الحكم ،فى تلك السنة ، الدكتور ايوب ثابت ، الذى اتهم بتعصبه المسيحى وصداقته لفرنسا ٠ فقدكان يؤمن بجعل لبنان «وطنا قوميا مسيحيا تضمن سلامته الدولة الافرنسية التى يرى فيها افضل الدول للمحافظة على هذه القومية» (١)

اصدر الدكتور ثابت ، بطلب فرنسا وترحيب الموارنة، مرسوما اشتراعيا عدل فيه التمثيل الطائفى للانتخابات ، واعطى حق التصويت للبنانيين المهاجرين الى الخارج ٠ واتضح للمسلمين أن مشروعا كهذا يضمن للمسيحيين اكثرية اثنى عشر صوتا، من بين ستين نائبا، فى المجلس النيابى العتيد ٠ فاجتمعوا فى بحمدون ، وقرروا مقاطعة الانتخابات ان اصرت الحكومة على تبنى المشروع الجديد ٠ وتوالت الاجتماعات الطائفية ، بالرغم من استقالة الدكتور ثابت ، امام هذا الضغط وتعيين الاستاذ بترو طراد مكانه ٠ وكانت فرنسا تنظر الى هذه المؤتمرات بعين الرضا ، لانها تثير الفتنة فى صفوف الشعب ٠ ووجد الانكليز الفرصة مناسبة لان يتدخلوا ، ويتقربوا الى المسلمين من جديد ٠ فاوعزوا الى الرئيس مصطفى النحاس (باشا) ، رئيس الوزارة المصرية ذلك الوقت ، بان يرسل الى الجنرال كاترو ، فى الرابع من تموز ١٩٤٣ ، رسالة قاسية اللهجة ، يطالبه فيها بمنح المسلمين حقوقهم ، وعدم احصاء المهاجرين ، والا فهو ، اى النحاس، يهدد الجنرال بان العاقبة ستكون وخيمة ، وان مصر لن تقف مكتوفة الايدى (٢) ٠

وافتى الانكليز بان يتألف المجلس النيابى الجديد من خمسة وخمسين نائبا ، يتوزعون بنسبة ٥:٦ بين المسيحيين والمسلمين ٠ ثم جرت الانتخابات بعد ان وافق المسلمون والمسيحيون على هذا الحل ٠ وتراشق الحزبان الرئيسيان ، الدستورى والوطنى ، التهم،

---

(١) المصدر نفسه ١٠٦٨ ٠ هذا ولا بد لنا ان نذكر ان الدكتور ثابت كان بروتستانتيا الا انه لم يكن ، فى اتجاهه السياسى ، ممثلا لطائفته ٠ ذلك لان البروتستانت فى لبنان لم يكونوا على علاقات مشبوهة مع فرنسا ٠ حتى انهم يتهمون فرنسا بانها كانت تعرقل مشاريعهم الثقافية والاجتماعية لصالح بعض الطوائف الاخرى ٠

(٢) المصدر نفسه ١٠٦٩

التى كان معظمها صحيحا • فاتهم الدستوريون الوطنيين بمؤازرة فرنسا وبيع لبنان ومصلحته لها رخيصا • واتهم الوطنيون الدستوريين بمؤازرة بريطانيا ، والسعى لتأسيس حلف عربى اسلامى ، تذوب فيه الاقلية المسيحية • ومع ان الطرفين كذبا هذه التهم ، الا ان الاوساط المارونية خذلت الدستوريين بينما خذلت الاوساط الاخرى الوطنيين • وكان للاموال البريطانية والافرنسية دور كبير فى تسيير وجهة الانتخابات ، حسب مصلحة كل منهما (١) •

وجاء بعد ذلك دور الانتخابات لرئاسة الجمهورية • فرشح الانكليز السيد بشاره الخورى ، والفرنسيون السيد اميل اده • فوقفت الفئات الاسلامية ، فى لبنان وسورية ، الى جانب مرشح الدستوريين ، الخورى • اما مؤسسات البلاد المارونية فقد ساندت المرشح الوطنى ، اده • وانتهت المعركة بنجاح الدستوريين ، ذوى السياسة التوسعية الاتحادية (٢) •

ساء فرنسا ذلك ، فدبرت مؤامرة تشرين الثانى سنة ١٩٤٣ واعتقلت رئيسى الجمهورية والوزارة ، وبعض الوزراء والنواب • ولكن الشعب وقف وقفته المشهورة فى وجه هذا الاعتداء الوقح على استقلال البلاد • الا ان عملاء فرنسا حاولوا اثارة الفتنة الطائفية فى تلك الظروف العصيبة ، ونشروا الشائعات عن تعديات المسلمين على المسيحيين ، وذكروا الناس بالفتن الطائفية التى جرت فى تاريخ هذا البلد • وبذلت فرنسا جهدها لان تحصر نطاق الثورة فى المناطق الاسلامية ، وان تستميل البطريرك المارونى الى جانبها • ونجحت فى كسب تأييد عدد من الصحف المارونية ـ مثل صوت الاحرار والبيرق والاوريان والبشير • وكانت مطبعة الاباء اليسوعيين تتولى طبع المناشير الفرنسية ضد الثورة • وبعد فشل الثورة ، لم يتخل عددمن وجهاء الموارنة عن السيد اميل اده الذى تعاون مع فرنسا ، وطالبوا بعدم

---

(١) المصدر نفسه ١٠٦٨ ـ ١٠٨٢

(٢) المصدر نفسه ١٠٨٦ ـ ١٠٨٧

محاكمته (١) ٠

وواصل الانجليز مساندة الدستوريين ، بعد ان كان لهمفضل كبير فى اطلاق سراح المعتقلين منهم ، لقاء دعوة هؤلاء الدستوريين الى الوحدة العربية التى كانت بريطانيا تعمل لهـا بجد منذ ١٩٤٢ ٠ وعلى اساس هذا السعى للوحدة ، مع استقلال لبنان ، قام التحالف المشهور بين السيدين بشاره الخورى المارونى ورياض الصلح السنى ـ وهو المعروف بالميثاق الوطنى ٠ فقد كان الموارنة ، من كتلويين وطنيين وكتائب وغيرهم ، يعارضون فكرة ميثاق الاسكندرية الداعى للوحدة العربية ٠ وكانت حجتهم ان الجامعة العربية تضـع فوق السيادةاللبنانية سيادةعربية اسلامية ،وهذا ما لا يقبل بهالمسيحيون (٢)
وهذا هو ما دعا الموارنة الانعزاليين الى مهاجمة كافة المشاريع العربية الاتحادية ، فى السياسة او القضاء او الجيش او الجمـارك او غير ذلك ٠ وهو ما يدعو هؤلاء الى محاربة المشاريع الاتحادية حتى اليوم٠ فالمسيحيون ، بالنسبة اليهم «يجب ان يحذروا من البلدان العربية٠ وان الذين يقولون بالتعاون العربى ويحبذون ميثاق الجامعة العربية هم مباعون للعرب ٠ وان المسيحيين لا حياة لهم فى هذه البلاد بدون حماية فرنسا» (٣) ٠

كان دور الميثاق الوطنى المعلن على لسان السيد رياض الصلح سنة ١٩٤٣ التوفيق بين هذين الاتجاهين ، العربى الاسلامى الساعى الى دمج لبنان فى وحدة عربية واسلامية شاملة ، واللبنانى المسيحى الساعى الى استقلال لبنان التام وانفصاله عن المجموعـة العربية ٠ فجاء الميثاق تسوية بين الاتجاهين ، تسوية مؤقتة تدل عـلى حنكة سياسية ، ولكنها لا تؤدى الى استئصال ما بين الفريقين من اختلاف وتطرف ٠ ويكاد الميثاق يكون اعظم تسوية لاوضاع لبنان الداخلية فى تاريخ الطائفية الطويل٠ فقد كرس هذا الميثاق الطائفية، واعترف بها ضمنا ، وسعى لان يوفق بين مختلف عناصرها ، بوضـع توازن دقيق بينها ٠ الا ان الميثاق لم ينزع جذورها ، ولميسع الى البحث عن

(١) المصدر نفسه ١١٤٩ ـ ١١٥٤ ـ ١١٩٤

(٢) Lauvser ٤٩ ـ ٨٧

(٣) دروزة ٢ : ١٢٣

هذه الجذور ، ولكنه اكتفى بان قلم فروعها ، وشذبها ٠ حتى بـــدا لبنان الطائفى امام الاعين الجاهلة واقعا جميــــل المنظر ، متناسق الاتجاهات ٠

وظهر اثر الميثاق الوطنى فى الميدانين الداخلى والخارجى ٠ففى الميدان الاول ثبت الميثاق قيام الدستور والادارة والحياة العامة عـلى الاسس الطائفية ، وجعل هم الحكومة مراعاة العصبيات الطائفية فى كافة شؤون لبنان ٠ اما على صعيد العلاقات الخارجية فقـــد كسب الميثاق تأييد الموارنة الاستقلاليين لمشروع الجامعة العربية ، مقابـل تأييد المسلمين الاتحاديين لاستقلال لبنان ٠ وحافظ الميثاق على شخصية لبنان المستقلة ، دون ان يبعده عن المجموعة العربية ٠ وتعهد المسلمون بالحفاظ على هذه الشخصية والتنازل عن سعيهم للوحدة التامـة ، مقابل تنازل الموارنة عن طلب الحماية الفرنسية ، والقبول بدخـول لبنان فى الجامعة العربية ٠

لقد اخفى هذا الميثاق المسمى بالوطنى حقيقة بشعة ، وهى ان استقلال لبنان ووضعه الدولى وحدوده ، وضع مرة اخرى موضـــع المساومة الطائفية ، وموضع المصالح الطائفية ، الجزئية ٠ وكرس علاقات الطوائف ضمن خطوط مصلحية وحزبيـــة ، بدل ان يعتبر بالخطوط الوطنية الجامعة ٠ لذلك لم يكن الميثاق ، الديمقراطى فى ظاهره ، الا وسيلة اخرى من الوسائل التى استثمرهـا الطائفيون لحجب طائفيتهم ، خجلامن الرأى العام الذى بدأيحس باثم الطائفية ٠
ومهما كانت نية المسؤولين عن اقامة الميثاق (ونحن هنا لا نحاسـب النيات) ومهما كان اخلاصهم للبنان ، فمما لا شك فيه ان الميثـــاق اصبح وسيلة طائفية يتلاعب بها الطائفيون كما يشاءون ٠

٠ ٠ ٠

ويعادى الانكماشيون من المسيحيين الوحـدة السورية ، مثل عدائهم للوحدة العربية ، خوفا من طغيان السيادة الاسلامية ، انقامت الوحدة السورية على اسس اسلامية ، وخوفا من طغيان الفكرةالقومية اللاطائفية ، ان قامت الوحدة على اسس قومية لا طائفية ٠

وسورية ، الجمهورية الحالية او الطبيعية تاريخيا ، عدو رئيسى للانكماشيين ٠ فهى مصدر خوف دائم لهـم ، نفسى وسياسى ٠ وهم

يعارضون فكرة التحالف ، او مجرد الائتلاف الجزئي ، معها . ومن يتبع تاريخ العلاقات اللبنانية السورية، دوليا وشعبيا، يلمس اثر الشعور الطائفي فيه (١) . فاي اتحاد بين البلدين ، او بين لبنان وباقي الدول السورية يعني ذوبان العصبية المسيحية في بوتقه اما وطنية جامعة او اسلامية طائفية . ومع ان المشاريع السياسية للوحدة السورية المتمثلة في وحدة الهلال الخصيب ، الا انها تسعى لسلخ المناطق التي الحقت بلبنان سنة ١٩٢٠ عنه والحاقها بسورية الموحدة . وهذا ما يحاربه الموارنة لانه يضعف لبنان اقتصاديا (٢) .

واظهر الطائفيون من الموارنة عداءهم للفكرة السورية القومية التي نادى بها الحزب السوري القومي الاجتماعي منذ نشوئه سنة ١٩٣٢ . ولا يلاقي الموارنة الذين انضموا الى هذا الحزب ـ ومنهم افراد ينتسبون الى عائلات عريقة في مارونيتها الطائفية والاجتماعية، الا حرمانا اجتماعيا وسياسيا ، من قبل ابناء طائفتهم ، دون الحرمان الديني .

وقد تبنت الكتائب اللبنانية مسألة الصراع مع هؤلاء بوجه خاص ، ومع الحزب بوجه عام ، منذ تأسيسها . وبين باحثي هذا الموضوع من يعتقد بان الصراع القومي ـ الكتائبي كان من مبررات وجود الكتائب واسباب نشوئها ، وان العضوية في الكتائب تزداد كلما ازدادت درجة هذا الصراع ، وتقل كلما فتر الصراع (٣) .

ورضيت بعض حكومات الاستقلال عن هذا الصراع الكتائبي ـ القومي ، مثلما كانت حكومات الانتداب تفعل . وتمكنت حكومة لبنان سنة ١٩٤٩ ـ وهي نفسها صاحبة مشروع الميثاق الوطني قبل ذلك بست سنوات ـ من الجمع بين الكتائب والنجادة ، وهما النقيضان اللدودان ، في جبهة مشتركة ضد الحزب الذي ينادي بلا طائفية قومية اجتماعية في البلاد .

---

(١) دورورزة ٢ : ١١٧

(٢) براوي ٤٧

(٣) بيهم ١٧٢ ـ ١٧٣

وجارت الفئات الاسلامية المتعصبة المسيحيين المتعصبين في النفور من النظرة القومية اللا طائفية . ومع ان حدة هذا النفور لم تبلغ درجة العداء الماروني لهذه النظرة الا ان المؤسسات الطائفية الاسلامية اعلنت الحرب على الحزب في عدة مناسبات . ومسلمو الحزب يتعرضون لاضطهاد ابناء طوائفهم . وتحذر بعض المؤسسات الاسلامية اعضاءها من الانتماء الى الحزب ، او التعاون معه . والعداء التقليدي بين النظريتين القوميتين السورية والعربية يحمل في طياته ، من ناحية العروبتين ، عداء طائفيا مدفونا . وهذا الكلام وان كان لا ينطبق على الحركات العربية غير الطائفية ، التي تكلمنا عنها في مكان آخر من هذا الفصل ، فهو ينطبق على اغلبية المؤمنين بالعروبة في مفهوم الشارع لها .

وبانخفاض عدد المنتمين الى الحزب من الموارنة والسنة ، بالنسبة الى سكان لبنان ، ملأ الدروز والارثوذكس مكانا كبيرا في عضوية الحزب ومسئولياته . وهذا ما عدا بعض الطائفيين الى اتهام الحزب بالعمل الطائفي ، لصالح الارثوذكس او الدروز ، بالرغم من عدم ارتباط الحزب بأي من هاتين الطائفتين ، ومن دعوته الى محاربة الطائفية .

وواضح ان الطائفيين من المسلمين ، وان كانوا يعارضون في دعوة الحزب السوري القومي الاجتماعي ، لا يعارضون فكرة الوحدة السورية ، مثلما يعاديها الموارنة ، كما انهم كانوا مع فلسطين ، في قضيتها ومحنتها .

اما الجماعات المارونية المعروفة بتعصبها وانكماشها فلم تنظر الى المسالة الفلسطينية نظرة عدل وحق وانصاف ، واخاء يربط لبنان بفلسطين . حتى ان هذه المسالة اصبحت عاملا في اذكاء العصبية الطائفية ، بدل ان تكون سببا لتوحيد البلاد امام الخطر الصهيوني الذي يداهمها .

والاتصالات بين الصهيونين وبعض الاوساط المارونية المتعصبة

قديمة العهد • فقد جرت منذ سنة ١٩٣٥ ، مقابلات وابحاث بين الدكتور وايزمن ورسله وبين نفر من المؤمنين بوجوب انشاء وطن قومي مسيحى فى لبنان • وجرت هذه الابحاث فى باريس ، ثم انتقلت الى لبنان • وادت الى بيع بعض الاراضى فى جنوب لبنان الى الصهيونيين • واضطر المطران حجار ، مطران كاثوليك شمال فلسطين ، لان يحتج على هذه الاعمال المعيبة بحق طائفته وبلاده (١)

واقتصر العمل للقضية الفلسطينية على الطوائف غير الانعزالية • وقلما قدم هؤلاء الانعزاليون مساعدات تفيد هذه القضية ، ماديا أو معنويا • وعلى العكس ، وجد بينهم من سهل للصهيونيين نشاطهم ، وعادى الوطنيين (١) •

وطالب البطريرك المارونى ، عريضة ، سنة ١٩٤٥ بتأسيس دولة صهيونية فى فلسطين ودولة مسيحية فى لبنان • وارسل الى هيئة الامم يطلب مساعدتها فى تحقيق هذين المشروعين • وهذا ما طالب به ايضا المطران مبارك امام لجنة التحقيق التى قدمت الى لبنان لدراسة القضية الفلسطينية • وقضى المطران المذكور مدة فى فرنسا ، يعمل فى سبيل هذا المشروع • ثم لما رجع الى لبنان واصل نشاطه ابان الحرب الفلسطينية • وقد فضحت جريدة «كل شىء» بعض اتصالاته مع الصهيونين فى حينها •

وبينما كان ابناء فلسطين وجنود الدول العربية يتلقون رصاص العدوان الصهيونى كان الانكماشيون من اللبنانين ، فى بلادهم وفى المهجر ، يدعون للصهيونين ويساعدونهم • ويعتقد بعض الذين تناولوا الموضوع ان بعض المتعصبين من المسيحيين ايدوا اسرائيل لانهم املوا ان يخفف قيام دولة اسرائيل من ضغط المسلمين على المسيحيين فى لبنان ، بحيث تصبح قضية الوطن القومى المسيحى فى لبنان مسألة سهلة التحقيق (٢) •

---

(١) المصدر نفسه ١٣٦ ـ ١٤١

(٢) لا ننكر ان بين الموارنة من عادى الصهيونية عداء شديدا ، واشترك مع الفئات الوطنية فى حربها ضد الصهيونية • حتى منظمة الكتائب نفسها ، وجد فيها نفر قليل دعا الى الاشتراك فى معاداة الصهيونية •

قلت فى مطلع هذا الفصل ان طائفية القرن العشرين اصبحت طائفية علم مزور • وقد رأينا كيف تحولت العصبيتان المسيحية والاسلامية الى قوميتين، لبنانية وعربية ، وكيف سيطرنا على علاقات لبنان مع العالم العربى وسورية الطبيعية وفلسطين ، وعلى وضع لبنان الدولى ، وعلاقات طوائفه داخل البلاد • ويجدر بى ، قبل ان انهى الفصل ، ان اتناول ثلاث ظواهر مرتبطة بموضوع الطائفية فى القرن العشرين ، باختصار كلى •

والظاهرة الاولى ادبية • فقد **ادى النزاع الطائفى ـ «القومى» الى نشوب نزاع ادبى ، حول افضلية الادبين اللبنانى والعربى على بعضهما بعضا** • فالمسيحيون يعتبرون لبنان مصدر النهضة الادبية والعلمية الحديثة فى العالم العربى • اما المسلمون فيرجعون فضل هذه النهضة الى مصر ،الاسلامية • **كما تحول الخلاف بين دعاة العامية والفصحى ، او بين دعاة تيسير العربية او ابقائها على حالها ، او بين دعاة استعمال الاحرف اللاتينية او العربية ، او بين دعاة استعمال الارقام الهندية والعربية ، وغير ذلك من الشؤون الفكرية ، الى خلاف طائفى ، وان كان الثوب الذى يظهر فيه ثوبا ادبيا علميا ، ومن** المؤسف ان يتهم عالم فاضل كالدكتور انيس فريحة بالتعصب الطائفى لمجرد دعوته الى تبسيط اللغة العربية ، كما كتب عنه مؤلفا كتاب التبشير والاستعمار (١)

اما الظاهرة الثانية فهى نفسية • **ذلك ان الميثاق الوطنى الذى كرس الطائفية فى الدستور وفى معاملات الشعب واوجد توازنا دقيقا بين الطوائف ادى الى تعميم الطائفية فى نفسية الشعب ، وفى مفاهيمه العامة • فلم تعد الطائفية مشكلة طائفه مع اخرى بل مشكلة كل افراد الطائفة الواحدة مع افراد الطائفة الاخرى • وتحول** النزاع بين الطوائف على المناصب وبنود الدستور الى صراع حول الاذان واجراس الكنائس ، والتصفيق فى السينما لمنظر صليب او منظر هلال ، واقامة الزينة لعيد اسلامى والطواف بتمثال مسيحى ، الخ •

---

(١) خالدى وفروخ ٢٢٣ ـ ٢٢٤

فقد كرس الميثاق الوطنى التوتر النفسى بتكريسه الطائفية فى لبنان ٠

والظاهرة الثالثة ديمقراطية ٠ فقد اصبح الطائفيون ينادون ببعض الاصلاحات الاجتماعية التى تبدو ، للعين البسيطة البعيدة عن مجرى الامور ، اصلاحات حيوية لابد منها ٠ اما المراقب فيعرف ان القصد منها طائفى ٠ فالمسلمون يطالبون باجراء احصاء عام لجميع المواطنين ٠ وهذا مطلب ديمقراطى حق ، اذ ان من مستلزمات الدول الحديثة معرفة عدد السكان ومذاهبهم ، كمقدمة لاجراء الانتخابات النيابية والمحلية ٠ والمسيحيون يطالبون بفصل الشرع الدينى عن النظم القضائية ، وهذا ايضا مطلب ديمقراطى حق ٠ فالدين علاقات روحية ، ويجب الا يسيطر على العلاقات المدنية الادارية ٠ الا ان هذين الطلبين ، الديمقراطيى الاثواب ، وغيرهما من المطالب الاخرى الشبيهه بهما ، ليسا الا وسيلة من الوسائل الحديثة التى تسلكها الطائفية فى سعيها لتثبيت نفوذها فى لبنان ٠ فالمسلمون يبغون من مطلبهم نزع الصبغه المسيحية عن لبنان الرسمى وجعل المناصب العليا فيه اسلامية ، والمسيحيون يبغون نزع الصبغه الاسلامية عن التشريع المدنى اللبنانى ٠ فقد زور المسلمون والمسيحيون ، الطائفيون ، الديمقراطية ، مثلما زوروا العلم والعقائد من قبل ٠

ولا تصبح هذه المطاليب ديمقراطية الا عندما تتخلى عن الاسس الطائفية التى تقوم عليها ٠ كما ان القومية والعربية اللبنانية لا تتنقى الا عندما تتخلى عن الاسس الطائفية التى تقوم عليها ٠ فالصراع القومىوالديمقراطى ، النظرى ، هو امل الاصلاح فى لبنان ٠ الا انه لا يكون صراعا محترما ومثمرا ما دام اساسه طائفى

يؤمنا لدكتور نبيه فارس، المتفائل بالعروبة كثيرا، بأنالصراع العقدى المقبل سيكون بين القوميتين العربية والاسلامية ٠ ونحن نرجو ان تتغلب الاولى على الثانية ، وتتنقى من ادرانها ، لتصبح قادرة على الاشتراك فى المعركة العلمية التى تدعوها اليها القومية السورية ، مثلما تدعو القومية اللبنانية ، شرط ان تتخلى هىالاخرى عن مسيحيتها ٠

وما لم يتم مثل هذا الصراع الفكرى ستظل البلاد فريسة اخطر المراحل الطائفية ، وتقف على عتبة مستقبل مظلم يفوق خطره كافة المآسى التى شاهدها لبنان فى ماضيه ٠

• • •

لقد آن للبنان ان يزيح عن صدر واقعه هذا الخطر الطائفى الجاثم منذ فجر التاريخ ٠

وآن للبنان اللاطائفى ان يسق لبنان الطائفى هذا ٠

فيما يلي اسماء الكتب التي رجعت اليها في اعداد هذا البحث. وكنت اكتفي ، عند ذكرها في حواشي الكتاب ، بوضع اسم المؤلف فقط ، الا اذا كان للمؤلف اكثر من كتاب واحد . وواضح ان الكثير من الكتب المذكورة لاتبحث في موضوع الطائفية في لبنان بصورة مباشرة . ولكنها تشترك بمجموعها، في تكوين فكرة شاملة عن تاريخ هذا الموضوع ،خاصة في الاجزاء والصفحات التي اشرت اليها في حواشي الكتاب .اما الصحف والنشرات الدورية فقد اكتفيت بذكرها في الحواشي،ولم اشر اليها في هذه القائمة .

ابن تغري بردى ، ابو المحاسن ،**النجوم الزاهرة فيملوك مصر والقاهرة** (كاليفورنيا ، ١٩٠٩)

ابن عبد الحكم ، عبد الله ،**سيرة عمر بن عبد العزيز** (مصر الرحمانية ، ١٩٢٧)

ابن عبد الحكم ، عبد الرحمن ،**فتوح مصر** (ليدن ، بريل ، ١٩٢٠)

ابن عساكر ، على ،**التاريخ الكبير** (دمشق ، روضة الشام ، ١٣٢٩ هـ .)

ابن قتيبة ، عبد الله بن مسلم ،**عيون الاخبار** (مصر ، دار الكتب ، ١٩٢٥)

ابن القلاعى ، المطران جبرائيل اللحفدى ، **حرب المقدمين** (بيت شباب ، العلم ، ١٩٣٧)

ابن يحيى ، صالح ،**تاريخ بيروت** (بيروت الكاثوليكية ، ١٨٩٨)

ابو اسماعيل ، سليم ،**الدروز** (بيروت ، فضول ،)

ابو خطار ، انطونيوس ،**مختصر تاريخ جبل لبنان** (بيروت ، الكاثوليكية ، ١٩٥٣)

ابو شقرا ، يوسف ، **الحركات فى لبنان**
(بيروت ، ١٩٥٢)
الاتحاد اللبنانى ، **المسألة اللبنانية**
(القاهرة ، المعارف ، ١٩١٣)
اديب ، اوغست ، **لبنان بعد الحرب**
(القاهرة ، المعارف ، ١٩١٩)
الاسود ، ابراهيم ، **ذخائر لبنان**
(بعبدا ، العثمانية ، ١٨٩٦)
اصاف ، يوسف ، **مركز لبنان السياسى**
(القاهرة العمومية ، ١٩٢٠)
الانطاكى ، يحيى بن سعيد ، **تاريخ يحيى بن سعيد**
(باريس ، ١٩٣٢)
باشا ، الخورى قسطنطين ، **طائفة الروم الملكية**
(صيدا ، دير المخلص ، ١٩٣٨)
البراوى ، الدكتور راشد ، **مشروع سورية الكبرى**
(مكتبة النهضة المصرية ، ؟)
بريك ، الخورى ميخائيل ، **تاريخ الشام**
(حريصا ، القديس بولس ،١٩٣٠)
البشعلانى ، الخورى اسطفان ، **لبنان ويوسف بك كرم**
(بيروت ، صادر ، ١٩٢٥)
البلاذرى ، ابو العباس احمد ، **فتوح البلدان**
(ليدن ، بريل ، ١٨٦٦)
بيهم ، محمد جميل ، **(فلسطين اندلس الشرق)**
(بيروت ، ١٩٤٦)
ترتون،ا٠س٠ وترجمةحسنحبشى، **اهل الذمة فى الاسلام**
(القاهرة ، الاعتماد ،)
الترك ، نقولا ، **مذكرات نقولا الترك**
(القاهرة ، ١٩٥٠)
تقى الدين ، منير ، **ولادة استقلال**
(بيروت ، العلم للملايين ، ١٩٥٣)

توما ، سويروس ، **تاريخ الكنيسة السريانية الانطاكية**
(بيروت ، ١٩٥٣)

جمال باشا ، احمد ، **ايضاحات**
(الطنين ، ١٣٣٤ هـ)

حتى ، الدكتور فيليب ، **سورية والسوريون من نافذة التاريخ**
(نيويورك ، التجارية ، ١٩٢٦)

الحصرى ، ساطع ، **محاضرات فى نشوء الفكرة القومية**
(مصر ، الرسالة ، ١٩٥١)

الحصرى ، ساطع ، آراء **واحاديث فى القومية العربية**
(مصر ، الاعتماد ، ١٩٥١)

حنين ، ادوار ، الطائفية فى لبنان ، **محاضرة فى الندوة اللبنانية ، سنة**
٤ نشرة ٧ و٨ سنة ١٩٥٠ من ١٠٢
ـ ١٢٤

الخازن ، فليب وفريد ، مجموعة المحررات السياسية والمفاوضات
الدولية (جونيه ، ١٩١٠)

الخالدى ، احمد بن محمد ، لبنان **فى عهد الامير فخر الدين المعنى**
الثانى (بيروت ، الكاثوليكية ١٩٣٦)

خالدى ، الدكتور مصطفى ، وفروخ ، الدكتور عمر ، **التبشير والاستعمار**
فى البلا العربية (بيروت ، المكتبة العلمية ، ١٩٥٣)

خباز ، حنا ، **فرنسا وسوريا**
(مصر ، علم الدين ، ١٩٢٨)

دروزة ، محمد عزة ، **حول الحركة العربية الحديثة**
(صيدا ، العصرية ، ١٩٥٠)

دريان ، المطران يوسف ، **نبذة تاريخية فى اصل الطائفة المارونية**
(بيروت ، العلمية ، ١٩١٩)

الدبس ، المطران يوسف ، **تاريخ سورية**
(بيروت ، العمومية ، ١٨٩٨)

الدينورى ، احمد ، **الاخبار الطوال**
(مصر ، السعاده ، ١٣٣٠ هـ)

الدويهى ، البطريرك اسطفان ، **تاريخ الازمنة** (بيروت ، الكاثوليكية ، ١٩٥١)

الدويهى ، البطريرك اسطفان ، **تاريخ الطائفة المارونية** (بيروت ، الكاثوليكية ، ١٨٩٠)

الواد ، دار **الاحزاب السياسية فى سورية** (دمشق ، العمومية ، ١٩٥٤)

رستم ، الدكتور اسد ، **المحفوظات الملكية المصرية** (بيروت ، الاميركانية ، ١٩٤٠)

رستم ، الدكتور اسد ، **الاصول العربية لتاريخ سورية فى عهد** محمد على باشا (بويرت ، الاميركانية ١٩٣٠)

الرياشى ، اسكندر ، **قبل وبعد** (بيروت ، الحياة ، ١٩٥٣)

زغيب ، الخورى ، **تاريخ عود النصارى الى جرود كسروان** (مصر ، المقتطف ، ؟)

الزين ، احمد عارف ، **تاريخ صيدا** **(صيدا ، العرفان ، ١٣٣١ هـ)**

الزين ، على ، **مع التاريخ العاملى** (صيدا ، العرفان ؟)

الزيات ، حبيب ، **الديارات النصرانية فى الاسلام** (بيروت الكاثوليكية ، ١٩٣٨)

الزيات ، حبيب ، **الروم الملكيون فى الاسلام** (حريصا : البولسية ، ١٩٥٣)

الزيات ، حبيب ، **الصليب فى الاسلام** (حريصا ، القديس بولس ، ١٩٣٥)

سعاده ، انطون ، **نشوء الامم** (بيروت ، ١٩٣٨)

الشدياق ، طنوس ، **اخبار الاعيان فى جبل لبنان** (نشر بطرس البستانى ؟)

الشهابى ، الامير حيدر ، **الغرر الحسان فى تواريخ حوادث الازمان** (مصر ، السلام ، ١٩٠٠)

شيخو ، الاب لويس ، **بيروت : تاريخها واثارها** (الاباء اليسوعيين ، ١٩٢٥)

صايغ ، فايز ، **الطائفية** (بيروت ، الثبات ، ١٩٤٧)

الطبرى ، محمد بن جرير ، **تاريخ الرسل والملوك** (ليدن ، بريل ، ١٩٠١)

طرازى ، فليب دى ، **عصر السريان الذهبى** (بيروت ، جدعون ، ١٩٤٦)

عصبة من الكتاب الاحرار ، **مؤتمر الشهداء** **(منشورات جريدة اليوم ، ١٩٥٥)**

عطية ، جورج ، **نشوء فكرة سورية الكبرى وتطورها** والاسلام (مصر ، الكاتب العربى) الاميركية فى بيروت)

غالب ، الخورى بطرس ، **صديقه ومحاميه** (بيروت ، الكاثوليكية ، ١٩٢٣)

الغزالى ، محمد ، **التعصب والتسامح بين المسيحية** والاسلام (مصر ، الكاتب العربى)

فارس ، الدكتور نبيه ، **العرب الاحياء** (بيروت ، العلم للملايين ، ١٩٤٧)

فرنسا ، وزارة الخارجية ، **التقرير عن حالة سورية ولبنان**

فيتالى ، الاب توما ، **لبنان فى السنة ١٦٤٣** (طرابلس ، صدى الشمال ، ١٩٣٨)

قطان ، المطران باسيليوس ، **مصادر تاريخية لحوادث لبنان وسوريا** (بيروت ، الكاثوليكية ، ١٩٢٩)

كرد على ، محمد ، **خطط الشام ، ج ٢** (دمشق ، ١٩٢٥)

كرم ، بطرس ، **قلائد المرجان في تاريخ شمالي لبنان**
(بيروت ، الهدى ، ١٩٢٩)
الكندي ، محمد بن يوسف ، **كتاب الولاة وكتاب القضاة**
(بيروت ، الاباءاليسوعيين ، ١٩٠٨)
الكيالي ، الدكتور عبد الرحمن ، **رد الكتلة الوطنية على بيان المفوض السامي** (؟ ، ١٩٣٣)
مزهر ، الدكتور يوسف ، **تاريخ لبنان العام**
(بيروت ؟)
مسعد ، بولس ، **لبنان والدستور العثماني**
(مصر ، المعارف ،)
مسعد ، بولس ، **لبنان وسورية قبل الانتداب وبعده**
(مصر ، السورية ، ١٩٢٩)
مشاقة ، ميخائيل ، **مشهد العيان بحوادث سوريا ولبنان**
(مصر ، ١٩٠٨)
معلوف ، لويس ، **تاريخ حوادث الشام ولبنان**
(بيروت ، الكاثوليكية ١٩١٢)
معلوف ، عيسى ، **تاريخ مدينة زحلة**
(زحلة ، زحلة الفتاة ، ١٩١١)
موسهيم ، يوحنا وترجمة جسب **تاريخ الكنيسة المسيحية القديمة والحديثة** ،
(بيروت ، الاميركانية ١٨٧٥)
نولدكه ، تيودور ، وترجمة بندلي الجوزي وقسطنين زريق ، **امراء غسان** (بيروت الكاثوليكية، ١٩٣٣)
يازجي ، ناصيف ، **رسالة تاريخية في احوال لبنان في عهده الاقطاعي** (حريصا ، القديس بولس) .
يمين ، الخوري انطون ، **لبنان في الحرب**
(بيروت ، الادبية ، ١٩١٩)

المحتويات